www.kotobarabia.com



ماركسية تروتسكى

دانكن هالاس

مركز الدراسات الاشتراكية

www.kotobarabia.com

ماركسية تروتسكى

دونكان هالاس

مركز الدراسات الاشتراكية

طبقا لقوانين الملكية الفكرية

جميع حقوق النشر و التوزيع الالكتروني لهذا المصنف محفوظة لكتب عربية. يحظر نقل أو إعادة نسخ أو إعادة بيع اى جزء من هذا المصنف و بثه الكترونيا (عبر الانترنت أو للمكتبات الالكترونية أو الأقراص المدمجة أو اى وسيلة أخرى) دون الحصول على إذن كتابي من كتب عربية. حقوق الطبع الورقى محفوظة للمؤلف أو ناشره طبقا للتعاقدات السارية.

فهرس

مقدمة

ولد ليون تروتسكى في ١٨٧٩ ونضج وتطور وعيه في عالم حمل عصاه ورحـل، عـالم ماركسـية الاشـتراكية الديمقراطية الخاصة بالأممية الثانية.

وفي كل جيل توجد حالات ذهنيـة عديـدة وممكنـة، تضرب بجذورها في الظروف الواسـعة الاخـتلاف، وفـى النظام الاجتماعي، والأيديولوجيات التي تتعايش مع بعضـها البعض في وقت واحد. وقد كانت أيديولوجيـة الاشـتراكية الديمقراطية هي الأكثر تطورا، الأكثر قربا من رؤية ماديـة علمية للعالم حتى ذلك الوقت، وكان إنجازاً في حد ذاتـه أن يصل لهذه الرؤية لي دا فيدوفيتش برونشتاين (الاسم الحقيقي لتروتسكى) وهو ابن لعائلة فلاحيه يهودية من أوكرانيا. كان برونشتاين الأب فلاحا غنيا - كـولاك - وهـو مـا أتـاح لتروتسكى الحصول على قسط بسيط مـن التعلـيم - كـان يهوديا في بلد تشجع فيه السلطات معاداة السـامية ومـذابح اليهود. على أي حال أصبح تروتسكى الشـاب بعـد بدايـة قصيرة من الثورية الرومانسية، ماركسيا. وبعد ذلك، وتحت ظروف الاوتوقراطية القيصرية، أصبح ثوريا محترفا وسجينا

سياسيا . قبض عليه لأول مرة في عمر التاسعة عشر وحكم عليه بالنفي لسيبيريا لمدة ٤ سنوات بعد أن قضى ١٨ شهرا بالسجن، وقد هرب عام ١٩٠٢، ومنذ ذلك الحـين وحتـى موته، ظلت الثورة مهنته.

هذا الكتاب الصغير يهتم بالأفكار وليس بالأحداث، ولا يمكن اعتباره بأي حال من الأحوال تاريخ لحياة تروتسـكى، فثلاثية دويتشر، بغض النظر عن نقدنا للاستنتاجات السياسية للكاتب، ستظل البيوجرافيا الأساسية عن تروتسـكى لـزمن طويل. إلا أن أي محاولة لتقديم ملخص لأفكـار تروتسـكى ستواجه فورا بمشكلة كبيرة. لقد كان تروتسكى مهتما طـول حياته أكثر من أي من المفكرين الماركسيين العظام (باستثناء لينين) بالمشاكل المباشرة التي تواجه الثوريين في الحركـة العمالية. فتقريبا كان ما قاله أو كتبه له علاقة بمسألة كانـت آنية أو بصراع كان دائرا، إن الفرق بين هذا وبين ما يعرف الآن بالماركسية الغربية فرق شاسـع. وقـد كتـب مـؤرخ متعاطف مع هذه الماركسية الغربية "إن أول وأهم صـفاتها الجوهرية هو انفصالها البنيوى عن الممارسة السياسـية"[أ] . هذا هو آخر ما يمكن أن يقال عن ماركسية تروتسكي.

لذا، فإن من الضروري تقديم بعض عناصر الخلفية للأحداث التي كون من خلالها تروتسكى آراءه، ولو بشـكل سريع وغير كافي.

كانت روسيا متخلفة، وأوروبا متقدمة، تلـك كانـت نقطة البداية لكل الماركسيين الروسيين (وليس الماركسـيين فقط بالطبع). أوروبا كانت متقدمة لأن تصنيعها كان متطورا ولأن الاشتراكية الديمقراطية، في شكل أحزاب عمالية كبيرة الحجم تدعى الولاء للبرنامج الماركسي، كانت تنمو بسـرعة بالنسبة للروس (ولدرجة ما بالنسبة للجميع) كانـت أحـزاب الدول الناطقة بالألمانية هي الأهم. كانت الأحزاب الاشتراكية الديمقراطية للإمبراطورتين الألمانيـة والنمسـاوية أحزابـا عمالية تتوسع واعتنقت برامج ماركسية بالكامـل (برنـامج الايرفورت الألماني عام ١٨٩١ وبرنامج هاينفلد النمسـاوي عام ١٨٨٨) وقد كان تأثيرهم على الماركسيين الروس كبير. وقويت الصلة نتيجة لأن بولندا، والتي كانت طبقتها العاملـة ثائرة بالفعل، كانت مقسمة بين إمبراطورية القيصر الروسي وإمبراطوريتي القيصرين الألماني والنمساوي. وقـد ولـدت روزا لوكسمبورج، كما نعلم، في هذا الجزء من بولندا الذى

كان يقع تحت الاحتلال الروسي غير أنها أصبحت شخصـية بارزة ومهمة في الحركة الألمانية. لم يكن هذا مستغربا على الإطلاق. فالاشتراكيون الديمقراطيون كانوا يعتبرون الحدود القومية مسألة ثانوية.

ومن ناحية الأفكار فلقد تمكنت هذه الحركة (السـرية في ألمانيا بين ١٨٧٨ و ١٨٩٠ قبل أن تحصل على مليـون ونصف صوت في انتخابـات محـدودة فـي ١٨٩٠) مـن الاستمرار نتيجة لاندماج الماركسية المبكرة بالتطويرات آلتي أضافها فريدريك إنجلز في أواخر القرن التاسع عشر. لقـد كان كتابه ضد دوهرنج (١٨٧٨)، وهو محاولـة للوصـول لنظرة كلية علمية للعالم، أساسا لفجاجات كارل كاوتسـكي، بابا الماركسـية، والأطروحـات الأكثـر عمقـا للروسـي بليخانوف.

في هذا العالم الثقافي/ العملي المثير- حيـث أسـس إنجلز ومقلدوه سياسات الربط بين النظرية والممارسـة فـي الحزب العمالي- تطور تروتسكى الشاب نظريا وسرعان ما أصبح أكثر من تلميذ للكبار. وكان احترامه أمر عميـق، إلا أنه في خلال سنوات من تشبعه بالرؤية الماركسـية للعـالم

تحدى الأرثوذكسية الماركسية في مسألة الـدول المتخلفـة. ولكن قبل ذلك كان عليه أن يقابل قادة الماركسـية الروسـية المهاجرون وأن يلعب دورا مرموقـا فـي مـؤتمر ١٩٠٣ للحزب الاشتراكي الديمقراطي العمـالي الروسـي - وهـو المؤتمر التأسيسى الحقيقي.

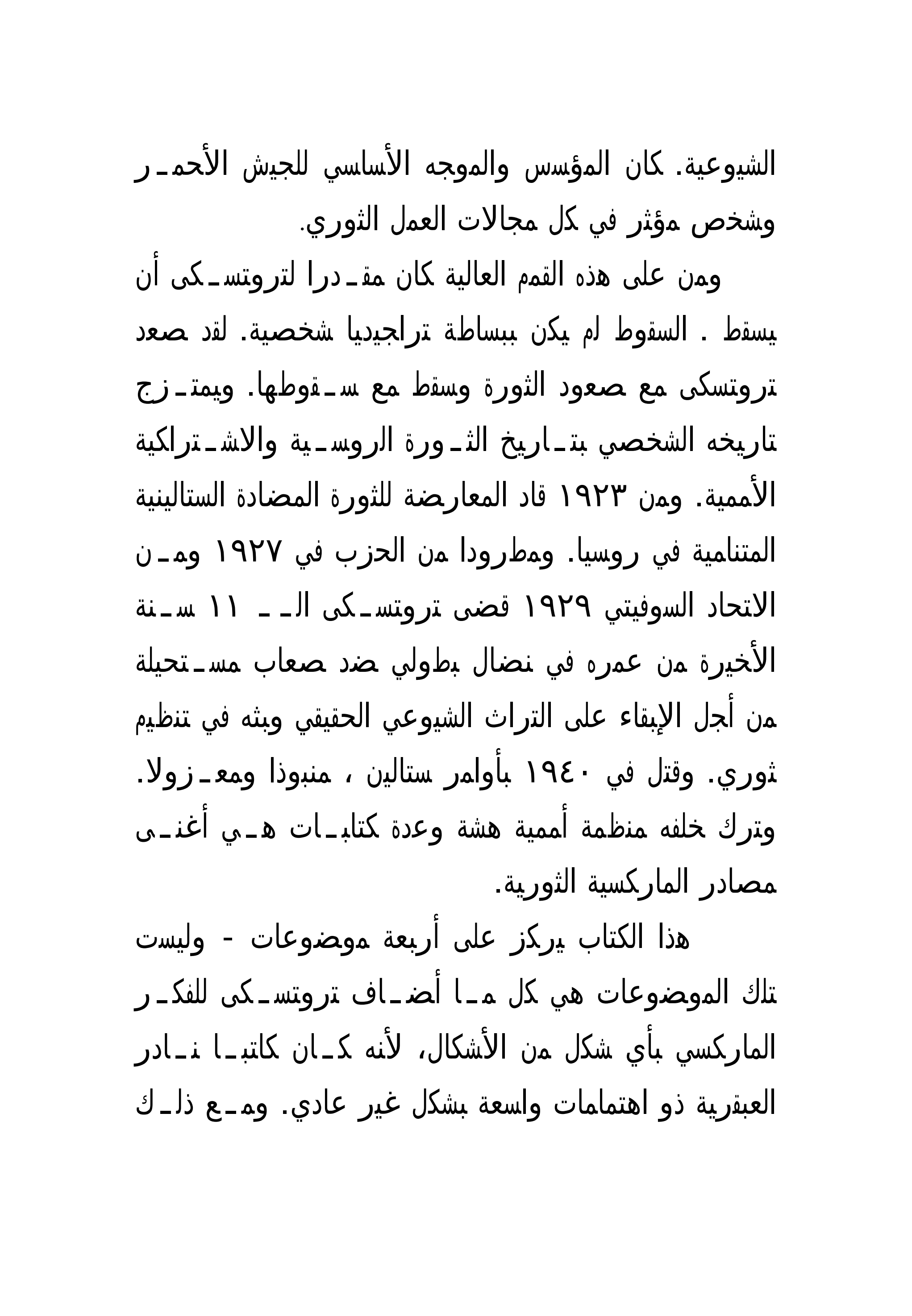
هرب تروتسكى من فيركولند في سيبيريا مختبئا فـي كومة من القش في صيف ١٩٠٢، وبحلول أكتوبر كان قـد وصل إلى مركز قيادة الاشـتراكية الديمقراطيـة الروسـية بالقرب من محطة كينجز كروس في لندن، وحيث كان يعيش كل من لينين وكروبسكايا ومارتو وفيرا زاسوليتش في هـذه المنطقة ومن هناك خرجت الإيسكرا، مجلة أنصـار حـزب مركزي منظم، وكانت توزع سريا في روسيا وسرعان مـا اشترك تروتسكى في الخلافات الدائرة داخل فريـق عمـل الإيسكرا، وقد أراد لينين ضمه لهيئة التحرير بينما عـارض بليخانوف الفكرة بشدة - وهكذا تعرف تروتسكى عن قـرب على قادة المناشفة المستقبليين بليخانوف ومارتوف بالإضافة إلى لينين. لقد كان الانقسام في مجموعة الإيسكرا قد بدأ في الاختمار. وظهر الخلاف والانقسام على السطح في المؤتمر

في صيف ١٩٠٣، وقد وقف الأيسكراويون معا ضد مطالب البوند، المنظمة اليهودية الاشتراكية، في الاستقلال بالعمل في وسط اليهود. كما وقفوا معـا ضـد الاتجـاه الإصـلاحي للاقتصادويين. ثم أتى الانقسام في مجموعة الإيسـكرا إلـى الأغلبية البلشفية والأقلية المنشفية. لم يكن الانقسام قاطعا منذ البداية - فالمسائل المختلف عليها ذاتها لـم تكـن واضـحة تماما. وقف بليخانوف إلى جانب لينين في البداية بينما ساند تروتسكى القائد المنشفى مارتوف.

وبعد عامين عاد تروتسكى لروسيا. وكانـت ثـورة ١٩٠٥ قد اندلعت. وصعد تروتسكى فيها إلى قمة مجده. في سن السادسة والعشرين أصبح تروتسكى أكثر قائـد ثـورة مرموق وشخصية معروفة عالميا. لقـد خـرج مـن حيـاة المجموعات الصغيرة وسياسة المنفى لكي يتحـول لخطيـب رائع وقائد جماهيري. وقد تمكن كرئيس لسوفيت بتروجـراد من ممارسة درجة ما من القيادة التكتيكية وأثبت درجة عالية من الثقة وأعصاب حديدية، وهى الصفات التي ستميزه مرة أخرى إبان صعود ثورة ١٩١٧.

هزمت الثورة، وارتج الجيش القيصري، ولكن لم ينكسر ومن هذه التجربة، التي سماها لينـين "البروفـة"، ابتعـدت الاتجاهات المتباينة داخل الاشتراكية الديمقراطية عن بعضها البعض أكثر، أما تروتسكى والذي كان مـا يـزال منشـقياً اسميا. فقد طور تحليله الخاص جدا، نظرية الثورة الدائمة.

وأمضى الثوريون العقد التالي في حلقـات المهـاجرين الصغيرة وفى محاولات فاشلة لتوجيه ما كـان قـد أصـبح تيارات متعارضة. ثم جاءت الحرب العالمية الأولى والنضال ضدها، ثم التخلص من القيصر في فبراير ١٩١٧. وانضـم تروتسكى للحزب البلشفي، والذي كان قد أصبح حينئذ حزبا عماليا جماهيريا حقيقيا في يوليو.. وكانت شخصيته وموهبته وسمعته وراء تمتعه بمكانة رفيعة لدرجة أنـه صـار فـي غضون أسابيع قليلة الرجل الثاني بعـد لينـين فـي أعـين الجماهير المؤيدة للحزب. وتم تكليفه بالتنظيم الفعلي لانتفاضة أكتوبر، وفى سن الـ ٣٨ أصبح واحدا من أهم شخصـيتين أو ثلاث في الحزب وفى الدولة وبعد ذلك بقليل أصبح أيضا أهم القادة البارزين للحركة الشـيوعية العالميـة، الأمميـة



الشيوعية. كان المؤسس والموجه الأساسي للجيش الأحمـر وشخص مؤثر في كل مجالات العمل الثوري.

ومن على هذه القمم العالية كان مقـدرا لتروتسـكى أن يسقط . السقوط لم يكن ببساطة تراجيديا شخصية. لقد صعد تروتسكى مع صعود الثورة وسقط مع سـقوطها. ويمتـزج تاريخه الشخصي بتـاريخ الثـورة الروسـية والاشـتراكية الأممية. ومن ١٩٢٣ قاد المعارضة للثورة المضادة الستالينية المتنامية في روسيا. ومطرودا من الحزب في ١٩٢٧ ومـن الاتحاد السوفيتي ١٩٢٩ قضى تروتسـكى الـ ـ ١١ سـنة الأخيرة من عمره في نضال بطولي ضد صعاب مسـتحيلة من أجل الإبقاء على التراث الشيوعي الحقيقي وبثه في تنظيم ثوري. وقتل في ١٩٤٠ بأوامر ستالين ، منبوذا ومعـزولا. وترك خلفه منظمة أممية هشة وعدة كتابـات هـي أغنـى مصادر الماركسية الثورية.

هذا الكتاب يركز على أربعة موضوعات - وليست تلك الموضوعات هي كل مـا أضـاف تروتسـكى للفكـر الماركسي بأي شكل من الأشكال، لأنه كـان كاتبـا نـادر العبقرية ذو اهتمامات واسعة بشكل غير عادي. ومـع ذلـك

فإن عمل حياته كان مركزا بشكل أساسي على هذه المسـائل تلك وتتعلق بها غالبية كتاباته الضخمة بشكل أو بآخر.

تلك المسائل هي، أولاً، نظريـة الثـورة الدائمـة، وأهميتها للثورات الروسية في القرن العشرين وللتطـورات اللاحقة في الدول المستعمرة وشبه المستعمرة، مـا يعـرف لليوم بـ *"العالم الثالث"*. ثانياً، ما نتج عـن ثـورة أكتـوبر الروسية ومسألة الستالينية. لقد قـام تروتسـكى بالمحاولـة الأولى المتسعة لتحليل مادي تاريخي للسـتالينية، وتحليلـه، بغض النظر عن أي انتقادات ممكن توجيهها له، كان نقطـة البداية لكل التحليلات اللاحقـة الجـادة مـن وجهـة نظـر ماركسية. ثالثاً، اسـتراتيجية وتكتيكـات الحـزب الثـوري الجماهيري في مختلف الحالات وهو مجال لم تكـن إضـافة تروتسكى فيه أقل من إضافة ماركس ولينين، رابعاً، مسـألة العلاقة بين الحزب والطبقة والتطوير التاريخي الذي أوقـع الحركة الثورية في مركز هامشي بالنسبة للمنظمات العمالية الجماهيرية.

وصف إسحاق دويتشر تروتسكى في سنواته الأخيرة "***بالخلاصة المتبقية من الماركسية الكلاسيكية***". لقد كان هذا

وأكثر. وهذا هو ما يعطى لفكره هـذه الأهميـة المعاصـرة الضخمة.

الفصل الأول

الثورة الدائمة

اكتسبت الثورة الصناعية خلال الثلث الأخير من القرن الثامن عشر، وهى أهم وأعمق تغيير في مجمل تاريخ الجنس البشرى بعد تطوير الزراعة في الماضي القديم، ديناميكية لا تقاوم في ركن صغير من العالم. ولكن سرعان ما وجد الرأسماليون البريطانيون مقلدين لهم في دول أخرى اكتسبت فيها البرجوازية السلطة أو اقتربت من اكتسابها.

بحلول القرن الحالي كانت الرأسمالية الصناعية قد سيطرت تماما على العالم، وغطت الإمبراطوريات الاستعمارية البريطانية والفرنسية والألمانية والروسية والأمريكية والبلجيكية والهولندية والإيطالية واليابانية على معظم سطح الكرة الأرضية. أما المجتمعات ما قبل الرأسمالية التي حافظت على استقلال أسمى (الصين وإيران والإمبراطورية التركية وإثيوبيا، الخ) فلقد كانت في الحقيقة واقعة تحت سيطرة إحدى القوى الإمبريالية أو مقسمة بين أكثر من واحدة من تلك القوى ويعبر مصطلح "مناطق النفوذ" عن هذا الوضع بدقة. كان هذا "الاستقلال" الرمزي المتبقي نتيجة للنزاعات بين الإمبرياليات المتنافسة (بريطانيا ضد روسيا في إيران، بريطانيا ضد فرنسا في تايلاند، بريطانيا

ضد ألمانيا ومعهم روسيا في تركيـا، بريطانيـا والولايـات المتحدة وألمانيا وروسيا وفرنسا واليابان ومنافسين أصغر في الصين).

إلا أن الدول التي استعمرت أو سيطر عليها بواسطة القوى الصناعية الرأسمالية لم تحول، عموما، إلـى صـورة طبق الأصل من الدولة الأم، على العكس، بقيت تلك الـدول غير مصنعة بالأساس. كان تطورها الاجتماعي والاقتصادي متأثرا للغاية - أو مشوها للغاية - بواسـطة الاسـتعمار أو السيطرة ولكنها لم تتحول، عامة، إلى نوع المجتمع الجديد.

وما يزال وصف ماركس الشهير لتحطـيم صـناعة النسيج الهندية (والتي اعتمدت على المنتجات رفيعة المستوى يصنعها حرفيين مستقلين) علـى يـد المنتجـات القطنيـة الرخيصة المصنعة بماكينات لانكشـير الإنجليزيـة وصـفا معقولا للتأثير الأولى للرأسمالية الغربية على ما يسمى الآن ب- "العالم الثالث" :الإفقار والتخلف الاجتماعي.

أدت عملية التطور المركب واللامتكافئ، هذه ، لـو استخدمنا تعبير تروتسكى، إلى وضع (لا يزال سارياً حتـى يومنا هذا في جوهره) لم يتمكن فيه الجزء الأكبر من سكان

العالم من التقدم اجتماعيا واقتصاديا بـل وألقـى بـه فـي المؤخرة. كيف كان (وبالطبع يكون) الطريق للأمام لجماهير الشعوب في تلك الدول ؟.

أضاف تروتسكى، الشاب ذو الـ ٢٦ عامـا، إضـافة مبدعة لحل هذه المشكلة. كان حلا يضرب بجذوره في كل من واقع التطور اللامتكافئ للرأسمالية على مستوى العـالم، وفى التحليل الماركسي للدلالة الحقيقية للتطور الصـناعي - ألا وهى خلق الأساس المادي لمجتمع متقدم بـلا طبقـات - وفى نفس الوقت - طبقة مستغَلة، البروليتاريا، التي يمكنهـا رفع نفسها لمستوى الطبقة الحاكمة ومن خلال حكمها إلغـاء الطبقات، والصراع الطبقي، وكل أشكال الاغتراب والقهر.

ومن الطبيعي أن تروتسـكى طـور أفكـاره هـذه بخصوص روسيا بادئ ذي بدء. لذا فمن الضروري التعرف على الخلفية الأيديولوجية للخلافات بين الثوريين الروس في نهايات القرن التاسع عشر وبدايات العشرين حتى نفهم البعد الحقيقي للإضافة. كما لا يمكن إغفال وجود حركة عماليـة أممية حقيقية في ذلك الوقت.

"فبعد أن يتم إعادة تنظيم أوروبـا وأمريكـا الشـمالية سيكون هذا بمثابة قوة خرافية ومثل عظيم ستتبعه الدول شبه المتحضرة في نهضتها. وستكون الحاجة الاقتصادية وحـدها كافية لحدوث ذلك. ولكننا لا يمكننا إلا تقديم توقعات ضعيفة حول المراحل الاجتماعية والسياسية التي سيكون علي تلـك الـدول المـرور فيهـا حتـى تصـل أيضـا للتنظـيم الاشتراكي" (١).

هكذا كتب إنجلز لكاوتسكى في ١٨٨٢. إنه لم يكن يفكر في روسيا، فالدول التي ذكرت في الخطـاب كانـت الهنـد والجزائر ومصر والممتلكات الهولندية والأسبانية والبرتغالية ومع ذلك فإن المنهج العام لإنجلز هو مـا سـيكون مـنهج الأممية الثانية (بعد ١٨٨٩) فشوط التطور السياسي سـيعقب شوط التطـور الاقتصـادي. وحيـث تنشـأ وتتطـور أولا الرأسمالية والتي لا تنفصل عنها البروليتاريا، ستنشأ الحركة الثورية الاشتراكية، التي ستحطم الرأسـمالية وتـؤدي فـي النهاية لتصفية البروليتاريا وكل الطبقات (بعد فتـرة مـن ديكتاتورية البروليتاريا) لندخل في مجتمع المستقبل اللاطبقي.

كان علي الماركسيين الروس ، والذين تأسست أولي منظماتهم وهي مجموعة "تحرير العمل" ، عـام ١٨٨٣، أن ينظروا لروسيا داخل هذا الإطار التاريخي. ولم يكـن لـدي بليخانوف ، قائد هذه المجموعة ، أي شك في ذلك، لقد جادل بليخانوف في الثمانينات والتسـعينات بـأن الإمبراطوريـة الروسية كانت مجتمعا قبل رأسمالي بالأساس ولـذا كـان مقدرا لها أن تمر خلال عملية التطور الرأسـمالي قبـل أن يبدأ طرح مسألة الاشتراكية. رفض بليخانوف بشدة الفكـرة التي داعبت ماركس نفسه وهي أن روسيا يمكنهـا ، نتيجـة لتطورات معينة في أوروبا ، تفادي المرحلة الرأسمالية تماما وتحقيق انتقال للاشتراكية علي أساس حركة فلاحيه تقضـي علي الاوتوقراطية وتهدف للحفاظ علـي عناصـر الملكيـة المشاعية التقليدية للأرض (المير) والتي كانـت مـا تـزال موجودة في الثمانينات من القرن الماضي.

كانت آراء بليخانوف والتي تطورت فـي جدالـه مـع مدرسة "الطريق الفلاحى للاشتراكية" (النارودنيين) هي نقطة انطلاق الماركسية الروسية اللاحقة. إن الرأسـمالية كانـت تتطور في روسيا ، وإن المير كان نظام يندثر، وإن الطريق

الروسي الخاص (الفلاحى) للاشتراكية كان وهم رجعـي - كل تلك الأفكار كانت أساسية للجيل التالي من الماركسـيين الروس مثل لينين، وبعد ذلك بسنوات قليلة تروتسكى وكـل رفاقهم. وإن أول ثلاثة مجلدات من الأعمال الكاملة للينـين تحتوي أساسا علي نقد للناروديين وتدليل علـي حتميـة - وتقدمية - الرأسمالية في روسيا. وقـد أسسـت مجموعـة الإيسكرا ، والتي بدأت في ١٩٠٠ لخلق منظمة قومية موحدة من المجموعات والحلقات الاشتراكية الديمقراطية المبعثرة ، أسست نفسها بقوة علي رؤية أن الطبقة العاملـة الصـناعية وهى نتاج التطور الرأسمالي هي قاعدة هذه المنظمة.

وكما طرحت ثلاثة أسئلة في تلك الفترة : أولا، مـا هي العلاقة بين الأدوار السياسية للطبقة العاملة(والتي كانـت ما تزال أقلية صغيرة) والبرجوازية والفلاحـين (الأغلبيـة الساحقة) ، ومن ثم ، ما هو الطابع الطبقي للثورة القادمة في روسيا، وأخيرا، ما هي العلاقة بين الثورة وحركات الطبقـة العاملة في دول الغرب المتقدمة؟.

والإجابات المختلفة علي تلك الأسئلة مثلت واحـداً من موضوعين (الآخر كان حول طبيعة الحـزب الثـوري)

شكلا الفروق بين ما سيصبح فيما بعد اتجاهين متضادين في الاشتراكية الديمقراطية الروسـية. وحتـى نفهـم نظريـة تروتسكى : الثورة الدائمة ، من الضروري أن نفحص سريعا تلك الإجابات كما ظهرت في صورة متطـورة بعـد ثـورة ١٩٠٥.

المنشفية

يمكن تلخيص الرؤية المنشفية بهـذه الطريقـة : إن تطور قوي الإنتاج (أي التخلف الاقتصادي العـام لروسـيا ممزوجا بصناعة حديثة صغيرة ولكن مهمة ونامية) يحـدد ما هو ممكن - ألا وهو ثورة برجوازيـة - مثـل الثـورة البرجوازية في فرنسا ١٧٨٩ -١٧٩٤. لذا يجب أن تستولي البرجوازية علي السلطة - لتؤسس جمهورية برجوازيـة - ديمقراطية تمحي بقايا العلاقات الاجتماعية ما قبل الرأسمالية وتفتح الطريق أمام تطور سريع للقوي الإنتاج (وتطور سريع للبروليتاريا أيضا) علي أساس رأسمالي. وأخيرا سـيطرح النضال من أجل الثورة الاشتراكية علي جدول الأعمال.

ولذا فإن الدور السياسي للطبقة العاملـة هـو دفـع البرجوازية للأمام في مواجهة القيصرية ولكن عليها الحفاظ

على استقلالها السياسي- أي أنـه لا يمكـن للاشـتراكيين الديمقراطيين الدخول في حكومة ثوريـة مـع قـوي غيـر بروليتارية.

أما بالنسبة للفلاحين فلا يمكنهم لعب أي دور سياسي مستقل. يمكنهم أن يلعبوا دورا ثوريا ثانويا في مسـاعدة الثورة البرجوازية المدنية بالأساس ، وبعد انتهاء هذه الثورة سيتعرض الفلاحون لانقسام اقتصادي سريع إلي شريحة من الفلاحين الرأسماليين (ستكون محافظة) وشريحة من أصحاب الملكيات الصغيرة وشريحة من البروليتاريا الزراعية.

ولا يوجد أي علاقة عضوية بين الثورة البرجوازية الروسية والحركة العمالية الأوروبيـة ، رغـم أن الثـورة الروسية (لو حدثت قبل الثورة الاشـتراكية فـي الغـرب) ستقوي الاشتراكية الديمقراطية في الغرب.

في الحقيقة كانت المنشفية اتجاه متنوع، حيث ركـز مناشفه مختلفون علي أجزاء مختلفة من هذه الرؤية العامـة (التي هي أساسا رؤية بليخانوف) ولكنهم قبلوا هذا الإطـار العام.

ولكن ثورة ١٩٠٥ كشفت العيوب الجوهرية في هذه الرؤية : فالبرجوازية رفضت أن تلعب الدور المنوط بهـا. بالطبع لم يتوقع بليخانوف، الدارس المتعمق للثورة الفرنسية الكبرى، أن تقود البرجوازية الروسية صراعا جذريا ضـد القيصرية بدون ضغط عظيم مـن أسـفل. كمـا اسـتولت الدكتاتورية اليعقوبية - وهي الحد الأقصى للثورة الفرنسية - علي السلطة بين ١٧٩٣ -١٧٩٤ تحت الضغط العنيف للسان كليوت، وهم جماهير العامة في بـاريس، وبالمثـل يمكـن للطبقة العاملة في روسيا أن تكون قوة الدفع الرئيسية التـي تضطر الممثلين السياسيين للبرجوازية (أو جزء مـنهم) أن يستولوا علي السلطة. ولكن ثورة ١٩٠٥ ومـا حـدث فـي أعقابها بينت أنه لم يكن هناك أي ميل "روبسـبيرى" داخـل البرجوازية الروسية، ففي مواجهة المـد الثـوري انـدفعت البرجوازية إلي أحضان القيصر.

منذ ١٨٩٨ أعلن البيان التحضيري للمـؤتمر الأول للاشتراكيين الديمقراطيين الروس أن "كلما اتجهنا للشرق في أوروبا كلما أصبحت البرجوازية أضـعف مـن المنظـور

السياسي وأجبن وأوقـح وكلمـا عظمـت المهـام الثقافيـة والسياسية التي تؤول إلي البروليتاريا".(٢)

لم تكن المسألة جغرافية بل تاريخية. لقد جعل تطور الرأسمالية الصناعية والبروليتاريا الحديثة مـن البرجوازيـة طبقة محافظة في كل مكان، حتى فـي الـدول التـي كـان التصنيع فيها جنينياً، وبالفعل، أوضح فشل الثورة الألمانيـة ١٨٤٨ - ١٨٤٩ هذه النقطة قبل ذلك بكثير.

البلشفية

انطلقت الرؤية البلشفية من نفـس المقـدمات التـي انطلق منها المناشفة وهى أن الثورة القادمـة سـتكون، ولا يمكنها إلا أن تكون، ثورة برجوازية مـن ناحيـة طابعهـا الطبقي. رفضت الرؤية البلشفية من البداية أي اعتماد علـي الضغط علي البرجوازية، وطرحت بديلا لذلك:

أن تحويل الوضع الاقتصادي والسياسي في روسـيا ليصبح وضعا برجوازيا وديمقراطيا هو أمر حتمي لا يمكن الفرار منه. وأضاف لينين فـي كتيبـه الشـهير "تكتيكـان للاشتراكية الديمقراطية في الثـورة الديمقراطيـة" (يوليـو ١٩٠٥) :

"لا تستطيع أي قوة علي الأرض منع هذا التحول، ولكن الفعل المركب للقوي الموجودة يمكن أن يسفر عن أحد شيئين، أي يمكن أن يسبب أحد شكلين لهذا التحول. إما : ١) أن تنتهي الأمور بإنتصار حاسم للثورة على القيصرية. ٢) أن لا تكفي هذه القوي لانتصار حاسم، وتنتهي الأمور بعقد صفقة مع العناصر الأقل تماسكا والأكثر تفردا من البرجوازية... لابد أن نكون واعين تماما في عقولنا من هي القوي الاجتماعية الحقيقية المعارضة للقيصرية... والقادرة علي كسب انتصار حاسم ضد القيصرية. لا يمكن أن تكون... البرجوازية الكبيرة مثل تلك القوي فنحن نري أنهم لا يريدون حتى هذا النصر الحاسم. إن وضعهم الطبقي يمنعهم من مواجهة حاسمة مع القيصرية، فهم مكبلين بشكل ثقيل بملكيتهم الخاصة. برأس المال والأرض لدرجة تمنعهم من الدخول في أي صراع حاسم. إنهم يحتاجون القيصرية بشدة ، يحتاجون بيروقراطيتها وجيشها ليستخدموهما ضد البروليتاريا والفلاحين... يحتاجونها لدرجة لا تسمح لهم بأن يريدوا تحطيمها لا، إن القوى الوحيدة القادرة علي إحراز انتصار حاسم علي القيصرية، هي الشعب، أي البروليتاريا

والفلاحين... إن الانتصار الحاسم للثورة علـي القيصـرية يعني إقامة الدكتاتورية الثورية - الديمقراطيـة للبروليتاريـا والفلاحين...

لا يمكنها إلا أن تكون ديكتاتورية لأن تحقيق التغيـرات العاجلة والتي لا يمكن للبروليتاريا و الفلاحين الاستغناء عنها سيفسر عن مقاومة شديدة من ملاك الأراضي والبرجوازيـة الكبيرة والقيصرية... ولكن بالطبع ستكون هذه ديكتاتوريـة ديمقراطية وليست اشتراكية... في أحسن الأحوال، سـتأتي بإعادة توزيع راديكالية للأراضي في صالح الفلاحين، وستقيم ديمقراطية متماسكة وكاملة ويتضمن ذلك تكوين جمهورية ، إزالة كل السمات القهرية للعلاقات الآسيوية ليس فقـط فـي الريف، بل في المصانع أيضا وإرساء أساس تحسين عميـق في ظروف العمال ورفع مستوي معيشتهم وأخيـرا ولـيس بآخر ستحمل الشعلة الثورية لأوروبا. مثل هذا الانتصار لن يحول حتى الآن وبأي وسيلة من الوسائل ثورتنا من ثـورة برجوازية إلى ثورة اشتراكية". (٣)

طرح لينين أن خط المناشفة لم يكن مجرد خطأ بـل تعبير عن عدم رغبة في القيام بالثورة ودفعها إلي الأمام. إن

تصميم المناشفة علي التعلق بالليبراليين البرجـوازيين لابـد وأن يؤدي لشلل. أما الفلاحين، علي الناحية الأخرى، فكـان لديهم مصلحة حقيقية في تحطيم القيصرية وبقايا الإقطاع في الريف. لذا، فإن الديكتاتورية الديمقراطية - وهـى حكومـة ثورية مؤقتة تضم ممثلين للفلاحين إلي جانب الاشـتراكيين الديمقراطيين - كانت النظام "اليعقـوبى"، المناسـب الـذي سيحطم الثورة المضادة ويقيم جمهورية ديمقراطية (بمساواة كاملة وتقرير المصير لكل القوميات)، وسيصادر الأراضـي الزراعية الكبرى وبجعل يوم العمل ثماني ساعات" (٤).

حل تروتسكى

رفض تروتسكى الاعتماد علي البرجوازية الثورية بشدة مثلما فعل لينين وسخر تروتسكى من التصور المنشفى فهو:

"رؤية لا تاريخية خلقتها استنتاجات وتشبيهات صحفية ... فلأن الثورة في فرنسا قد نفذها إلى النهاية الديمقراطيون الثوريون - اليعاقبة - فلذا تستطيع الثورة الروسـية تسـليم السلطة فقط إلى أيدي البرجوازية الديمقراطية الثورية. ومن خلال خلق هذه المعادلات الرياضية الجامدة للثورة يحـاول المناشفة إدخال قيم حسابية لا وجود لها".(٥)

ولكن من كل النواحي الأخـرى اختلفـت نظريـة تروتسكى :الثورة الدائمة ، التي يعـود فضـل كبيـر فـي تطويرها للماركسي الألماني - الروسـي بـارفوس، عـن الموقف البلشفي.

أولا، وأهم شئ، فلقد استبعدت النظرية احتمال إمكانيـة أن يلعب الفلاحون أي دور سياسي مسـتقل: "الفلاحـون لا يمكنهم أن يلعبوا أي دور ثوري قيادي، فالتاريخ لا يمكن أن يحمل "الموزيك" مهمة تحرير أمة برجوازية مـن قيودهـا. بسبب تبعثرهم، وتخلفهم السياسـي، وبالـذات تناقضـاتهم الداخلية العميقة التي لا يمكن أن تحل داخل إطـار النظـام الرأسمالي، يمكن للفلاحين أن يكيلوا للنظـام القـديم بعـض الضربات القوية من الخاف بواسطة انتفاضات عفويـة فـي الريف، من ناحية، وبخلق قلاقل داخل الجيش مـن ناحيـة أخرى".(٦)

تطابق هذا الموقف مع خط المناشفة وتماشـى مـع تحليل ماركس للفلاحين الفرنسيين كطبقة. فلأن المدينة تقود في المجتمع الحديث لا يمكن إلا لطبقة مدنية أن تلعـب دورا قياديا ولأن البرجوازية ليسـت ثوريـة (ولأن البرجوازيـة

الصغيرة المدنية غير قادرة في أي حال على لعب نفس دور السان كيلوت) فإنه :

"يظل الاستنتاج بأن البروليتاريا، فقط، في صراعها الطبقي، واضعة جماهير الفلاحين تحت قيادتها الثورية، يمكنها إكمال الثورة إلى النهاية".(٧)

لابد أن يؤدى هذا إلى حكومة عمالية، و"ديكتاتورية" لينين الديمقراطية هي ببساطة وهم:

"إن هناك تناقض بين السيطرة السياسية للبروليتاريا، واستعبادها الاقتصادي فبغض النظر عن الراية السياسية التي وصلت تحتها البروليتاريا للسلطة لابد أن تسلك طريق السياسة الاشتراكية. سيكون من الطوباوية المطلقة تصور أن البروليتاريا يمكنها، بعد أن وصلت للسلطة السياسية من خلال الميكانزم الداخلي للثورة البرجوازية، أن تحدد مهمتها بخلق ظروف جمهورية ديمقراطية للسيطرة الاجتماعية البرجوازية ، حتى لو كانت تريد ذلك".(٨)

ولكن كل هذا يؤدى فورا إلى تناقض. لقد كانت نقطة الانطلاق المشتركة لكل الماركسيين الروس هي أن روسيا افتقدت الأساس المادي الإنساني للاشتراكية- صناعة

متطورة جدا وبروليتاريا حديثة تمثل نسبة كبيرة من الشعب واكتسبت التنظيم والوعي كطبقة "من أجل ذاتها"، كما أعتقـد ماركس.

كان لينين قد رفض بشدة في "تكتيكـان للاشـتراكية الديمقراطية":

"الفكرة العبثية وشبه الفوضوية التي تريد تطبيق برنامج الحد الأقصى والاستيلاء على السـلطة مـن أجـل الثـورة الاشتراكية. إن درجة التطور الاقتصـادي (وهـذا شـرط موضوعي) وتطور الـوعي الطبقـي وتنظـيم الجمـاهير العريضة للبروليتاريا (وهذا شرط ذاتي مرتبط أساسا بالشرط الموضوعي) يجعلان من المستحيل أن تتحرر الطبقة العاملة فورا وبالكامل. يمكن لأكثر الناس جهالـة فقـط أن يغلقـوا أعينهم للطابع البرجوازي للثورة الديمقراطية التـي تجـرى الآن (أي في عام ١٩٠٥)".(٩)

من وجهة نظر ماركسية، لا يمكن التعرض بالنقـد لفكرة لينين، طالما أننا ننظر إلى روسيا فقـط. ولعلـه مـن الضروري أن نؤكد على هذه النقطة الأولية إذا أخـذنا فـي الاعتبار التطورات اللاحقة فالاشتراكية بالنسـبة لمـاركس

ولكل من اعتبروا أنفسهم من أتباعه في ذلك الوقت، كانـت تمثل التحرر الذاتي للطبقة العاملة. لذا فإنها تفترض وجـود صناعة حديثة واسعة النطاق وبروليتاريا واعية طبقيا قادرة على التحرر الذاتي.

على الرغم من ذلك كان تروتسكى مقتنعا بأن الطبقة العاملة فقط هي التي يمكنها لعب الدور القيادي في الثـورة الروسية وأنه، لو فعلت ذلك، لأمكنها الاستيلاء على السلطة ولكن ماذا بعد؟:

"ستواجه السـلطات الثوريـة المشـاكل الموضـوعية للاشتراكية، ولكن التخلف الاقتصادي لروسيا يمنع حل هـذه المشاكل. لا يوجد مخرج من هذا التناقض داخل إطار ثورة قومية. ستواجه الحكومة العمالية منذ البداية مهمـة توحيـد قواها مع قوى البروليتاريا الاشتراكية في غرب أوروبا. فقط بهذه الطريقة ستصبح سيطرتها الثوريـة المؤقتـة مـدخلا للديكتاتورية الاشتراكية، لذا، ستصبح الثورة الدائمة، بالنسبة للبروليتاريا الروسية مسألة حفاظ على بقاء الطبقة".(١٠)

وهنا تقلب الفكرة الأصلية لإنجاز رأسا على عقب. فالتطور اللامتكافئ للرأسمالية يؤدى إلى تطور مركب تصبح فيه روسيا المتخلفة، مؤقتا، طليعة الثورة الاشتراكية العالمية.

ظلت نظرية الثورة الدائمة محورية في ماركسية تروتسكى إلى نهاية حياته، في ناحية واحدة فقط اختلفت أفكار تروتسكى بعد ١٩١٧ عن الرؤية المذكورة. فرؤية ما قبل ١٩١٧ اعتمدت على الفعل العفوي للطبقة العاملة. كما سنرى، كان تروتسكى في تلك الفترة خصما قويا للبلشفية المركزية، ورفض عمليا الدور القيادي للحزب. في ١٩١٧ غير تروتسكى موقفه من هذه المسألة. وبنى تروتسكى تطبيقاته اللاحقة لنظرية الثورة الدائمة حول دور الحزب العمالي الثوري.

النتيجة

إن كل النظريات، على الأقل النظريات التي تدعى العلمية، تجد اختبارها الحاسم في الممارسة. فالدليل على جودة الطعام، كما يقول المثل الشعبي، هو الأكل، ولكن قد يتأخر الاختبار العملي الحاسم، يتأخر حتى بعد موت المنظر وأنصاره ومعارضيه.

على خلاف العلوم الطبيعية - حيـث يمكـن دائمـا إقامة تجارب (حتى لو لم تكن الوسائل اللازمة متوفرة فـي الحال) فإن الماركسية كعلم التطور الاجتمـاعي (وبـالطبع، منافسيها البرجوازيين، أشباه العلوم، الاقتصاد وعلم الاجتماع وهلم جرا) لا يمكن اختبارها بناء على مدة زمنية اعتباطيـة بل في أثناء التطور التاريخي، وحتى هنا يكون الاختبار وقتيا فقط.

السبب بسيط جداً، رغم أن النتـائج معقـدة للغايـة. "فالبشر يصنعون تاريخهم" كما يقول ماركس "رغم أنهـم لا يفعلون ذلك في ظروف من اختيارهم". الأفعـال الإراديـة ، لملايين وعشرات الملايين من البشـر، المشـكلين تاريخيـا والضاغطين ضد ظروف فرضها عليهم التطور التـاريخي السابق (والتي لا يكونوا واعين بها عموماً) تنتج آثارا أكثر تعقيدا من أن يتوقعها أكثر المنظرين بعدا في النظر إن مقولة نابليون "فلنشتبك ثم نرى" ، التي تعبر عن رأى نابليون فـي علم الحرب، لابد أن يأخذها الثوريون في الاعتبار، الثوريون المشتركون في محاولة واعية لتشكيل مجرى الأحداث.

لقد كان الثوريون الروس في بداية القرن العشـرين أكثر حظا من أغلب الثوريين. فقد جاء الاختبار الحاسم لهم سريعا. فشهد عام ١٩١٧ اشتراك المناشفة، المعـادين مـن حيث المبدأ للاشتراك في حكومة غيـر بروليتاريـة، فـي حكومة من أعداء الاشتراكية لتنفيذ حرب إمبريالية ومحاولة وقف الثورة.

لقد أثبت ذلك في الممارسة توقع لينـين فـي ١٩٠٥ بأن المناشفة هم "جيروند"، الثورة الروسية. لقد شـهد ١٩١٧ البلاشفة، أنصار الدكتاتورية الديمقراطية وحكومـة تحـالف ثورية مؤقتة، بعد فترة من التأييد النقدي لما أسماه لينين عند عودته إلى روسيا بـ - حكومة رأسماليين، يتحولون بحسـم نحو استيلاء الطبقة العاملة على السلطة تحت تـأثير كتيـب لينين **أطروحات إبريل** وضغط العمال الثوريين داخل صفوف البلاشفة.

وشهد البرهان الرائع على صحة رؤيـة تروتسـكى عندما تبنى لينين عمليا وإن لم يكن من خلال الكلمات منظور الثورة الدائمة وتخلى بدون طقوس عن منظور الدكتاتوريـة الديمقراطية.

أيضا شُهد تروتسكى معزولا وعاجزا عن التـأثير على مجرى الأحداث في الأزمة الثورية الكبرى في ١٩١٧ إلى أن قاد جماعته الصغيرة والمثقفة إلـى داخـل الحـزب البلشفي الجماهيري. لذا أثبت في ١٩١٧ أن نضـال لينـين الطويل والمرير من أجل حزب عمالي خالي مـن أي أثـر أيديولوجي للماركسيين البرجوازيين الصغار (طالمـا أمكـن تحقيق هذا الاستقلال بوسائل تنظيمية) كان نضـالا عظيمـا (هذا النضال الذي أطلق عليه تروتسكى لأكثر من عقد "عمل حلقي")".(١١)

كان تروتسكى صـائباً حـول المسـألة الإسـتراتيجية المركزية في الثورة الروسية ولكنه كان، كما طـرح تـونى كليف، "جنرالا عظيما بدون جيش يذكر"(١٢). وقـد كتـب تروتسكى فيما بعد أن اختلافه مع لينين في ١٩٠٣ - ١٩٠٤ حول الحاجة للحزب كان أكبر "خطأ ارتكبه في حياته".

أوصلت ثورة أكتوبر الطبقة العاملة الروسية إلـي السلطة وفعلت ذلك في إطار مد ثوري صاعد ضد الأنظمـة القديمة في وسط، وبدرجة أقل، غرب أوروبا. اعتمدت رؤية تروتسكى، ورؤية لينين بعد إبريل ١٩١٧، بشكل جـوهري

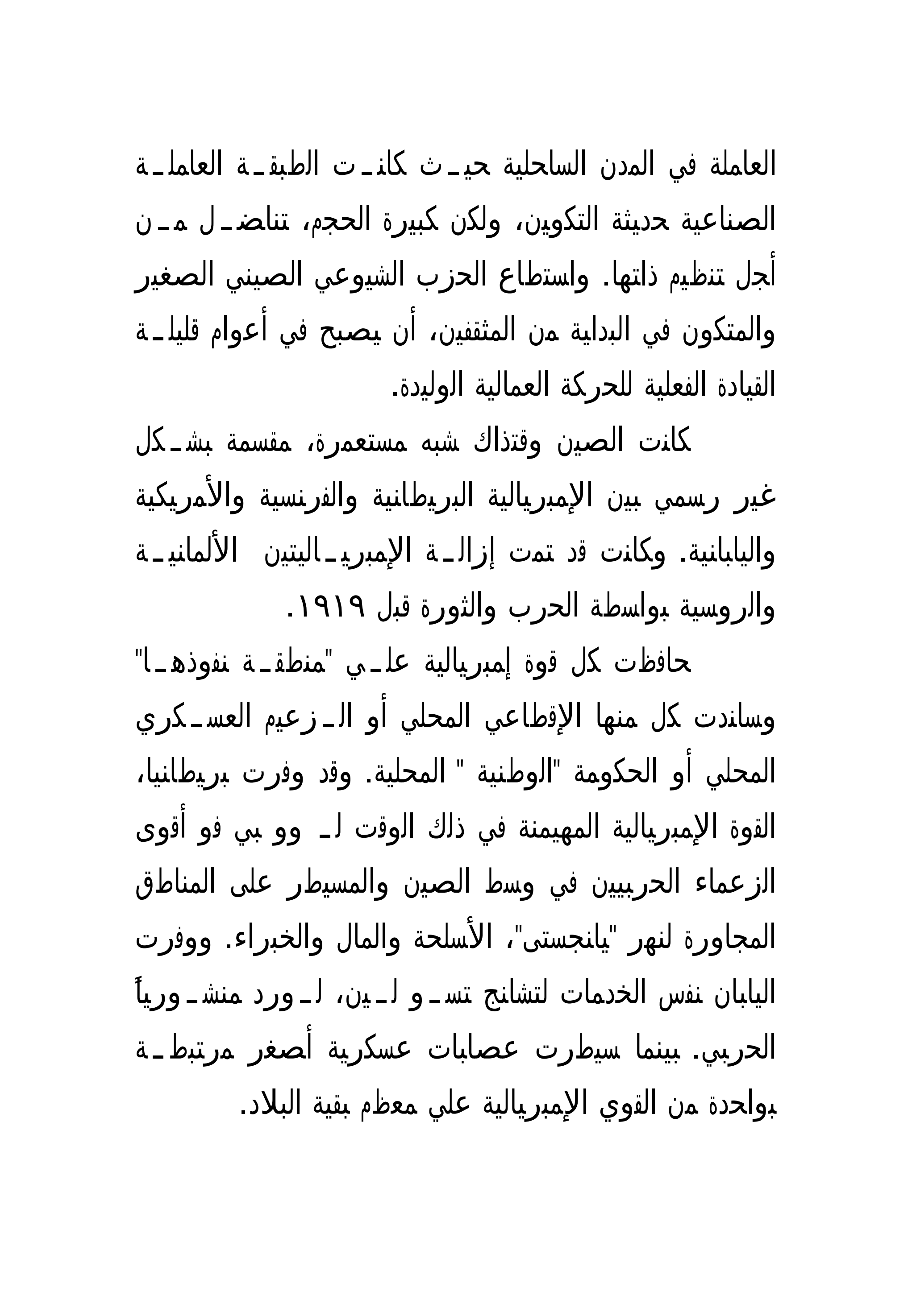
على نجاح الثورة البروليتارية في "بلد أو بلدين على الأقـل" (كما كان يطرح لينين بحذره المعهود) من البلدان الرأسمالية المتقدمة.

ولكن هذه الموجة الثورية في ألمانيا والنمسـا والمجـر وإيطاليا وأماكن أخرى قد قضى عليها قبل أن تتحقق الثورة البروليتارية أو قبل أن تثبت دعائمها حيث تحققـت مؤقتـاً، وذلك بسبب سيطرة الأحزاب الاشتراكية الديمقراطية علـى الحركة (تلك الأحزاب التي أثبتت في الممارسة منذ أغسطس ١٩١٤ أنها أصبحت محافظة وقومية) وبسـبب تأرجحـات وسلبية قادة الانشقاقات "الوسطية" من تلـك الأحـزاب بـين ١٩١٦-١٩٢١.

سنتعرض لتحليل تروتسكى لنتائج تلك الوقائع فيمـا بعد. ولكن أولا سيكون من المفيد أن ننظر للثورة الصـينية الثانية (١٩٢٥ -١٩٢٧) ونتائجهـا، بنـاء علـى نظريـة تروتسكى.

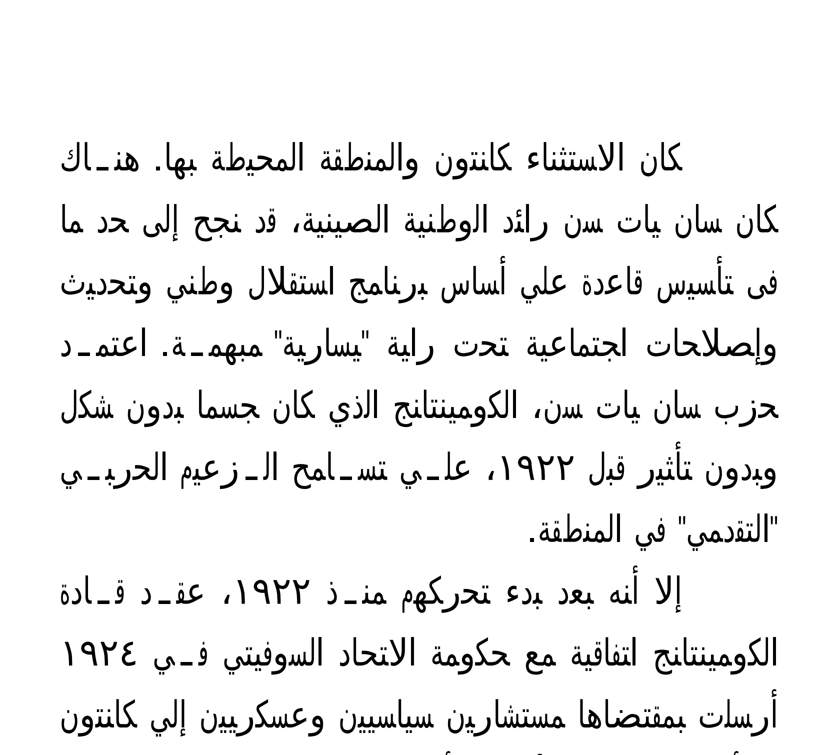
الثورة الصينية ١٩٢٥ - ١٩٢٧

تأسس الحزب الشيوعي الصيني في يوليو ١٩٢١ في مناخ تسوده مشاعر معادية للإمبريالية، ونضال قوي للطبقة


العاملة في المدن الساحلية حيـث كانـت الطبقـة العاملـة الصناعية حديثة التكوين، ولكن كبيرة الحجم، تناضـل مـن أجل تنظيم ذاتها. واستطاع الحزب الشيوعي الصيني الصغير والمتكون في البداية من المثقفين، أن يصبح في أعوام قليلـة القيادة الفعلية للحركة العمالية الوليدة.

كانت الصين وقتذاك شبه مستعمرة، مقسمة بشـكل غير رسمي بين الإمبريالية البريطانية والفرنسية والأمريكية واليابانية. وكانت قد تمت إزالـة الإمبريـاليتين الألمانيـة والروسية بواسطة الحرب والثورة قبل ١٩١٩.

حافظت كل قوة إمبريالية علـي "منطقـة نفوذهـا" وساندت كل منها الإقطاعي المحلي أو الـزعيم العسـكري المحلي أو الحكومة "الوطنية " المحلية. وقد وفرت بريطانيا، القوة الإمبريالية المهيمنة في ذلك الوقت لـ وو بي فو أقوى الزعماء الحربيين في وسط الصين والمسيطر على المناطق المجاورة لنهر "يانجستى"، الأسلحة والمال والخبراء. ووفرت اليابان نفس الخدمات لتشانج تسـو لـين، لـورد منشـورياً الحربي. بينما سيطرت عصابات عسكرية أصغر مرتبطـة بواحدة من القوي الإمبريالية علي معظم بقية البلاد.



كان الاستثناء كانتون والمنطقة المحيطة بها. هناك كان سان يات سن رائد الوطنية الصينية، قد نجح إلى حد ما فى تأسيس قاعدة علي أساس برنامج استقلال وطني وتحديث وإصلاحات اجتماعية تحت راية "يسارية" مبهمة. اعتمد حزب سان يات سن، الكومينتانج الذي كان جسما بدون شكل وبدون تأثير قبل ١٩٢٢، علي تسامح الزعيم الحربي "التقدمي" في المنطقة.

إلا أنه بعد بدء تحركهم منذ ١٩٢٢، عقد قادة الكومينتانج اتفاقية مع حكومة الاتحاد السوفيتي في ١٩٢٤ أرسلت بمقتضاها مستشارين سياسيين وعسكريين إلي كانتون وبدأت في إرسال الأسلحة. أصبح الكومينتانج حزبا مركزيا له جيش قوي نسبياً . أكثر من ذلك بدأ في إرسال أعضاء الحزب الشيوعي الصيني من أواخر ١٩٢٢ إلي داخل الكومينتانج بصفتهم "الفردية" بل كان ثلاثة من أعضاء الحزب الشيوعي أعضاء في اللجنة التنفيذية للكومنتانج. كانت هذه السياسة والتي واجهت مقاومة داخل الحزب الشيوعي الصيني، قد فرضت بواسطة اللجنة التنفيذية للأممية الشيوعية. كان الحزب الشيوعي الصيني مرتبطاً

فعلياً بالكومنتانج. وبعد ذلك وفي بداية صيف عـام ١٩٢٥ انفجرت حركة إضراب جماهيري -أسبابها اقتصادية جزئيا ولكن سرعان ما تسيست نتيجة للقمع التي تعرضت له مـن القوات الأجنبية والبوليس - في شنغهاى وانتشرت إلي المدن الصينية الكبرى في وسط وجنوب الصين متضمنة كـانتون وهونج كونج. استمرت المسيرات الجماهيرية الضخمة فـي المدن بين مد وجزر حتى بداية ١٩٢٧. في أوقات مختلفـة، وجدت حالة من ازدواجية سلطة، مثلث فيها لجان الإضراب التي قادها الحزب الشيوعي الصـيني وشـكل مـا سـمى بالحكومة الثانية أو رقم (٢).

وفي نفس تلك الفترة انفجرت انتفاضات الفلاحين في عدة مقاطعات مهمة. واهتز نظام الزعامات الحربية تماما . أراد الكومنتانج أن يركب الموجة بمساندة الحزب الشـيوعي الصيني ثم يستولى علي السلطة على المستوى القومى بدون تغيير اجتماعي. في بداية ١٩٢٦ سمح للكومنتانج بالانضمام للأممية الشيوعية كحزب متعاطف !!.

كان قد تم استبعاد تروتسكى من مجال التأثير علـي السياسة منذ ١٩٢٥ رغم أنه بقـي عضـوا فـي المكتـب

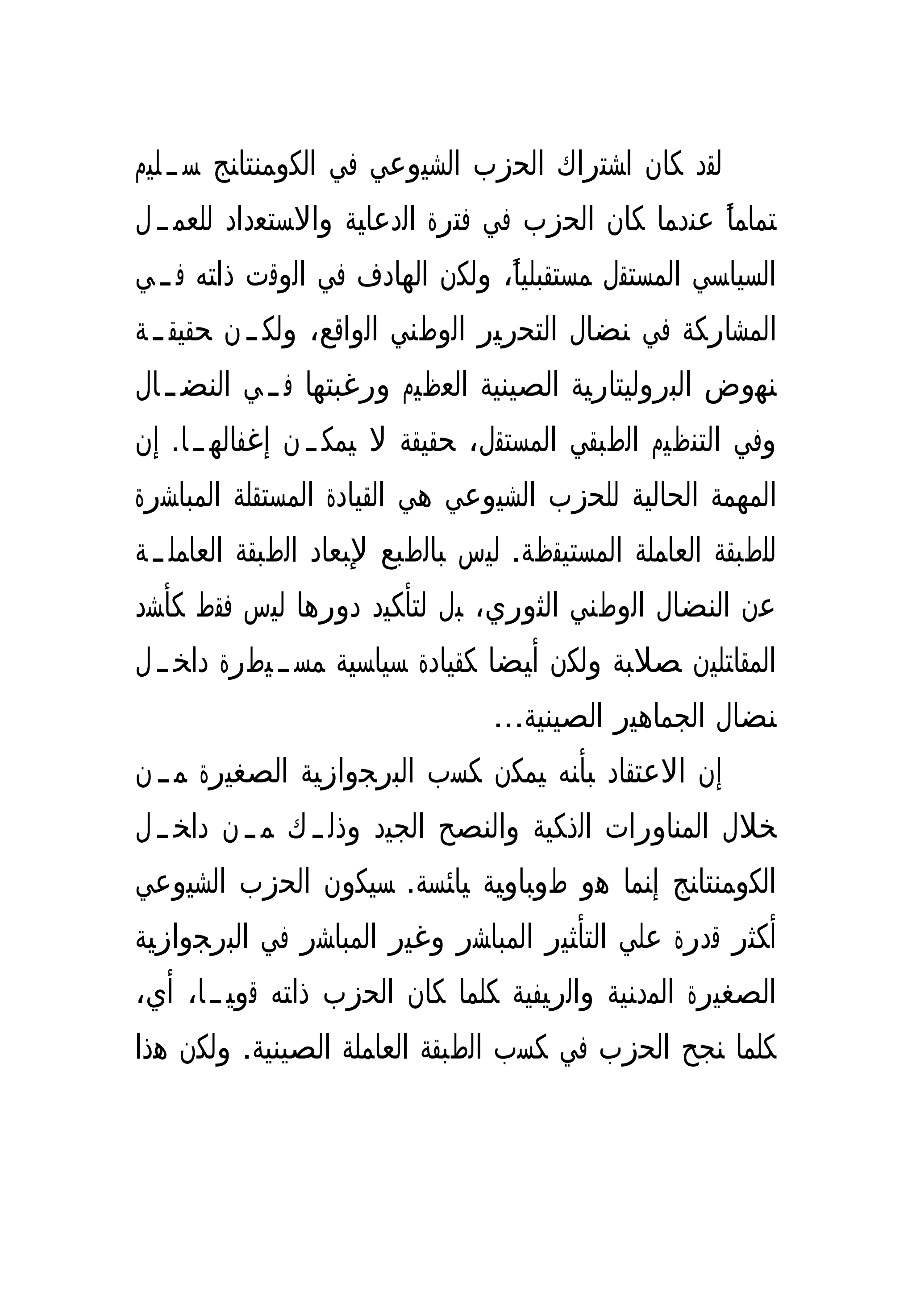
السياسي للحزب الشيوعي الروسي. وكما ذكر دويتشر، فقـد طلب تروتسكى في إبريل ١٩٢٦ انسحاب الحزب الشيوعي الصيني من الكومنتانج (١٣)

وتعود أول وثيقة نقدية مهمـة كتبهـا حـول هـذا الموضوع إلي سبتمبر ١٩٢٦:

"لقد دخل النضال الثوري في الصين منذ ١٩٢٥ مرحلة جديدة تتصف أساسا بالتـدخل النشـيط للقاعـدة الواسـعة للبروليتاريا. وفي نفس الوقت، تتجه البرجوازيـة التجاريـة والعناصر المثقفة المرتبطة بها إلي اليمين متخذين مواقـف عدائية ضد الإضرابات والشيوعيين والاتحاد السوفيتي.

من الواضح تماما في ضوء هذه الحقائق الجوهرية أنه لابد من طرح مسألة إعادة النظر في العلاقة بـين الحـزب الشيوعي والكومنتانج...

إن اتجاه جماهير العمال الصينيين لليسار هـو حقيقـة أكيدة مثل اتجاه البرجوازية الصـينية لليمـين. فحيـث أن الكومنتانج تأسس علي التوحـد السياسـي والتنظيمـي مـع البرجوازية، لابد أن ينقسـم الآن تحـت ضـغط الصـراع الطبقي...



لقد كان اشتراك الحزب الشيوعي في الكومنتانج سليم تماماً عندما كان الحزب في فترة الدعاية والاستعداد للعمل السياسي المستقل مستقبلياً، ولكن الهادف في الوقت ذاته في المشاركة في نضال التحرير الوطني الواقع، ولكن حقيقة نهوض البروليتارية الصينية العظيم ورغبتها في النضال وفي التنظيم الطبقي المستقل، حقيقة لا يمكن إغفالها. إن المهمة الحالية للحزب الشيوعي هي القيادة المستقلة المباشرة للطبقة العاملة المستيقظة. ليس بالطبع لإبعاد الطبقة العاملة عن النضال الوطني الثوري، بل لتأكيد دورها ليس فقط كأشد المقاتلين صلابة ولكن أيضا كقيادة سياسية مسيطرة داخل نضال الجماهير الصينية...

إن الاعتقاد بأنه يمكن كسب البرجوازية الصغيرة من خلال المناورات الذكية والنصح الجيد وذلك من داخل الكومنتانج إنما هو طوباوية يائسة. سيكون الحزب الشيوعي أكثر قدرة علي التأثير المباشر وغير المباشر في البرجوازية الصغيرة المدنية والريفية كلما كان الحزب ذاته قويا، أي، كلما نجح الحزب في كسب الطبقة العاملة الصينية. ولكن هذا

ممكن فقط علي أسـاس حـزب طبقـي وسياسـة طبقيـة مستقلة".(١٤)

كان هذا أمر مرفوضا تماماً من ستالين وزملائـه. كانت سياستهم هي التعلـق بالكومنتـانج وإرغـام الحـزب الشيوعي الصيني علي إخضاع ذاته للكومنتانج مهمـا كـان الأمر، بهذه الطريقة كانوا يأملون أن تكون هناك استمرارية حليف للاتحاد السوفيتي يعتمد عليه في جنوب الصين، ومـن المحتمل أن يستولي علي السلطة في كل الصين فيما بعد.

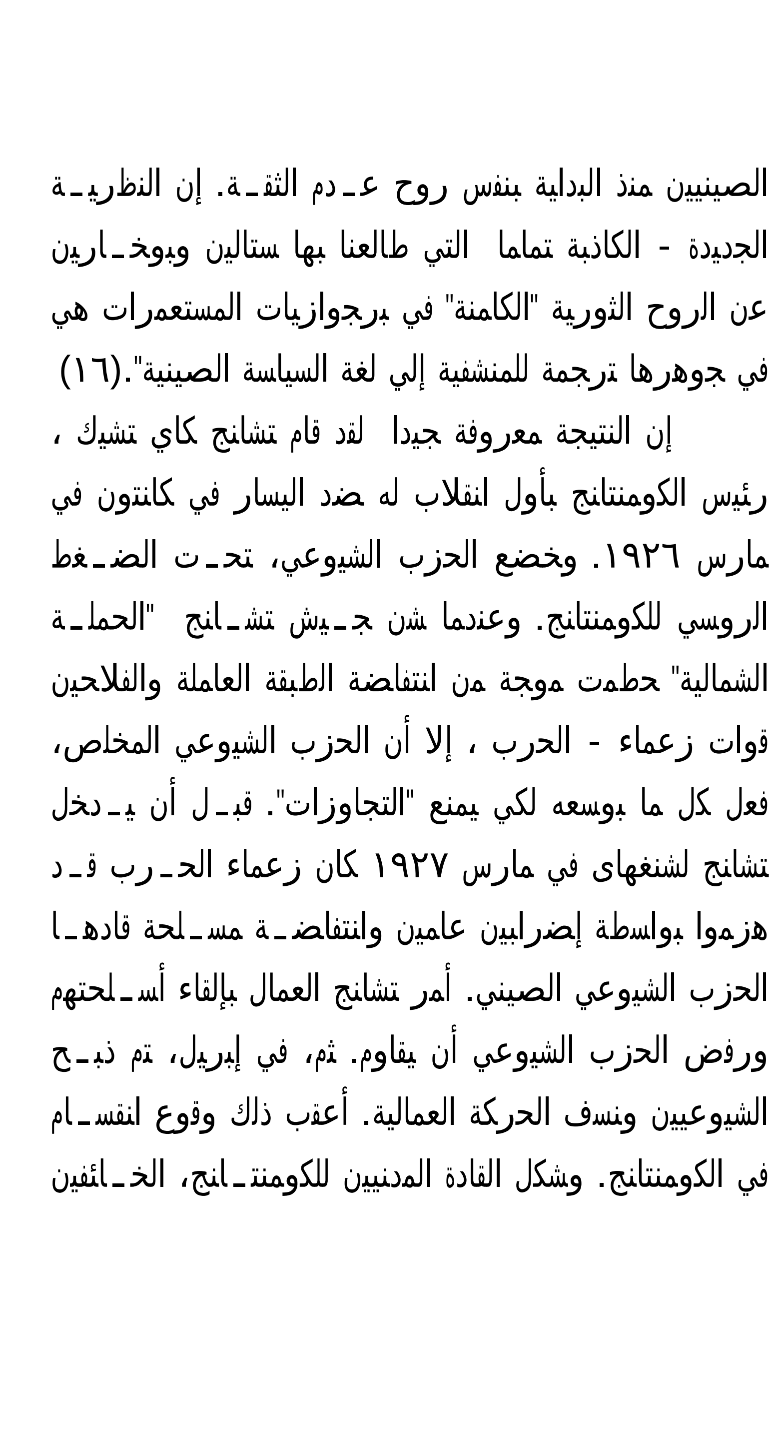
تم تبرير هـذه السياسـة نظريـاً بإحيـاء أطروحـة "الديكتاتورية الديمقراطية". الثـورة الصـينية هـي ثـورة برجوازية وبالتالي، هكذا جادل ستالين وزملاؤه، يجـب أن يكون الهدف هو ديكتاتورية ديمقراطية للعمـال والفلاحـين. ومن أجل الحفاظ علي كتلة العمال والفلاحين يجب أن تقيـد الحركة نفسها بالمطالـب الديمقراطيـة، لـم تكـن الثـورة الاشتراكية في جدول الأعمال - أما الصعوبة الكامنـة فـي الحقيقة الواضحة لعدم كون الكومينتانج حزب فلاحين فقد تم التعامل معها بالقول أن الكومينتانج كـان حزبـا متعـدد -

الطبقية، كتلة من أربعة طبقات (البرجوازيـة، البرجوازيـة الصغيرة المدنية، العمال والفلاحين).

"ماذا تعني كتلة من أربع طبقات؟ هل واجهتم مثل هـذا التعبير من قبـل فـي الأدبيـات الماركسـية ؟؟ إذا قـادت البرجوازية جماهير الشعب المضطهدة وذلك تحـت الرايـة البرجوازية وتستولي علي سلطة الدولة من خلال قيادتها إذن فلا يمكن أن يعتبر ذلك كتلة بل الاستغلال السياسي للجماهير المضطهدة بواسطة البرجوازية".(١٥)

النقطة الحقيقيـة هـي أن البرجوازيـة ستستسـلم للإمبرياليين وبالتالي حتميـا سـيلعب الكومينتـانج دوراً مضاداً للثورة.

"إن البرجوازية الصينية واقعية وملمة عن قرب بطبيعة الإمبريالية بالقدر الكافي لكي تفهم أن نضالا جـادا حقيقيـا ضد الأخيرة يتطلب هبات من الجمـاهير الثوريـة سـتكون أساسا خطرا علي البرجوازية ذاتها... وإذا كنا علمنا عمـال روسيا منذ البداية عدم التصديق في استعداد الليبرالية وقدرة البرجوازية الصغيرة الديمقراطية علـي سـحق القيصـرية وتحطيم الإقطاع فيجب علينا بنفس الهمة أن نحقـن العمـال



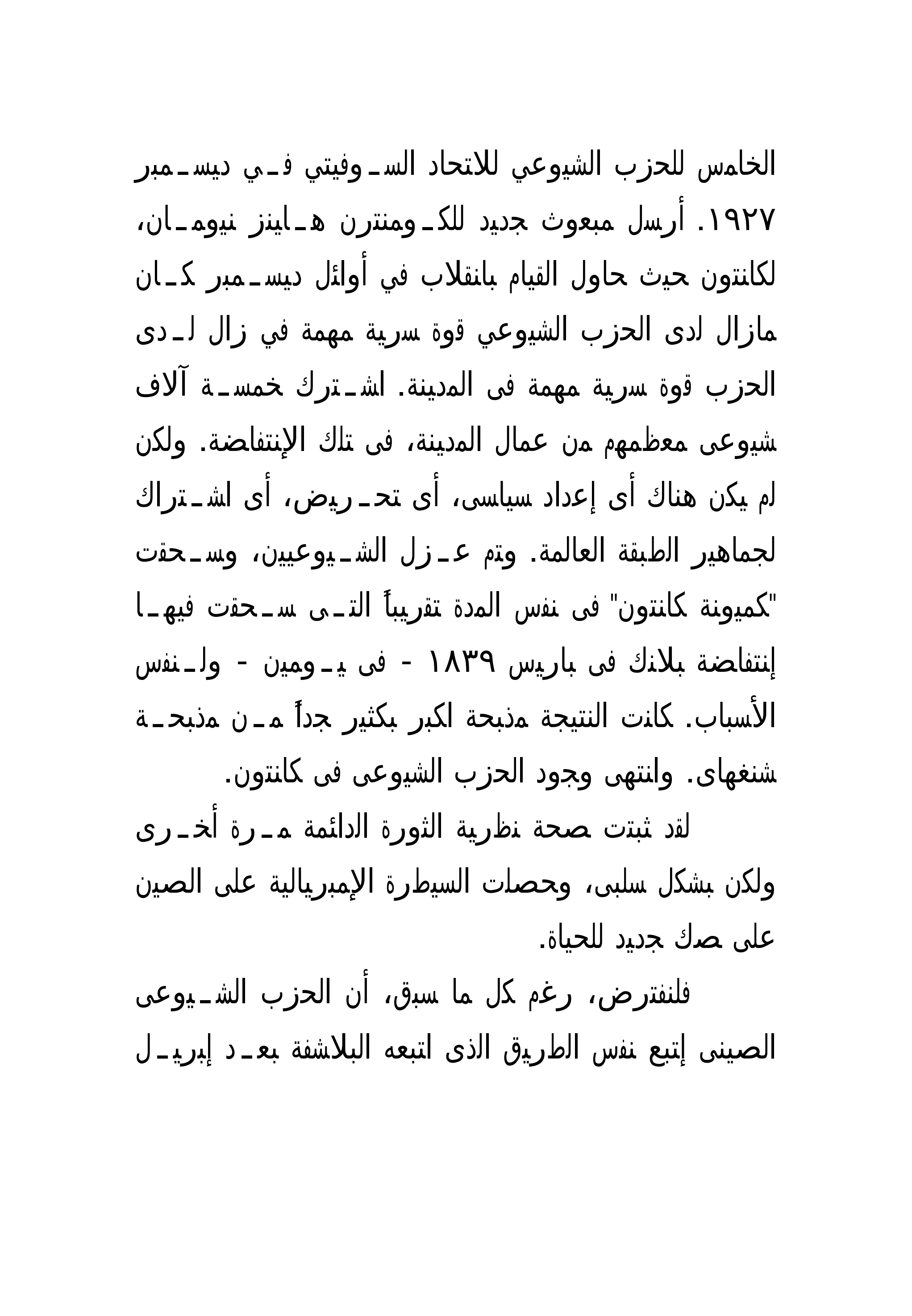
الصينيين منذ البداية بنفس روح عدم الثقة. إن النظرية الجديدة - الكاذبة تماما التي طالعنا بها ستالين وبوخارين عن الروح الثورية "الكامنة" في برجوازيات المستعمرات هي في جوهرها ترجمة للمنشفية إلي لغة السياسة الصينية".(١٦)

إن النتيجة معروفة جيدا لقد قام تشانج كاي تشيك ، رئيس الكومنتانج بأول انقلاب له ضد اليسار في كانتون في مارس ١٩٢٦. وخضع الحزب الشيوعي، تحت الضغط الروسي للكومنتانج. وعندما شن جيش تشانج "الحملة الشمالية" حطمت موجة من انتفاضة الطبقة العاملة والفلاحين قوات زعماء - الحرب ، إلا أن الحزب الشيوعي المخلص، فعل كل ما بوسعه لكي يمنع "التجاوزات". قبل أن يدخل تشانج لشنغهاى في مارس ١٩٢٧ كان زعماء الحرب قد هزموا بواسطة إضرابين عامين وانتفاضة مسلحة قادها الحزب الشيوعي الصيني. أمر تشانج العمال بإلقاء أسلحتهم ورفض الحزب الشيوعي أن يقاوم. ثم، في إبريل، تم ذبح الشيوعيين ونسف الحركة العمالية. أعقب ذلك وقوع انقسام في الكومنتانج. وشكل القادة المدنيين للكومنتانج، الخائفين

(عن حق) من اعتزام تشانج كاي تشيك بأن يصبح ديكتاتورا عسكريا علي الصين، حكومتهم في ووهان (هانكو).

وأصبح الحزب الشيوعي الصيني، مطالب الآن مـن الكومنترن أن يساند نظام الكومنتـانج "اليسـاري"، مقـدما وزراء للعمل والزراعة. واستخدم زعيم يسـار الكومنتـانج وانج تشينج واي الشيوعيين لخدمة أغراضه وبعد أشهر قليلة قام بانقلاب. بعد ذلك رأس الحكومة العميلة في الجزء مـن الصين الذي كانت تحتله اليابان. وأضطر الحزب الشيوعي إلي اللجوء للعمل السري وسرعان ما فقد قاعدته الجماهيرية في المدن ، ففي كل مواجهة هامة استخدم هذا الحزب نفوذه لإقناع العمال بعدم مقاومة الكومنتانج.

بعد ذلك، ولأن الصراع الداخلي في الحـزب فـي روسيا كان قد وصل لمرحلة حرجة قامت مجموعة ستالين - بوخارين الحاكمة في الحزب الشيوعي للاتحـاد السـوفيتي بتحول ١٨٠ درجة. فمن التنازلات المتكررة للكومنتانج أجبر الحزب الشيوعي الصيني للقيام بعملية انتحارية. كان ستالين وبوخارين يحتاجان لانتصار في الصين لمواجهة انتقـادات المعارضة (التي كانا يخططـان لطردهـا). فـي المـؤتمر


الخامس للحزب الشيوعي للاتحاد السـوفيتي فـي ديسـمبر ١٩٢٧. أرسل مبعوث جديد للكـومنترن هـاينز نيومـان، لكانتون حيث حاول القيام بانقلاب في أوائل ديسـمبر كـان مازال لدى الحزب الشيوعي قوة سرية مهمة في زال لـدى الحزب قوة سرية مهمة فى المدينة. اشـترك خمسـة آلاف شيوعى معظمهم من عمال المدينة، فى تلك الإنتفاضة. ولكن لم يكن هناك أى إعداد سياسى، أى تحـريض، أى اشـتراك لجماهير الطبقة العالمة. وتم عـزل الشـيوعيين، وسـحقت "كميونة كانتون" فى نفس المدة تقريباً التـى سـحقت فيهـا إنتفاضة بلانك فى باريس ١٨٣٩ - فى يـومين - ولـنفس الأسباب. كانت النتيجة مذبحة اكبر بكثير جداً مـن مذبحـة شنغهاى. وانتهى وجود الحزب الشيوعى فى كانتون.

لقد ثبتت صحة نظرية الثورة الدائمة مـرة أخـرى ولكن بشكل سلبى، وحصلت السيطرة الإمبريالية على الصين على صك جديد للحياة.

فلنفترض، رغم كل ما سبق، أن الحزب الشـيوعى الصينى إتبع نفس الطريق الذى اتبعه البلاشفة بعـد إبريـل

١٩١٧. هل كانت الديكتاتورية ممكنة فى بلد متخلف مثل الصين فى العشرينات من هذا القرن ؟.

كان تروتسكى متفتحاً فى هذه المسألة:

"إن مسألة الطريق غير الرأسمالى، للتطور فى الصين قد طرحها لينين بشكل مشروط، لأن الأمر كله كان بالنسبة له - كما هو بالنسبة لنا - بديهياً أنه لو تركت الثورة الصينية لتعتمد على قوتها الذاتية، أى بدون المساعدة المباشرة للبروليتاريا المنتصرة فى الاتحاد السوفيتى وللطبقة العالمة فى كل البلاد، لانتهت فقط لأوسع احتمالات التطور الرأسمالى، وبظروف أفضل للحركة العمالية .. ولكن، أولاً وقبل كل شئ، لم تثبت حتمية الطريق الرأسمالى بأى شكل من الأشكال، ثانياً، يمكن حل المهام البرجوازية بطرق مختلفة".(١٧)

سيكون من الضرورى العودة للنقطة الأخيرة، ففى النصف الثانى من القرن العشرين حدثت مجموعة من الثورات من أنجولا إلى كوبا إلى فيتنام إلى زنزبار (جزء من تنزانيا الآن) لم تكن ثورات بروليتارية، ولم تكن بالتأكيد ثورات برجوازية بالمعنى الكلاسيكى.

لم يكن بإمكان تروتسكى أن يتوقع مثل هذا التطور، ولا كان بإمكان أى أحد آخر فى ذلك الوقت أن يتوقعـه. إن نظرية الثورة الدائمة والتى أثبتت صحتها بحسم فى النصف الأول من هذا القرن لابد، وهذا واضح، أن يعاد النظر فيهـا فى ضوء التطورات التالية. سنتعرض لهـذه المسـألة فـى الفصل الأخير من هذا الكتاب.

الفصل الثانى

الستالينية

إن الأمل فى تحقيق مجتمع حر ولا طبقى هو أمل قديم للغاية، ففى أوروبا مثلاً نجد دلائل موثقة على ذلك فى ضوء ما تبقى من أفكار الثائرين والهراطقة، ونجد فى مجتمعـات أقدم كثيراً من ذلك حركات شبيهه فى بدايات المسيحية مـثلاً وفى بدايات الإسلام.

لقد طرح ماركس فكرة جديدة نوعياً، مـن الممكـن تلخيصها كالآتى: إن آمال أكثر المفكرين تقدماً فى الأجيـال السابقة (قبل الصناعية) - مهمـا كانـت قيمتهـا الإلهاميـة للمستقبل ومهما كان إعجابنا بها - فهى لم تكـن إلا آمـال وأفكار طوباوية لم يكن من الممكن تحقيقها.

إن المجتمع الطبقى والاستغلال والاضطهاد سـتظل أموراً حتمية طالما ظلت قوى الإنتاج وإنتاجية العمـل فـى مستوى منخفض نسبياً. مع نمو الرأسمالية الصناعية لم تعـد هذه الأشياء حتمية إذا ما أطيح بالرأسـمالية. لقـد اصـبح المجتمع اللاطبقى المبنى على أساس الوفرة (النسبية) إمكانية موضوعية، لقد خلق تطور الرأسـمالية نفسـه آداه تحقيـق المجتمع اللاطبقى: البروليتاريا الصناعية.

كانت هذه الأفكار بالطبع، القاسم المشترك لماركسية ما قبل ١٩١٤، واتخذها كل الثوار الماركسيين كمسـلمات، ولكن المجتمع الذى أفرزته ثورة أكتوبر فى روسيا لم يكـن مجتمعاً حراً ولا طبقى،حتى فى المراحل الأولى للثورة كان الوضع بعيداً كل البعد عن تصورات ماركس للدولة العمالية (كما طرحها فى الحرب الأهلية فى فرنسا) وعن أفكار لينين (فى كتاب الدولة والثورة)، وقد تطور الوضع فيما بعد إلـى استبدادية مطلقة.

من الصعب المبالغة فى أهمية هذه الحقـائق، فوجـود دولة، وفيما بعد سلسلة من الدول، ادعت أنها اشتراكية فـى حين أنها لم تكن إلا كاريكاتيرات مقززة للاشـتراكية، لابـد وأن يعتبر عاملاً أساسياً فى بقاء الرأسمالية الغربية.

يدعى إيديولوجيو اليمين أن السـتالينية هـى النتيجـة الحتمية لمصادرة أملاك الطبقة الرأسمالية. أما إيـديولوجيو الاشتراكية الديمقراطية فادعوا أن السـتالينية هـى النتـاج الحتمى للمركزية البلشفية، وأن سـتالين الحليـف الطبيعـى للينين.

كان تروتسكى أول مـن تصـدى لتحليـل السـتالينية مستخدماً المادية التاريخية. مهما كانت الانتقادات التى مـن الممكن أن يثيرها هذا التحليل فقد كان بمثابة نقطة البداية لكل التحليلات الماركسية الجادة التى طرحت فيما بعد.

كيف كان الواقع الاجتماعى فى١٩٢١ فى روسيا حيث كان لينين ما يزال يـرأس مجلـس قوميسـارى الشـعب، وتروتسكى ما يزال قوميسار الشعب للحرب ؟. فى أواخـر ١٩٢١ تحدث لينين مدافعاً عن السياسة الاقتصادية الجديـدة وقال:

"إذا انتفعت منها الرأسمالية سينمو الإنتـاج الصـناعى، وستنمو معه البروليتاريا، سينتفع الرأسماليون مـن سياسـتنا وسيخلقون البروليتاريا الصناعية، التى أصبحت فى بلادنـا، بسبب الحرب والفقر المدقع والدمار، مخلوعة مـن أساسـها الطبقى، ولم تعد موجودة كبروليتاريا. البروليتاريا هى الطبقة التى تعمل فى إنتاج القيم المادية فى الصـناعة الرأسـمالية الثقيلة وحيث أن الصناعة الرأسمالية الثقيلـة قـد دمـرت، وأصبحت المصانع معطلة تماماً، فإن البروليتاريا قد اختفت،

إنها تظهر أحياناً فى الإحصائيات، ولكنها لم تعـد متماسـكة اقتصادياً"(١).

إن البروليتاريا لم تعد موجودة كبروليتاريا ! ما الـذى حدث إذن للديكتاتورية البروليتاريـة، للبروليتاريـا كطبقـة حاكمة ؟.

دمرت الحرب والحرب الأهلية الصـناعة الروسـية التى كانت أصلاً ضعيفة بالمقارنة بالصناعة الغربية. ظلـت روسيا الثورية فى حالة حرب مع ألمانيا والنمسا - المجـر منذ ثورة أكتوبر وحتى مارس ١٩١٨ عندما وقعت معاهـدة بريست ليتوفسك. فى الشهر التـالى وصـلت أول جيـوش التدخل "المتحالفة"، دخل اليابانيون إلى فلاديفوسك وبدءوا فى الزحف على سيبيريا. لم تنسحب هذه القوات حتـى نـوفمبر ١٩٢٢. فى تلك السنوات، غزت قوات من أربع عشر دولـة أجنبية أراضى الجمهورية الثورية (بما فى ذلك قـوات مـن الولايات المتحدة وبريطانيا وفرنسا) تم أيضاً تسليح وتمويـل جنرالات الجيش الأبيض فى أوج حرب التدخل. فى صـيف ١٩١٩، كانت الجمهورية السوفيتية قد أصبحت دولة صغيرة فى وسط روسيا الأوروبية حول موسكو مع بعـض القـلاع

خارج هذه المنطقة يدافعون عنهـا بصـعوبة، وحتـى فـى الصيف التالى حيث كان الجيش الأبيض قـد هـزم بشـكل حاسم، كان لابد من إرسال ربع المخزون الكلى من القمح فى الجمهورية السوفيتية إلى الجيش الغربى الذى كان يحـارب الغزاة البولنديين.

كانت المدن في ذلك الوقت في حالة مجاعة، فر أكثـر من نصف سكان بتروجراد وتقريباً نصف سكان موسكو إلى الريف، وكرست الصناعات التي تمكنوا من الإبقـاء عليهـا بالكامل تقريباً للإنتاج الحربي، واستدعى هذا التضحية بالبنية الإنتاجية ككل من أجل الإبقاء على نشاط جزء منهـا. أدت هذه الظروف إلى بداية تحلل الطبقة العاملة الروسية، التـي كانت تشكل أصلاً أقلية صغيرة.

إن الوقائع معروفة بما يكفى وهى معروضة ببعض التفصيلات فى الجزء الثانى من كتاب **إى بى كـار** ***"الثـورة البلشفية***"(٢).

بحلول عام ١٩٢١ كان مجمل الإنتاج الصناعى قـد تضائل إلى ثمن ما كان عليه فى عـام ١٩١٣، علمـاً بـان

الإنتاج فى ١٩١٣ كان ضئيلاً جداً بالنسبة للإنتاج الأمريكى أو البريطانى أو الألمانى.

استطاعت الثورة أن تبقى مـن خـلال مجهـودات وتضحيات هائلة أدارتها ديكتاتورية ثوريـة تعـدت بكثيـر ديكتاتورية اليعاقبة فى ١٧٩٣ فـى قـدرتها علـى التعبئـة السياسية ولكن ثمن هذا البقاء كان الدمار الإقتصادى، كمـا ظلت الثورة معزولة فبحلول ١٩٢١ كانت الحركة الثوريـة فى أوروبا قد انحسرت بوضوح.

ما يشغلنا هنا هو النتائج الاجتماعية لهـذه الوقـائع. كانت سياسة ما سمى "بشيوعية الحـرب" خـلال ١٩١٨ - ١٩٢١، فى الواقع نظام حصار اقتصادى وحشى. شملت هذه السياسة فى جوهرها مصادرة القمح مـن الفلاحـين بـالقوة وتفكيك الصناعة والتجنيد الإجبارى وقمع هائل مـن أجـل البقاء.

كان جزء كبير من إنتاج الفلاحين للقمح، قبل الثورة، يحول إلى المدن فى شكل إيجـارات وفوائـد ضـرائب أو تعويضات مدفوعة إلى الطبقات الحاكمـة القديمـة، كانـت روسيا القيصرية مصدراً هاماً للقمح. مع تحطيم النظام القديم

انتهى هذا الدور وأصـبح الفلاحـون ينتجـون مـن أجـل الاستهلاك أو التبادل ولكن مع دمار الصناعة لم يتبق شـيئاً تقريباً للتبادل لذا بدأت المصادرة بالقوة.

كانت الثورة قد استمرت فى بلد أغلبية سـكانه مـن الفلاحين بسبب تأييد جماهير الفلاحين المنتفعين من الثورة - وهو تأييد سلبى فى أغلب الأحيان.

ولكن مع نهاية الحرب الأهلية، انتهى هـذا التأييـد وأوضحت انتفاضات كرونشتادت، وتـامبوف أن الفلاحـين وقطاعات من الطبقة العاملة اصبحوا معارضـين للنظـام، أدخلت السياسة الاقتصادية الجديـدة "النيـب" بسـبب هـذه الظاهرة ضرائب محددة "مدفوعة بالقمح" حيـث أن النقـود كانت قد أصبحت عديمة القيمة فى زمن شـيوعية الحـرب، بدلاً من المصادرات العشوائية. ثانياً، تـم السـماح بإحيـاء التجارة الخاصة والإنتاج الصغير الخاص. ثالثـاً، تـم فـتح أبواب (بشكل غير ناجح) لـرأس المـال الأجنبـى للتمتـع بامتيازات. رابعا، وكان هذا فى غاية الأهمية، أدخلت النيب الإلزام الصارم بمبدأ الربحية فى أغلب الصناعات المؤممـة مع إدخال نظام مالى صارم على أساس معيار الذهب لتحقيق

استقرار فى العملة وفرض نظام السوق علـى المشـروعات العامة والخاصة.

حققت هذه الإجراءات التـى تمـت بـين ١٩٢١ - ١٩٢٨ انفراجاً اقتصادياً كان هذا الانفراج بطيئاً فى البدايـة ولكن بحلـول ١٩٢٦ - ١٩٢٧ وصـل مسـتوى الإنتـاج الصناعى إلى ما كان عليه فى ١٩١٣، متحدياً إياه فى بعض المواقع. كان النمو فى إنتاج المحاصيل الغذائيـة (أساسـاً: القمح) أبطأ كثيراً، وازداد الإنتاج ولكن استهلاك الفلاحـين كان قد ازداد مع الثورة وبقيت المدن فى حالة نقص. تحقـق هذا الانفراج الإقتصادى من خلال إجراءات رأسمالية أو شبه رأسمالية ولذا كان لها عواقب اجتماعية موازية.

"اصبح للمدن التى نسيطر عليها سمات غريبة، شـعرنا بأنفسنا نغرق فى الوحل .. المال هو الذى يسير الآلة بأكملها كما كان فى الرأسمالية. مليون ونصف عامل يحصلون على معونات غير كافية فى المدن الكبيرة .. ولدت الطبقات مـن جديد تحت أعيننا، عند اسفل السلم يحصل العاطلون على ٢٤ روبل فى الشهر وعند أعلى السلم يحصـل المهنـدس (أى التقنى المتخصص) على ٨٠٠ روبل، وبين الاثنين يحصـل

موظف الحزب على ٢٢٢ روبل ولكنه يحصل على أشـياء كثيرة مجاناً. كانت هناك فجوة واسعة تزداد اتساعاً بين ثراء الأقلية وبؤس الأغلبية"(٣).

تسببت سياسات النيب فى حدوث أحياء عددى للطبقة العاملة، إلا أن إحياء سياسياً لم يحدث، أو على الأقل لم يكن كافياً لزعزعة سلطة البيروقراطى ورجل النيب، والكـولاك. كان كرباج البطالة الواسعة النطاق - الذى كان أشد قسـوة كثيراً فى روسيا العشرينات منه فى بريطانيا الثلاثينـات - عاملاً أساسياً فى هذا.

دولة عمالية مشوهه

كان تحلل الطبقة العاملة قد وصل إلى مستوى متقدم عندما اندلع نقاش فى الحزب الشيوعى الروسى قرب نهايـة عام ١٩٢٠ حول ما سمى بمسألة النقابات. علـى السـطح كانت المسالة حول احتياج العمال لمنظمات نقابية للدفاع عن أنفسهم ضد دولتهم ولكن على مستوى أعمق كـان الخـلاف حول مسائل اكثر جوهرية.

هل كانت دولة ١٩١٧ العمالية لا تزال موجـودة ؟، كانت الديموقراطية السوفيتية قد فنيت عمليـاً فـى الحـرب الأهلية.الحزب الشيوعي كان قد حرر نفسه من الحاجة لتأييد أغلبية الطبقة العاملة وأصبحت السوفيتيات مجرد خـتم مـن المطاط لقرارات الحزب كمـا تطـورت عمليـة العسـكرة والمركزة بشكل هائل داخل الحزب.

ثارت المعارضة العمالية ضد هذه التطورات، ونـادت باستقلالية النقابات منذرة بسيطرة الحزب ومسترجعة تـراث سيطرة العمال علي الإنتاج (الذي كان مطلب حزبي في فترة سابقة).

إن تبني هذه الإجراءات كان سيعني نهاية النظام - فأغلبية الجزء المتبقي من الطبقة العاملة كان قد أصبح في ذلك الوقت لا مبالي، إذا لم يكن معادياً للبلاشفة، كذا أيضـاً جماهير الفلاحين اللذين كانوا يشكلون الغالبية العظمى مـن السكان. الديمقراطية في هذه الظروف لم تكن تؤدي إلا إلـى الثورة المضادة وديكتاتورية يمينية.

اضطر الحزب لاستبدال الطبقة العاملة المتلاشية بنفسه، وفي الحزب نفسه ازدادت سلطة المستويات القياديـة علـي

العضوية المتنامية ولكن بشكل غير منظم (وصل عدد أعضاء الحزب الشيوعي الروسي بالتقريب إلى ١١٥ ألف عضو في أوائل ١٩١٨ و ٣١٣ ألف عضو في أوائل ١٩١٩ و ٦٥٠ ألف عضو في صيف ١٩٢١ - كان العمال الصناعيون يشكلون أقلية متضائلة من هذه العضوية).

أصبح الحزب وصياً علي طبقة عاملة لم تعد قادرة علي إدارة شئونها بنفسها (وضع كان من المرجو أن يكون مؤقتاً). ولكن الحزب نفسه لم يكن محصناً من التأثر (لأنهم هم أيضاً كانوا قد أصبحوا انعكاساً لتخاف روسيا وانهيار الطبقة العاملة) بالقوى الاجتماعية القوية التي ولدها التدهور الصناعى وانخفاض إنتاجية العمل والتخلف الحضاري والثقافي وفي الواقع كان لازماً لكي يعمل الحزب كوصي أن يتم حرمان غالبية أعضائه من أى دور فعال في إدارة الأحداث.

كان الحل الذي طرحه تروتسكى لهذه المشكلة في البداية، هو الاستمرار علي نهج الاستبدالية:

"من الضروري أن نخلق فيما بيننا وعياً بالحق التاريخي للحزب. إن الحزب مجبر علي إبقاء ديكتاتورية بغض النظر

عن التموجات المؤقتة في المزاج العفوي للجماهير وبغـض النظر عن الاهتزازات المؤقتة في الطبقة العاملـة.إن هـذا الوعي يمثل لنا عنصر الوحدة الأساسي"(٤).

أدى هذا الموقف، لطرحه فكرة ضرورة استيعاب جهاز الدولة للنقابات (كما حدث بعد ذلك في ظل ستالين، فعليـاً إن لم يكن شكلياً). لم يكن هناك حاجة أو مبرر حتى لاستقلالية نسبية للنقابات التى لم تكن تمثل إلا مركزاً للمعارضة.

كانت أطروحات لينين المعارضة لهـذا الموقـف فـي ديسمبر ١٩٢٠ ويناير ١٩٢١ ،في غاية الأهميـة بالنسـبة للتطورات التالية في تحليل تروتسكى عن "***دولـة عماليـة***"**.**

"اسمحوا لي أن أقول أن هذه فكرة مجردة من الطبيعـي أن نكتب عن دولة عمالية في ١٩١٧ ولكنه يصـبح الآن خطـأ واضحاً أن نقول بمـا أن هـذه دولـة عماليـة بـدون أي برجوازية، ضد من إذن تتم حمايـة الطبقـة العاملـة ولأي غرض؟، إن المسألة كلها أن هـذه ليسـت بالضـبط دولـة عمالية. هنـا يرتكـب الرفيـق تروتسـكى أحـد أخطائـه الأساسية" (٥).

وكتب لينين في الشهر التالي:

"كان يجب أن أقول: أن الدولة العمالية تجريد. عندنا في الواقع دولة عمالية بهذه الخصوصية،أولاً، أن البلـد يهـيمن عليه السكان الفلاحون وليس الطبقة العاملة، ثانياً، أنها دولـة عمالية ذات تشوهات بيروقراطية".(٦)

دولة عمالية ذات تشوهات بيروقراطية في ببلد يهـيمن عليه الفلاحون. في المرحلة الثانية، النيب، تبنى تروتسـكى هذا الموقف وعمق مضمونه.

ليس من الضروري هنـا إعطـاء وصـف تفصـيلي لتطــورات المعارضــة اليســارية(١٩٢٣) والمعارضــة الموحدة(١٩٢٦ - ١٩٢٧) (٧). واللتين لعبا فيهما تروتسكى الدور الرئيسي، يكفي عرض بعض مواقفهم الأساسية.

طالبت المعارضة اليسارية والموحدة بمقرطة الحـزب وتحجيم أجهزته وأيضاً ببرنامج مخطط للتصنيع يمول مـن الضغط علي الكولاك ورجال النيب من أجل محاربة البطالة ولإحياء الطبقة العاملة اقتصادياً وسياسياً وبذلك إحياء أساس الديمقراطية السوفيتية.

أعلن برنامج المعارضة:

"لابد من تقوية الوضع المادي للبروليتاريا داخل البلد مطلقاً ونسبياً(نمو عدد العمال والموظفين وخفض عدد الباطلين وتحسين المستوى المادي للطبقة العاملة .. إن التأخر المزمن في الصناعة وأيضاً في النقل والكهرباء والبناء،هذا التأخر عن تلبية احتياجات ومطالب السكان وعن الاقتصاء العام والنظام الاجتماعي ككل،يخنق بقبضة حديدية التحول الاقتصادي للبلد"(٨).

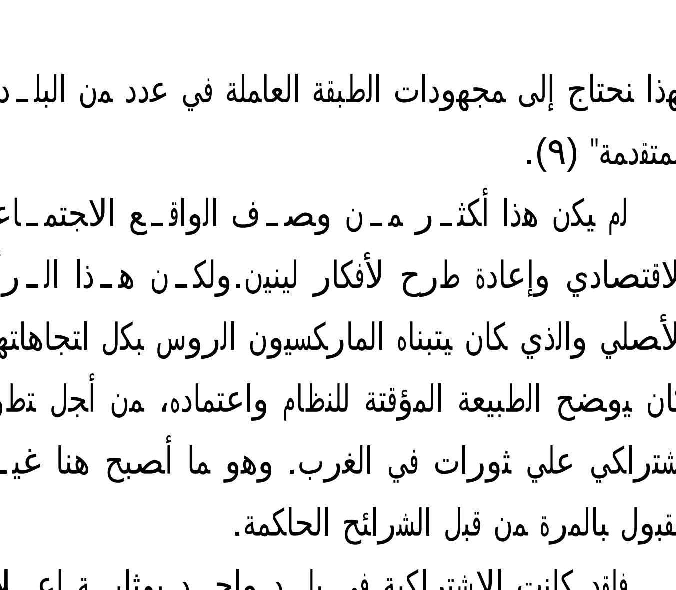
إن التناقض الداخلي لهذا الموقف يكمن من ناحية،في أن مقرطة الحزب كانت ستسمح للسخط الفلاحى والعمالي أن يجد التعبير المنظم عنه،ومن ناحية أخري فزيادة ضغط الدولة علي الأغنياء الجدد (وبالذات علي الأغنياء الفلاحين) كان سيؤدي إلى نفس التوتر الشديد الذي شهدته فترة شيوعية الحرب والذي تسبب في قمع المعارضة الشرعية خارج الحزب في البداية ثم القضاء علي المعارضة بداخل الحزب وإقامة ديكتاتورية جهاز الحزب بعد ذلك.

كانت المعارضة أيضاً مخنوقة. لقد كان برنامجها يهدد ويتحدى المصالح المادية للطبقات الثلاث المستفيدة من النيب:البيروقراطية ورجال النيب والكولاك. إن نجاح

المعارضة كان متوقفاً على إحياء نشاط الطبقة العاملة والتي كانت تشكل السند الوحيد الممكن لها. ولكن سياسات النيـب جعلت ذلك الإحياء مستحيل تقريبـاً طالمـا ظلـت الثـورة معزولة.

عارض ستالين، قائد وممثل الشرعية المحافظـة بـين مسئولي الحزب والدولة الذين كانوا فـي الواقـع يحكمـون البلاد، عارض بشدة مطلبي التصنيع المخطط والمقرطة (كما فعل أيضاً حلفاؤه علي أقصى يمـين الحـزب - بوخـارين ومؤيدوه). كان هذا المضمون الاجتماعي لشعار ***"الاشتراكية في بلد واحـد***" والذي تبنته المجموعة الحاكمة منـذ ١٩٢٥، والذي كان بمثابة إعلان عن تأييد للوضع الحالي وضـد أي نوع من الانتفاضات وضد التوقعات الثورية وضـد اتبـاع سياسة ثورية نشطة في الخارج. حتى في أبريل ١٩٢٤ كان ستالين ما زال يردد الموقف السائد وقد لخصه بنفسه كالتالي:

"إن مجهودات بلد واحد تكفي للإطاحة بالبرجوازيـة - يثبت ذلك نجاح ثورتنا ولكن من أجـل إحـراز الانتصـار النهائي للاشتراكية ولتنظيم عملية الإنتاج الاشتراكي لا تكفي مجهودات بلد واحد، خاصة إذا كان بلداً فلاحياً مثل بلـدنا -



لهذا نحتاج إلى مجهودات الطبقة العاملة في عدد من البلـدان المتقدمة" (٩).

لم يكن هذا أكثـر مـن وصـف الواقـع الاجتمـاعي الاقتصادي وإعادة طرح لأفكار لينين.ولكـن هـذا الـرأي الأصلي والذي كان يتبناه الماركسيون الروس بكل اتجاهاتهم، كان يوضح الطبيعة المؤقتة للنظام واعتماده، من أجل تطور اشتراكي علي ثورات في الغرب. وهو ما أصبح هنا غيـر مقبول بالمرة من قبل الشرائح الحاكمة.

فلقد كانت الاشتراكية في بلـد واحـد بمثابـة إعـلان لاستقلالهم عن الحركة العمالية.

لخص تروتسـكي التجربـة، بعـد الهزيمـة النهائيـة للمعارضة ونفيه من روسيا، في مقال كتـب فـي فبرايـر ١٩٢٩:

"بعد الاستيلاء على السلطة، فصـلت بيروقراطيـة مستقلة نفسها عن وسط الطبقة العاملة.كان هـذا الانفصـال وظيفياً في البداية ثم أصبح فيما بعد اجتماعياً.بـالطبع كـان للتطورات بداخل البيروقراطية صـلة وطيـدة بـالتطورات الجارية في البلد ككل فعلى أساس السياسة الاقتصادية الجديدة

ظهرت من جديد شريحة عريضة من البرجوازية في المـدن وأعيد إحياء المهن الحـرة، وفـي الريـف، رفـع الفـلاح الغني،الكولاك،رأســه،واقتربت قطاعــات عريضــة مــن الموظفين الحكوميين بسبب صعودهم فوق الجمـاهير علـي وجه التحديد من الشرائح البرجوازية وخلقت روابط أسـرية بينهم وبشكل متزايد أصبحت المبـادرة والنقـد مـن قبـل الجماهير تعتبر تدخلاً .. إن أغلبية هؤلاء الموظفين الـذين صعدوا فوق الجماهير محافظون بشـدة .. هـذه الشـريحة المحافظة والتي تشكل التأثير الرئيسي لستالين في صـراعه ضد المعارضة تميل أكثر من ستالين نفسه والنواة الأساسـية في فصيلة،إلى الذهاب بعيداً نحو اليمين" (١٠).

الاستنتاج السياسي النابع من هذا التحليل هـو إمكانيـة حدوث ثرميدور سوفيتي، يذكرنا بما حدث في التاسـع مـن ثرميـدور (٢٧ يوليـو ١٧٩٤)، حيـث أطـاح المجتمـع بديكتاتورية اليعاقبة ووضع محلها نظاماً يمينياً (الإدارة مـن ١٧٩٥) والتي أشرفت علي الردة السياسية والاجتماعية فـي فرنسا ومهدت الطريق لديكتاتورية بونابرت من ١٧٩٩. كان

الثرميدور نهاية الثورة الفرنسية العظمية وقد كانت الظروف الآن تهدد بثرميدور روسي.

"إن عناصر من عملية ثرميدورية، بخصوصية كاملـة بالتأكيد، نجدها أيضاً في بلاد السـوفيتيات. أصـبحت هـذه العوامل شديدة الوضوح في الأعوام الأخيرة. فالـذين فـي السلطة اليوم أما أنهم لعبوا أدوارا ثانوية في الأحداث الهامة أو كانوا معـادين للثـورة ولـم ينضـموا إليهـا إلا بعـد انتصارها.انهم يعملون الآن كستار لتلك الشـرائح المعاديـة للاشتراكية ولكنها في نفس الوقت أضعف من أن تنفذ انقلاب مضاد للثورة ولذلك تبحث عن تحرك ثرميدوري سلمي يعود بهم إلى الطريق المؤدي إلى المجتمـع البرجـوازي.أنهـم يرغبون في التدحرج إلى أسفل مع استخدام الفرامل علي حد تعبير أحد إيديولوجيي تلك الشريحة (١١).

ولكن هذا التطور لم يكن قد حدث بعد ولم يكن حتميـا. كانت الدولة العمالية مازالت باقية وان كان بشـكل متآكـل. كان تروتسكى يؤمن بأن الحصيلة النهائية:

"سيحددها مسار الصراع نفسه كما تخوضه القوى الحية في المجتمع.سيكون هناك فترات صعود وانحسـار يعتمـد

مداها بشكل كبيـر علـي الوضـع فـي أوروبـا والعـالم ككل" (١٢).

كانت هناك إذن ثلاث قوى أساسية متفاعلة في الاتحـاد السوفيتي:قوى اليمين، العناصر الرأسمالية الجديدة، الكولاك ورجال النهب، الخ .. الذين كان يخدمهم قطاع كبيـر مـن الجهاز الحاكم، الطبقة العاملة والتي كـان يمثلهـا سياسـياً المعارضة التي كانت قد قمعت الآن، وأخيراً البيروقراطيـة الوسطية - فصيل ستالين في قمة الجهاز - التي لم تكن هي نفسها ترميدورية ولكنها استندت علي الترميدوريين وأخـذت تتأرجح بين اليسار واليمين فـي محاولتهـا للحفـاظ علـي السلطة. ما بين ١٩٢٣ و ١٩٢٨ كان الميل يميناً ثم جاء بعد ذلك الميل اليساري. كتب تروتسكى في عـام ١٩٣١ عـن "مسار١٩٢٨ - ١٩٣١":

"إن هذا المسار يمثل، إذا تركنـا جانبـاً التأرجحـات والانزلاقات الضرورية، محاولة مـن قبـل البيروقراطيـة للتكيف مع البروليتاريا ولكن بدون التخلـي عـن المبـادئ الأساسية في سياستها أو ما هو أكثر أهمية، سلطتها المطلقة. إن تأرجحات الستالينية توضح أن البيروقراطية ليست طبقة،

وليست عنصراً تاريخياً مستقلا، بل هي أداة أو جهاز تنفيذي للطبقات. إن المسار اليساري يثبت أنه مهما كان المدى الذي وصل إليه المسار اليميني فهي علي الرغم مـن ذلـك قـد تطورت علي أساس ديكتاتورية البروليتاريا" (١٣).

كانت السلطة إذن ما تزال في أيدي الطبقة العاملة - أو علي الأقل كان بإمكان الطبقة العاملة استرجاع السلطة بدون تحول جذري:

"إن إدراك طبيعة الدولة السوفيتية الحالية كدولة عمالية لا يعني فقط أن البرجوازية لا تستطيع الاستيلاء علي السلطة إلا من خلال انتفاضة مسلحة بل يعني أيضاً أن البروليتاريـا السوفيتية مازالت قادرة علي إخضـاع البيروقراطيـة لهـا وإحياء الحزب من جديد وإعادة نظام الديكتاتورية بدون ثورة جديدة ولكن باستخدام أساليب وطريق الإصلاح" (١٤).

كانت هذه الاطروحات في الوقت الذي كتبت فيه، قـد أصبحت بدون أى أساس فقد كان تحليل القوى الـثلاث فـي العشرينات محاولة واقعية لتحليل ماركسي لمسار التطورات في الاتحاد السوفيتي ولكنه أصبح غير صـالح للتطـورات اللاحقة.

كانت الطبقات الرأسمالية الجديدة وتأثيرها علي الجناح اليميني للحزب الحاكم أمراً واقعاً في فترة ١٩٢٤ - ١٩٢٧. كان أيضاً الدور المتذبذب لفصيل ستالين الحاكم. فـي ذلـك الوقت، كما وصفه تروتسكى، ولكن تغيراً جذرياً قد حدث في ١٩٢٨ - ١٩٢٩.

بحلول ١٩٢٨ دخلت سياسة النيب أزمتها الأخيرة.كـان لرجال النيب والكولاك مصالح حيوية في الإبقاء عليها وفـي توسيع نطاق التنازلات المعطاة لرأس المال الصـغير فـي الريف والمدن. لم يكن لقيادات البيروقراطية وأتبـاعهم فـي الدرجات السفلي للسلم البيروقراطي نفس هذه المصالح كانت المصلحة الحيوية الوحيدة لهم هي مقاومـة المقرطـة فـي الحزب والدولة وكانوا قد تحـالفوا مـع قـوي الرأسـمالية الصغيرة (وجناح اليمين البوخـاريني فـي الحـزب) ضـد المعارضة وضد خطر صحوة الطبقة العاملة.

ولكن عنـدما واجهـت البيروقراطيـة، بعـد تحطـيم المعارضة، هجوم الكولاك من خلال إضـراب القمـح فـى ١٩٢٧ - ١٩٢٨ اكتشفت أن القاعدة الأساسية لها هي ملكية الدولة، وهما عنصران لم يكن لهمـا أى علاقـة عضـوية

بسياسات النيب. دافعت البيروقراطية عن مصـالحها بعـزم ضد حلفاء الأمس.

كان الكولاك عمليا يتحكمون في كل القمح المسوق، أى القمح الذى يفيض من استهلاك الفلاحـين (تقريبـاً خمـس الفلاحين ينتجون أربعة أخماس القمح المباع فـي السـوق). وأدت محاولتهم لرفع الأسعار من خلال حجب محاصـيلهم عن السوق إلى اضطرار البيروقراطيـة لاسـتخدام سـلاح المصادرة، ومع بدء هذه السياسة، التي قوضت أسس النيب، اضطروا للأخذ ببرنامج التصـنيع الـذي كانـت تطرحـه المعارضة ولكن بشكل مبالغ فيه لأقصى درجة، كما تم تنفيذ سياسة التجميع الجبري في الريف، القضاء علـي الكـولاك كطبقة، باختصار انطلقت الخطة الخمسية الأولى.

فسر تروتسكى هـذه التطـورات كانعطـاف يسـارى (مؤقت) للبيروقراطية الستالينية كمحاولة لتكييف نفسها مـع البروليتاريا. وكان هذا خطئا كبيراً لتروتسكى فقد كانت هذه السنوات هي نفسها التي شهدت تفتيت البروليتاريا السـوفيتية وتعريضها لأول مرة، لاستبدادية شمولية حقيقية فانخفضـت الأجور الحقيقية بحدة، كما كان ارتفاع الأسعار أسرع بكثير

من الارتفاع في الأجور النقدية وتوقفت أى إحصـائيات ذات معنى عن الصدور بعد ١٩٢٩ ولكن في إحـدى التقـديرات التي نشرت بعد الأحداث بفترة طويلة (١٩٦٦) كان تقـدير الأجـر الحقيقـي ٨٨,٦ فـي ١٩٣٢ (١٠٠ = ١٩٢٨) إن التقدير الصحيح للأجر الحقيقي، إذا كـان فـي اسـتطاعتنا معرفته، سيكون أقل بكثير من ٨٨,٦. كما علق "***ألكسـنوف***" وهو مصدر هذه المعلومات (١٥).

بدأت الخطة الخمسية بفترة من التوجيه للاقتصاد علـي أساس خطة شاملة،والنمو الصناعي السريع،والتجميع الجبري في ا لريف،وتدمير ما تبقى من حقوق سياسية ونقابية للطبقة العاملة والنمو السريع لعدم المسـاواة الاجتماعيـة والتـوتر الاجتماعي الشديد والعمل بالسخرة علي نطاق واسع، بـدأت أيضاً ديكتاتورية ستالين الفردية ونظام الإرهـاب البوليسـي التابع له وبعدها بقليل بدأت عملية القتل المنظم (بالرصـاص أو بالموت البطيء في معسكرات العمل) لأغلبيـة الكـوادر الأصلية في الحزب الشيوعي ولأغلبية الفصيل التابع لستالين في العشرينيات. ثم أيضاً قتل أعداد كبيـرة مـن مـواطنين

أخريين في الاتحاد السوفيتي ومـن الشـيوعيين الأجانـب. باختصار كانت هذه ذروة حكم ستالين.

كان تحليل تروتسكى الأولي لهذه الأحداث علـي أنهـا تمثل انعطافه إلى اليسار، مؤشراً علي سقوطه في الاستبدالية بخصوص الاتحاد السوفيتي ولم يستطع أبداً تصـحيح هـذا الخطأ بشكل كامل. إن فكرة إن البيروقراطية ليست عنصراّ تاريخياّ مستقلاّ وأنها أداة أو جهاز تنفيذي لطبقـات أخـري كانت قد فندت تماماً عندما دمرت نفس هـذه البيروقراطيـة طبقة الكولاك وفتت الطبقة العاملة.

في نفس الوقت كان من الممكن بصعوبة مناقشة الوقائع فى بداية الثلاثينات،فقد فرض النظام الشمولي الجديد تعتـيم كلي علي المعلومات الصحيحة وتم استبدالها بجهاز دعايـة رهيب ولكن تروتسكى كان من أقل الناس المخدوعة بهـذا. ولكن رؤيته النظرية هي التي أدت به إلى طـرح إمكانيـة الإصلاح في الاتحاد السوفيتي. خرج في تلك الفترة التشـبيه الشهير والخادع للاتحاد السوفيتي بنقابة مبقرطـة، وطالمـا استمرت استراتيجية الإصلاح، ظلت هذه التحلـيلات علـي الأقل متسقة منطقياً.

الدولة العمالية والثرميدور والبونابرتية

في أكتوبر ١٩٣٣، غير تروتسكى موقفه بشكل مفاجئ قائلاً بأن النظام لا يمكن إصلاحه.ولا بد من الإطاحة بـه.إن طريق" الإصلاح" لم يعد ممكناً. الثورة فقط هي التي بإمكانها تحطيم البيروقراطية:

"بعد تجربة السنوات القليلة الماضية يصبح من الطفولي تصور أن البيروقراطية الستالينية من الممكن إزاحتهـا مـن خلال مؤتمر للحزب أو السوفيتات.في الواقـع كـان آخـر مؤتمر للحزب البلشفي في بدايات ١٩٢٣، المـؤتمر الثـاني عشر للحزب.

لم تكن كل المؤتمرات التالية إلا مواكب للبيروقراطية، واليوم تم التخلي حتى عن هذه النوعية من المؤتمرات.لم يعد هناك طرق دستورية طبيعية لإزاحة الفئة الحاكمة،لن تجبـر البيروقراطية علي التخلي عن السلطة لطليعة البروليتاريا إلا عن طريق القوة" (١٦).

لا بـد ادن مـن تحطـيم النقابـة المبقرطـة،وليس إصلاحها،صحيح أن هذه المقالة تضمنت مقولة"أن التمزق في التوازن البيروقراطي في الاتحاد السوفيتي اليـوم سـيكون

بالتأكيد في صالح القوى المضادة للثورة"،ولكن هذا الموقـف الملتبس سرعان ما تغير إلى موقف ثوري.

نقد تروتسكى وراجع،بأمانته المعتادة،رؤيته الإصلاحية السابقة فكتب في ١٩٣٥:

"إن مسألة "***الترميدور***" مرتبطـة بتـاريخ المعارضـة اليسارية في الاتحاد السوفيتي .. وفي أى حال كانت المواقف حول هذه المسألة في١٩٢٦ كالآتي بالتقريب:

مجموعة "**المركزية الديمقراطيـة**" (ف٠م٠سـميرنوف وسبر نوف وآخرين ممن طاردهم ستالين حتى الموت فـي المنفى)أعلنوا أن "الترميدور واقع قد أنجز "كان المنتسـبون لمنبر المعارضة اليسارية يرفضون هذا الزعم بشكل مبـدئي ... من الذي أثبتت الأحداث صواب موقفه ؟ ... الراحل ف. م. سمير نوف - أحد أفضل ممثلي المدرسة البلشفية القديمة - رأى أن التأخر الصناعي ونمو الكولاك ورجـال النيـب (البرجوازية الجديـدة) والعلاقـة الخاصـة بيـنهم وبـين البيروقراطية وأخيراً انحطاط الحزب قد وصل إلـى درجـة تجعل العودة إلى الاشـتراكية بـدون ثـورة جديـدة أمـراً

مستحيلا.إن البروليتاريا قـد فقـدت السـلطة .. المكاسـب الأساسية لثورة أكتوبر قد تم تصفيتها" (١٧).

كان استنتاج تروتسكى:

"إن"ثرميدور الثورة الروسية العظيمة ليس أمامنا ولكنه وراءنا بمسافة كبيرة.يستطيع الثرميدوريون الاحتفال بالعيـد العاشـر تقريبـا لانتصـارهم (أي أنـه حـدث حـوالي عام١٩٢٥)" ١٨).

هل كان المركزيون الديمقراطيون إذن على حـق فـي ١٩٢٦؟. رد تروتسكي الآن بنعم أولا. كانوا محقـين فـي مسألة الثرميدور ولكن مخطئين حـول دلالتـه. إن النظـام السياسي الحالي في الاتحاد السوفيتي للإمبراطوريـة منهـا للقنصلية في فرنسا ولكنه أكـد: فـي الأسـس الاجتماعيـة والتوجهات الاقتصادية يظل الاتحاد السوفيتي دولة عمالية.

كان هذا التحليل معقولاً في إطار التشابهات الشـكلية. فالثرميدوريون وبونابرت كما أشار تروتسكى كانوا يمثلـون ردة علي أساس الثورة البرجوازية وليس عودة إلى النظـام القديم.

كان جوهر أطروحة سبر نوف أن البروليتاريا كانت قد فقدت السلطة بالفعل وكان تروتسكى رافضا لهـذه الفكـرة بشدة. في ذلك الوقت كان تروتسكى يعتبر أن الحزب مهمـا بلغت درجة بقرطته،ما زال يمثل الطبقة العاملة فلا تسـتطيع الطبقة العاملة،على عكس البرجوازية أن تمسك بالسـلطة إلا من خلال منظماتها.

وقد أعلن ١٩٢٤:

"أيها الرفاق لا يوجد بيننا من يريد أو يستطيع أن يكون محقا في مواجهة الحزب. فالحزب، في التحليـل الأخيـر، يكون دائماّ علي حق لأنه الأداة الوحيدة التي تمتلكها الطبقـة العاملة لإنجاز مهامها الأساسية ... لا يستطيع أحد أن يكون محقاّ إلا مع الحزب ومن خلال الحزب لأن التاريخ لم يخلق أى وسيلة أخرى للتحقيق من صحة المواقف ... هناك المثل الإنجليزي القائل، وطني محقاً كان أو مخطئـاً، نسـتطيع أن نقول الآن، بمبررات أعظم كثيراً: حزبـي، محقـا كـان أو مخطئا"في مسائل محددة وفي لحظات معينة" (١٩).

كان موقف تروتسكى قي أواخر ١٩٣٣ هو أن الحزب-الحزب الروسي-كان قد أصبح أداة في البداية للثرميدور والآن للبونابرتية.

بما أن الحزب قد توقف عن كونه أداة للطبقة العاملة-لا بد من الإطاحة بالنظام بالقوة.وبما أن العمال الروس لم يكن لديهم أى أدوات أخرى(كانوا في الواقع مفتتين وتحت وطأة الإرهاب)فما الذي تبقى إذن من الدولة العمالية ؟.

لا شئ، كان هذا هو الاستنتاج الوحيد الممكن إذا كانت المصطلحات ستظل لها معانيها المسلم بها حتى ذلك الوقت.كان هناك ضرورة لثورة جديدة ولانتفاضة ثورية منتصرة لتستعيد الطبقة العاملة الحكم في الاتحاد السوفيتي.كانت الطبقة العاملة قد فقدت سلطتها ولم يكن هناك طريق سلمي دستوري لاسترجاع السلطة من جديد. لم يعد إذن للدولة العمالية وجود.كانت الثورة المضادة قد تمت.

رفض تروتسكى هذه الاستنتاجات وكان عليه لذلك أن يحدث تغيير جوهري في تعريفه للدولة العمالية:

"إن السيطرة الاجتماعية لطبقة (أى ديكتاتوريتها) من الممكن أن تجد أشكالا سياسية متنوعة جداً.يثبت ذلك تاريخ

البرجوازية كلـه منـذ القـرون الوسـطى وحتـى يومنـا هذا.أصبحت الآن تجربة الاتحاد السوفيتي كافية لمـد هـذا القـانون السوسـيولوجي- بكـل التغيـرات الضـرورية- لديكتاتورية البروليتاريا هي الأخرى ... إن السيطرة الحالية لستالين لا تتشابه بأى شكل مع حكم السوفيتات فـي الفتـرة الأولى من الثورة ... ولكن هذا الاغتصاب للسلطة أصـبح ممكنا لأن المضمون الاجتماعي لديكتاتورية البيروقراطيـة تحدده تلـك العلاقـات الإنتاجيـة التـي خلقتهـا الثـورة البروليتارية.وبهذا المعنى يحق لنا القول بـأن ديكتاتوريـة البروليتاريا وجدت التعبير المشوه ولكن الأكيـد لهـا فـي ديكتاتورية البيروقراطية" (٢٠).

ظل تروتسكى متمسكا بهذا الموقف في جوهره للخمس سنوات الأخيرة من عمره.وقد شرح تروتسكى هذا الموقـف باستفاضة في كتابه "***الثـورة المغـدورة***" (١٩٣٧) الغنـي بالتفاصيل والأمثلة الحية.

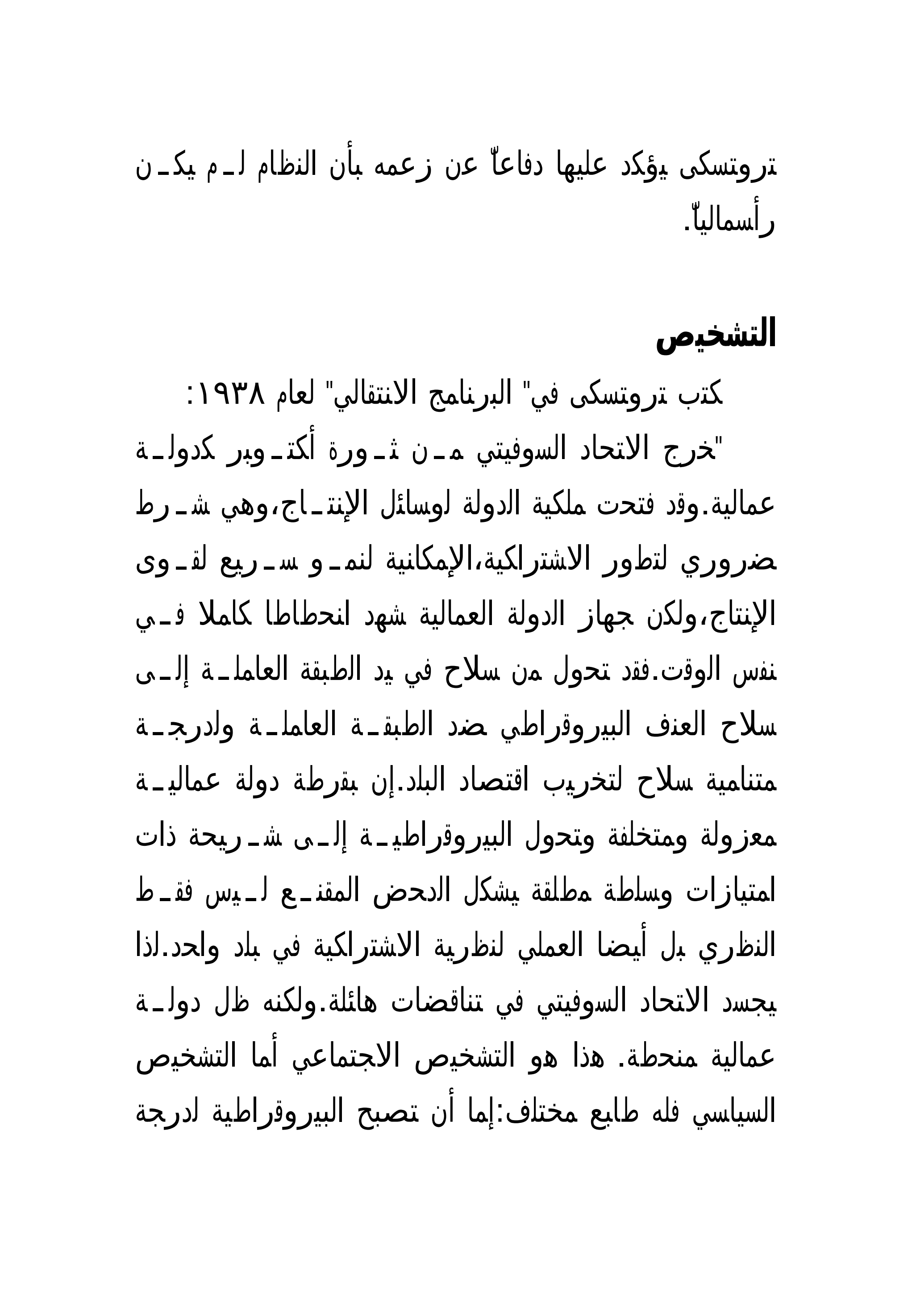
إن جوهرية وأهمية هذا التحول عن أفكاره السـابقة لا يمكن المبالغة فيه.إن القول بإمكانية حدوث تشوه أو انحراف أو انحطاط بيروقراطي للدولة العمالية (كما طـرح لينـين)

يختلف تماماً عن القول بعدم وجود أى صلة ضرورية بـين ديكتاتورية البروليتاريا وسلطة العمال.

أصبحت ديكتاتورية البروليتاريا تعنـي أساسـاً ملكيـة الدولة للصناعة واقتصاد مخطط (مع أنه لـم يكـن هنـاك تخطيط يذكر في فترة النيب)، تظل الدولة"عمالية"حتـى مـع تجزؤ الطبقة العاملة وتعرضها لحكم ديكتاتوري مستبد.

لا بد من القول هنا أن تروتسكى كان يواجـه ظـاهرة غير مسبوقة.فقـد كـان هـو وجميـع المعارضـين فـي العشرينات،يرى أن الخطر الرئيسي على النظام يـأتي مـن القوة المتصاعدة للرأسمالية الصغيرة. هذا ما كانوا يعنونـه بالثرميدور.لم تكن النتيجة الفعلية متوقعة.فقد توسعت ملكيـة الدولة بشكل سريع ولعبت البيروقراطية فـي الواقـع دورا مستقلا.وهي حقيقة لم يعترف بها تروتسكى بشـكل كامـل أبدا.كان النظام الذي نشأ فريدا في ذلك الوقت.

لم يكن هناك إعادة إحياء للبرجوازية.وأيضا حدث فـي الاتحاد السوفيتي نمو اقتصادي سريع في وقت كان الغـرب فيه يعاني من ركود صناعي عميـق وهـي مسـألة ظـل



تروتسكى يؤكد عليها دفاعاً عن زعمه بأن النظام لم يكن رأسمالياً.

التشخيص

كتب تروتسكى في" البرنامج الانتقالي" لعام ١٩٣٨:

"خرج الاتحاد السوفيتي من ثورة أكتوبر كدولة عمالية.وقد فتحت ملكية الدولة لوسائل الإنتاج،وهي شرط ضروري لتطور الاشتراكية،الإمكانية لنمو سريع لقوى الإنتاج،ولكن جهاز الدولة العمالية شهد انحطاطا كاملا في نفس الوقت.فقد تحول من سلاح في يد الطبقة العاملة إلى سلاح العنف البيروقراطي ضد الطبقة العاملة ولدرجة متنامية سلاح لتخريب اقتصاد البلد.إن بقرطة دولة عمالية معزولة ومتخلفة وتحول البيروقراطية إلى شريحة ذات امتيازات وسلطة مطلقة يشكل الدحض المقنع ليس فقط النظري بل أيضا العملي لنظرية الاشتراكية في بلد واحد.لذا يجسد الاتحاد السوفيتي في تناقضات هائلة.ولكنه ظل دولة عمالية منحطة. هذا هو التشخيص الاجتماعي أما التشخيص السياسي فله طابع مختلف:إما أن تصبح البيروقراطية لدرجة

أكبر أداة البرجوازية العالمية داخل الدولة العمالية وتطيح بالأشكال الجديدة للملكية وتعيد البلاد مرة أخرى للرأسمالية،أو تحطم الطبقة العاملة البيروقراطية وتفتح الطريق للاشتراكية" (٢١).

ولكن لماذا يجب أن الوضع كذلك! .. كان تروتسكى مقتنعا بأن البيروقراطية كانت غير مستقرة بالمرة ومتنوعة سياسيا.وزعم في ١٩٣٨ أن اتجاهات عديدة كانت بداخلها من البلشفية الحقيقية إلى الفاشية التامة.كانت هذه الاتجاهات مرتبطة بقوى اجتماعية وتشمل:

"اتجاهات رأسمالية واعية ... أساساً القطاع الأغنى من المزارع الجماعية... والذي يوفر لنفسه قاعدة عريضة من الاتجاهات البرجوازية الصغيرة بتراكم الثروات الشخصية على حساب الفقر العام،وتشجيعهم بشكل واعي للبيروقراطية"(٢٢).

وبداخل البيروقراطية:

"تعبر اتجاهات فاشية مضادة ومتنامية بشكل مستمر عن مصالح الإمبريالية العالمية.هؤلاء المرشحون لدور الكومبرادور يعتبرون ولأسباب وجيهة أن الشريحة الحاكمة

الجديدة لن تستطيع تأكيد مواقعهم المتميزة إلا من خلال نبـذ التأميم والتجميع واحتكار التجـارة الخارجيـة مـن أجـل استيعاب"الحضارة الغربية" ... أى الرأسمالية.فوق هذا النظام ذو التناقضات المتصاعدة تتمسك الأوليجاركية الثرميدوريـة والتي أصبحت اليوم لـيس أكثـر مـن مجموعـة سـتالين البونابرتية،تتمسك بالحكم من خـلال أسـاليب إرهابيـة.إن تصفية البلاشفة القدامى والممثلين الثوريين للجيل المتوسـط والشاب قد سبب اضطراب في التوازن السياسي في صـالح الجناح اليميني البرجوازي من البيروقراطية وحلفائهـا فـي سائر أنحاء البلاد.من هؤلاء أي من اليمين،نتوقع محـاولات أكثر تصميما لتغيير الطبيعة الاشتراكية للاتحـاد السـوفيتي ولتقريبها من نمط **الحضارة الغربية فـي شـكلها الفاشـي**" (٢٣).

من المثير للاهتمام أن ينبه تروتسكى في ذلـك الوقـت للتشابه بين الفاشية الستالينية عندما كانت الجبهة الشـعبية لا تزال في مجدها.وقـد كتـب فـي"***الثـورة المغـدورة***" أن "***الستالينية والفاشية،بالرغم من الفارق العميق في الأساس الاجتماعي،هما ظواهر متماثلة***" (٢٤).

وأيضا كتب "كما في البلاد الفاشية، والتـي لا يختلـف عنها جهـاز سـتالين السياسـي إلا فـي توحشـه الأكثـر سفوراً" (٢٥).

ما يشتركون فيه،هو تحطيم كـل المنظمـات العماليـة المستقلة وتفتيت الطبقة العاملة هو مثير للدهشة،ولكن علـي افتراض أن هناك فرق عميق في الأسـاس الاجتماعي،هـل يعني هذا أن دولة عمالية فاشية قد وجدت؟..ولكن الأهم من ذلك هو مسألة الاتجاهات البيروقراطية الراغبة فـي إعـادة الرأسمالية، وهو مادفع تروتسكى لكى يناقش فى كتاباته فـى تلك الفترة مسألة حق التوريث:

"ليس للامتيازات إلا نصف قيمتها إذا لم يكن من الممكن نقلها للأبناء، ولكن حق التوريث لا يمكن فصله عـن حـق الملكية. ليس من الكـافي أن تكـون مـديرا لشـركة مـن الضروري أن تكون حاملا لأسهم" (٢٦).

يوضـــح تروتســـكى هكذا،الضـــغط الشـــديد علـــي البيروقراطية من أجل التخلي عن سـيطرتها فـي الاتحـاد السوفيتي لتصبح الشريك الأصـغر "***الكـومبرادور***" للقـوى الإمبريالية المختلفة.

ظل الاتحاد السوفيتي، بالنسـبة لتروتسـكى، "مجتمـع متناقض في منتصف الطريق بين الرأسمالية والاشتراكية .. في التحليل الأخير ستحسم المسألة (التقدم إلى الاشتراكية أو العودة إلى الرأسمالية) من خلال صراع القوى الاجتماعيـة الحية في الساحة المحلية والعالمية" (٢٧).

كان هذا الصراع قد تطور بالفعـل بطريقـة أجهـدت تروتسكى إلى أقصى حد في السنوات الأخيرة السابقة علـي وفاته.

الفصل الثالث

الاستراتيجية والتكتيك

إن هدف إنشاء حركة عمالية أممية، قديم قـدم البيـان الشيوعي ذاته ***بشعاره "يا عمال العالم اتحدوا"،*** هـذا إن لـم يكن أقدم بالفعل.في ١٨٦٤ (الأممية الأولـى)كانـت هنـاك محاولات لإعطاء هذا الهدف تعبيرا تنظيميا.وقـد انهـارت الأممية الثانية في ١٩١٤ عندما تخلت أحزابها الكبيرة فـي الدول المتحاربة عن الأممية،وأيدت حكومـات القيصـرين الألماني والنمساوي،والملك الإنجليزي،والجمهوريـة الثالثـة البرجوازية الفرنسية.

ولم يكن الأمر أنهم أخذوا بالمفاجأة.فمؤتمرات ما قبـل الحرب كررت التنبيه على مخـاطر الإمبرياليـة والنزعـة العسكرية،وتهديد الحرب المتزايد،وحاجة الأحزاب العماليـة للوقوف،بحزم ضد حكوماتها،بل واستخدام الأزمة الناتجة عن الحرب لتسريع سقوط الحكم الطبقي،الرأسمالي،كما جاء فـي مؤتمرات شتوتجارت للأممية الثانية ١٩٠٧ .

الاستسلامات التالية في ١٩١٤، وهي هزيمة شـديدة للحركة الاشتراكية، دعت لينين لإعلان: لقد ماتت الأمميـة الثانية ... تحيا الأممية الثالثة.بعد ذلك بخمس سـنوات فـي

١٩١٩، تم تأسيس الأممية الثالثة بالفعل،وقد لعب تروتسكى دورا كبيرا في الأعوام الأولى للأممية.

في وقت لاحق،مع صعود الستالينية في الاتحاد السوفيتي،تم الاتجار بالأممية في خدمة الدولة الستالينية في روسيا.وقد حارب تروتسكى أكثر من أى شخص،ضد هذا الانحطاط،ان الكثير من أقيم كتاباته حول استراتيجية وتكتيكات الأحزاب العمالية الثورية تتعلق بالأممية الثالثة ، الكومنترن، سواء في فترة صعوده أو في فترة هبوطه التالية.

" طارحين جانبا تراخ وأكاذيب وفساد الأحزاب الاشتراكية الرسمية التي تخطت عمرها الافتراضي ، نحن الشيوعيون، المتحدون في الأممية الثالثة، تعتبر أنفسنا الاستمرار المباشر للمحاولات الهادئة والاستشهاد البطولي لخط طويل من الأجيال الثورية من بابوف إلى كارل ليبكنخت وروزا لكسمبورج.

إذا كانت الأممية الأولى قد مهدت للنهج المستقبلي للتطور ودلت علي سبله،وإذا كانت الأممية الثانية قد جمعت ونظمت ملايين العمال،فأن الأممية الثالثة أذن هي أممية

العمل الجماهيري المفتوح،أهميـة التحقيـق الثوري،أهميـة الفعل".(١)

كان تروتسكى في الأربعين من عمره وفي قمة قوتـه عندما كتب بيان الأممية الشيوعية،الذي أخذت منه السـطور السابقة،بصفته قوميسار الشعب للحـرب فـي الجمهوريـة السوفيتية المحاربة،كان الثاني وراء لينين في كونه المتحدث المعترف به باسم الشيوعية العالمية.

لم تكن رؤيته في ذلـك الوقت،بـالطبع،متميزة بشـكل خاص.لقـد كانـت الرؤيـة المشـتركة للقيـادة البلشـفية بأجمعها،وهي رؤية لم تحل دون وجود خلافات شديدة فـي الرأي حول هذا الموضوع أو ذاك إلا أنها كانت متجانسة في الأساس،ومع ذلك فان تروتسكى سيعتبر مع الوقت الداعيـة البارز لأفكار الأممية الشـيوعية فـي فترتهـا البطوليـة. فالأحداث - التي لم يتوقعها أى من الزعماء الثـوريين فـي ١٩١٩ أو أعدائهم - خفضت في وقت لاحق حـاملي هـذا التراث الأصيل إلى بضعة أفراد،وفاقهم تروتسـكى جميعـا كعملاق وسط الأقزام.

ومرة أخرى في كتاباته في أواخر العشرينات وخـلال الثلاثينات،كان تروتسكى يشير إلـى قـرارت المـؤتمرات الأربعة الأولى للكومنترن كنموذج للسياسة الثورية.ما هـي هذه القرارات وفي أية ظروف تم اتخاذها ؟.

كان اليوم ٤ مارس ١٩١٩، صوت ٣٥ مندوباً اجتمعوا فى الكرملين، بامتناع واحد عن التصـويت لصـالح إنشـاء الأممية الثالثة أو الشيوعية. لم يكـن الاجتمـاع ذا وزن أو تمثيل كبير فقد كان المندوبون خمسة من الحزب الشـيوعى الروسى فقط (بوخـارين، شيشـرين، لينـين، تروتسـكى، وزينوفييف) يمثلون حزباً جماهيرياً وثورياً أصيلاً فى نفـس الوقت. جاء (ستانج) من حزب العمال النرويجي (NAP) من حزب جماهيري، إلا أن حزب العمال النرويجى، كما اثبتت الأحداث بعد ذلك كان بعيداً عن الثورية فى الممارسة. أمـا "إبرلاين" من الحزب الشيوعى الألمانى (TDP) حديث التكوين فقد مثل منظمة ثورية حقيقية ولكنها كانت لا تضـم سـوى بضعة آلاف قليلة. وأغلب المندوبين الباقين مثلوا ما هو قليل جداً.

لقد سلمت الأغلبية بأن "أممية" دون تأييـد جمـاهيري حقيقيي فى عدد من البلاد هى هراء. وطرح زينوفييـف "أن التأييد الجماهيرى كان قائماً بالفعل وأن ضعف كثيـر مـن الوفود أمراً عرضياً. ولدينا ثورة بروليتارية منتصرة فى بلد كبير. ولديكم فى ألمانيا حزب متجه إلى السلطة سيكون فـى بضعة شهور قليلة حكومة بروليتارية. وهل علينا أن نؤجـل مع ذلك ؟ إن أحداً لم يفهم ذلك" (٢).

لم يكن أى من المندوبين يشك فى أن الثورة الاشتراكية كانت إمكانية فورية فى أوروبا الوسطى وخاصـة ألمانيـا. وبكلمات إبرلاين:

"إذا لم تكن كل المؤشرات خادعة فإن البروليتاريا تواجه الصراع الحاسم الأخير. مهمـا كانـت الصـعوبات، فـإن الظروف مواتية للشيوعية" (٣).

كان لينين، أكثر الثوريين رزانة وحساباً، قد قال فى خطبته الافتتاحية إن:

"ليس فقط فى روسيا ولكن فى أكثر البلدان تقـدماً فـى أوروبا، ألمانيا على سبيل المثال الحرب الأهلية هـى أمـر واقع ... الثورة العالمية تبدأ وتزداد قوة فى كل مكان" (٤).

لم يكن هذا خيالاً ففى نوفمبر ١٩١٨، إنهارت الإمبراطورية الألمانية التى كانت أقوى دولة فى أوروبا حتى ذلك الوقت. حل ستة من قوميساري الشعب - ثلاثة اشتراكيون ديمقراطيون وثلاثة اشتراكيون ديمقراطيون مستقلون - محل حكومة القيصر، وغطت مجالس العمال والجنود البلاد، وكانت السلطة الفعلية فى يدها. صحيح أن زعماء الشيوعيين الديمقراطيين، الذين سيطروا على هذه المجالس، وجهوا كل جهودهم نحو إعادة إنشاء سلطة الدولة الرأسمالية الجديدة تحت قناع "جمهوري جديد". وقد كان هذا سبباً إضافياً لخلق أممية ثورية ذات قيادة مركزية قوية لإرشاد وتأييد الصراع من أجل ألمانيا سوفييتية. وقد بدا أن هذا الصراع، على الرغم من القمع الدموي لانتفاضة سبارتكوس فى يناير ١٩١٩، كان يتنامى. ومن يناير إلى مايو ١٩١٩، مع إفرازات وصلت إلى أوج الصيف، شنت حرب أهلية دموية فى ألمانيا (٥). وبعد شهر واحد من اجتماع موسكو أعلنت الجمهورية السوفييتية البافارية.

أما القوى العظمى الأخرى فى أوروبا الوسطى، الإمبراطورية النمساوية المجرية، فكانت قد توقفت عن

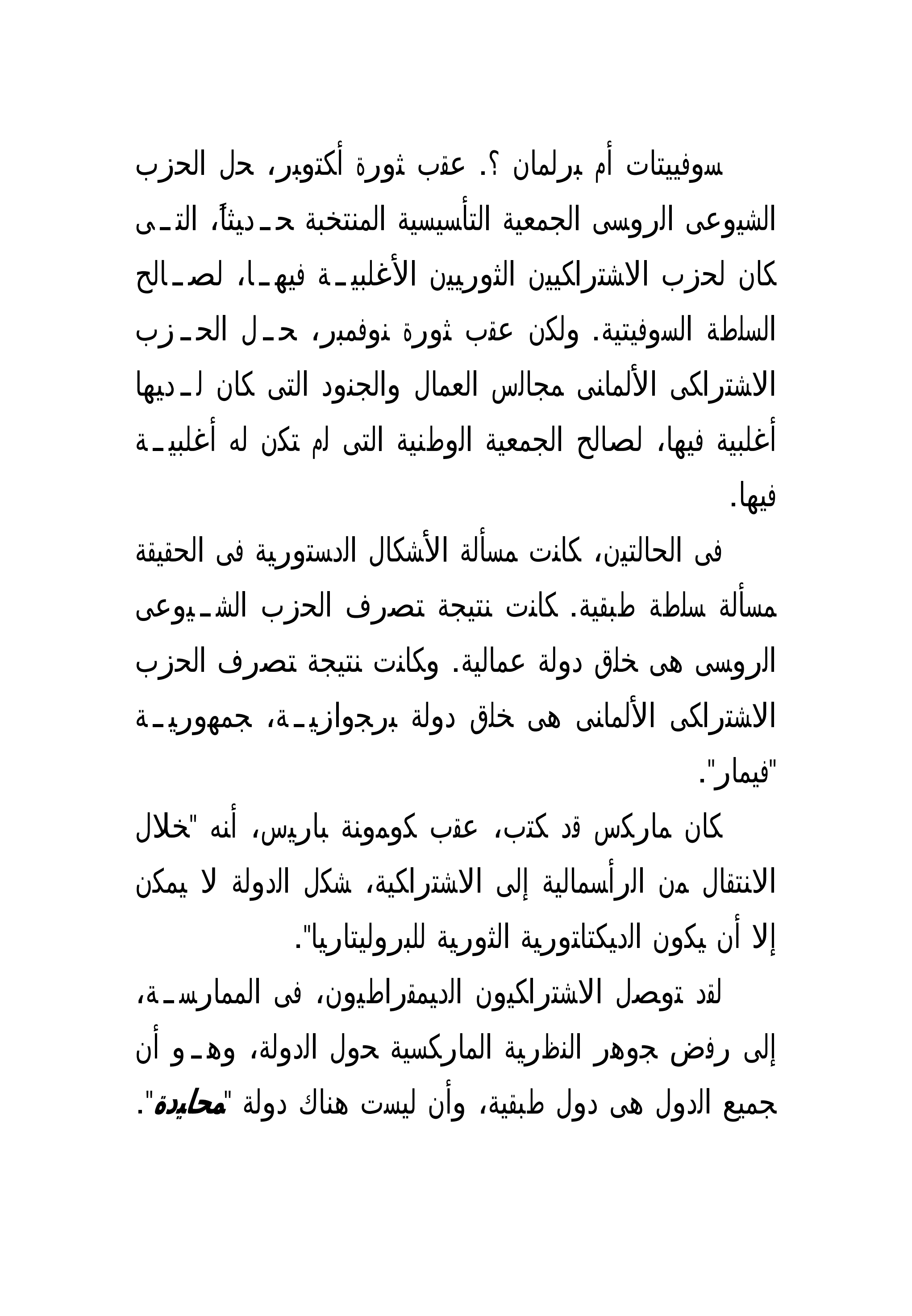
الوجود وكانت الدول التى خلفتها، على درجات متفاوتة مـن الاختمار الثورى. فى الجزء الناطق بالألمانية مـن النمسـا كانت القوه المسلحة الفعالة الوحيدة هى جيش الشعب، الـذى تسيطر عليه الاشتراكية الديمقراطية. وفى المجـر، أعلنـت الجمهورية السوفيتية فى ٢١ مارس ١٩١٩. وكانت جميـع الـدول الجديـدة أو المعـاد إنشـاؤها - تشيكوسـلوفاكيا، يوجوسلافيا، بل وبولندا - تموج بعدم الاستقرار.

كان دور الزعامات الاشتراكية فاصلاً. لقـد أيـدت الأغلبية الآن الثورة المضادة باسم الديمقراطية. زعم أغلبهم أنهم - وقد كانوا كذلك بالفعل فى وقت مـا - ماركسـيون وأمميون. لقد كانوا الآن فى هذا الوقـت الحـرج، الدعامـة السياسـية للرأسـمالية، مسـتخدمين الجمـل الاشـتراكية والمصداقية التى نالوها من سـنوات معارضـتهم للأنظمـة القديمة قبل ١٩١٤ لمنع إنشاء السلطة العمالية، وقد اعتبرت محاولاتهم إعادة إنشاء الأممية الثانية فى اجتماع فـى بـرن سبباً ملحاً إضافياً لإعلان الأممية الثالثة. كان لينين قد كتـب فى ١٩١٤ وليس بعد ذلك:

"لقد ماتت الأممية الثانية، قضت عليهـا الانتهازيـة .. تحيا الأممية الثالثة" (٦). والآن، بعد ثمانية عشر شهراً مـن ثورة أكتوبر كان للشعار أن يتحول إلى حقيقة.

ماذا إذن كان الأساس الجوهرى للأممية الثالثة ؟، لقد ارتكزت على مبدأين أساسيين: الأمميـة الثوريـة والنظـام السوفيتى باعتباره الوسيلة الوحيدة التى سيحكم العمال بهـا. أعلن القرار الأساس لمؤتمر ١٩١٩:

"لقد اتخذت الديمقراطية أشكالاً مختلفة وطبقت بدرجات مختلفة فى جمهوريات اليونان القديمـة، ومـدن العصـور الوسطى، والبلاد الرأسمالية المتقدمة. سيكون مـن الهـراء المحض الاعتقاد بأن أكثر الثورات عمقاً فى التاريخ، الحالة الأولى فى العالم لانتقال السلطة من الأقلية المسـتِغلة إلـى الأغلبية المستَغلة، يمكن أن تحدث داخل إطار الديمقراطيـة البرلمانية البرجوازية القديم الـذى أهلكـه الـزمن، بـدون تغييرات شديدة وبدون خلق أشـكال جديـدة للديمقراطيـة، مؤسسـات جديـدة تجسـد الظـروف الجديـدة لتطبيـق الديمقراطية" (٧).

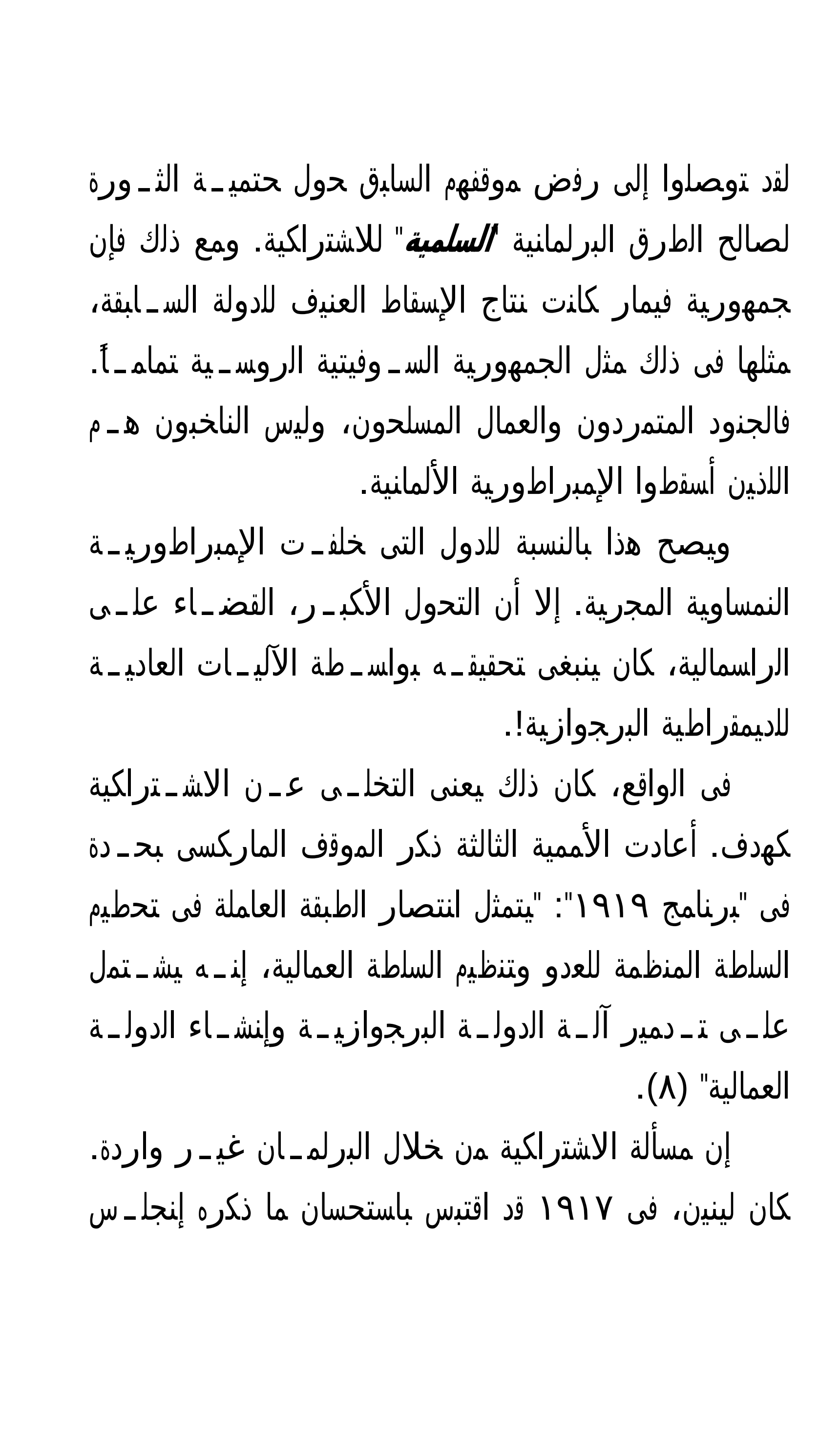


سوفييتات أم برلمان ؟. عقب ثورة أكتوبر، حل الحزب الشيوعى الروسى الجمعية التأسيسية المنتخبة حديثاً، التى كان لحزب الاشتراكيين الثوريين الأغلبية فيها، لصالح السلطة السوفيتية. ولكن عقب ثورة نوفمبر، حل الحزب الاشتراكى الألمانى مجالس العمال والجنود التى كان لديها أغلبية فيها، لصالح الجمعية الوطنية التى لم تكن له أغلبية فيها.

فى الحالتين، كانت مسألة الأشكال الدستورية فى الحقيقة مسألة سلطة طبقية. كانت نتيجة تصرف الحزب الشيوعى الروسى هى خلق دولة عمالية. وكانت نتيجة تصرف الحزب الاشتراكى الألمانى هى خلق دولة برجوازية، جمهورية "فيمار".

كان ماركس قد كتب، عقب كومونة باريس، أنه "خلال الانتقال من الرأسمالية إلى الاشتراكية، شكل الدولة لا يمكن إلا أن يكون الديكتاتورية الثورية للبروليتاريا".

لقد توصل الاشتراكيون الديمقراطيون، فى الممارسة، إلى رفض جوهر النظرية الماركسية حول الدولة، وهو أن جميع الدول هى دول طبقية، وأن ليست هناك دولة "***محايدة***".



لقد توصلوا إلى رفض موقفهم السابق حول حتميـة الثـورة لصالح الطرق البرلمانية "***السلمية***" للاشتراكية. ومع ذلك فإن جمهورية فيمار كانت نتاج الإسقاط العنيف للدولة السـابقة، مثلها فى ذلك مثل الجمهورية السـوفيتية الروسـية تمامـاً. فالجنود المتمردون والعمال المسلحون، وليس الناخبون هـم الذين أسقطوا الإمبراطورية الألمانية.

ويصح هذا بالنسبة للدول التى خلفـت الإمبراطوريـة النمساوية المجرية. إلا أن التحول الأكبـر، القضـاء علـى الراسمالية، كان ينبغى تحقيقـه بواسـطة الآليـات العاديـة للديمقراطية البرجوازية!.

فى الواقع، كان ذلك يعنى التخلـى عـن الاشـتراكية كهدف. أعادت الأممية الثالثة ذكر الموقف الماركسى بحـدة فى "برنامج ١٩١٩": "يتمثل انتصار الطبقة العاملة فى تحطيم السلطة المنظمة للعدو وتنظيم السلطة العمالية، إنـه يشـتمل علـى تـدمير آلـة الدولـة البرجوازيـة وإنشـاء الدولـة العمالية" (٨).

إن مسألة الاشتراكية من خلال البرلمـان غيـر واردة. كان لينين، فى ١٩١٧ قد اقتبس باستحسان ما ذكره إنجلـس

عن أن "الاقتراع العام هو مؤشر على نضج الطبقة العاملة لا يمكن له أن يكون ولن يكون أبداً أى شئ أكثر من ذلك فـى دولة حديثة" (٩)، "لم تكن أية جمهورية برجوازيـة فـى أى وقت، مهما كانت ديمقراطية، ولا كان ممكناً لها أن تكون أى شئ غير آلة لقمع الجماهير العاملة بواسـطة رأس المـال، وأداة الديكتاتورية البرجوازيـة، الحكـم الأساسـى لـرأس المال" (١٠).

هكذا كتب لينـين عقـب مـؤتمر موسـكو مباشـرة. الجمهورية العمالية، القائمة على أساس المجـالس العماليـة، كانت ديمقراطية حقاً.

"جوهر السلطة السوفيتية يتمثل فى هـذا، أن الأسـاس الدائم والوحيد لسلطة الدولة بأسرها، لجهاز الدولة كله، هـو التنظيم الجماهيرى لتلـك الطبقـات التـى طغـى عليهـا الرأسماليون، أى العمال وأنصاف العمال (الفلاحون الذين لا يستغلون العمل)" (١١).

لقد كانت روسيا بعيدة عن هذا المثـال، حتـى فـى ١٩١٩، إلا أن الانحرافات تم تفسيرها بتخلف البلد، والحرب الأهلية التى كانت لا تزال محتدمة والتدخل الأجنبى.

أيد تروتسكى آنذاك، وحتى يوم وفاته جميع هذه الأفكار دون أدنى تحفظ. لقد كان متفقاً مع لينين حول مسألة الديمقراطية البرجوازية والإصلاحية فى ١٩١٩، ولم يغير رأيه أبداً.

أنشأ المندوبون المجتمعون فى موسكو الأممية الجديدة على أساس التمسك الشديد بالأممية، والانفصال الحاسم والنهائي عن خونة ١٩١٤، والسلطة العمالية، والمجالس العمالية، والدفاع عن الجمهورية السوفيتية، وأفق الثورة فى المستقبل القريب فى أوروبا الوسطى والغربية. كانت المشكلة الآن هى خلق الأحزاب الجماهيرية التى تستطيع جعل كل هذا حقيقة.

الوسطية واليسارية المتطرفة

"إن أحزاباً وجماعات التحقت حديثاً بالأممية الثانية تتقدم لعضوية الأممية الثالثة بشكل متزايد، رغم أنها لم تصبح شيوعية حقاً .. إن الأممية الشيوعية إلى حد ما، قد أصبحت موضة .. فى بعض الظروف، قد تواجه الأممية الشيوعية خطر ضعف نقائها من خلال تدفق مجموعات متذبذبة

ومترددة لم تمارس قطعاً بعـد، مـع أيديولوجيـة الأمميـة الثانية" (١٢).

هكذا كتب لينين فـى يوليـو ١٩٢٠، إن افتـراض مؤتمر ١٩١٩ للكومنترن أن حركة ثورية جماهيرية حقيقيـة كانت موجودة فى أوروبا قد تبينت صحته فى السنة التالية.

فى سبتمبر ١٩١٩ صوت مؤتمر بولونيـا للحـزب الاشتراكى الإيطالي بأغلبية كبيرة بناء على توصـية لجنتـه التنفيذية، لصالح الالتحاق بالأممية الشيوعية. وأكـد حـزب العمال النرويجي التحاقه، كما انضمت إليها أيضا الأحـزاب البلغاري واليوغوسلافي (الصربي سابقا) والروماني. كانت الأحزاب الثلاثة الأولى منظمـات هامـة فحـزب العمـال النرويجي – الذي كان قائما على أساس الالتحـاق النقـابي، مثل نظيره البريطاني – كان يسيطر على اليسار النرويجي ، كما كان الحزب الشيوعي البلغاري يتمتع بتأييد الطبقة العاملة البلغارية بأسرها فعليا، منذ البداية. أما الحـزب الشـيوعى اليوجوسلافي، فقد نال ٥٤ مقعداً فى الانتخابات الحرة الأولى (والوحيدة) التى جرت فى الدولة الجديدة. فى فرنسا، كـان الحزب الاشتراكى، الذى زادت عضويته بأكثر من الضعف،

من ٩٠ ألف إلى ٢٠٠ ألف بين ١٩١٨ و ١٩٢٠، كان قـد سار بعيداً نحو اليسار، وكان يغازل موسكو. وهكـذا كـان الأمر بالنسبة للاشتراكيين الديمقراطيين المستقلين الألمـان، وهى منظمة كانت تكسب مزيداً من الأرض بسـرعة علـى حساب الحزب الاشتراكى الديمقراطي. كما سار على نفـس الخط بالأسـاس الاشـتراكيون الـديمقراطيون اليسـاريون السويديون، والجناح اليساري التشيكوسـلوفاكي. وأحـزاب أصغر فى بلاد أخـرى (منهـا حـزب العمـال المسـتقل البريطانى). لقد كان ضغط قواعدهم يجبرهم علـى إعـلان الولاء اللفظي لثورة أكتوبر والتفاوض علـى القبـول فـى الأممية الشيوعية. "إن رغبة جماعات (وسطية) بارزة فـى الانضمام للأممية الثالثة". هكذا كتب لينين، "توفر تأكيدا غير مباشر علي أنها (الأممية الثالثة) قـد اكتسـبت تعـاطف الغالبية العظمى من العمال ذوي العي الطبقي في جميع أنحاء العالم،وأنها تصبح قوة أكبر مع كل يوم".(١٣)

إلا أن هذه الأحـزاب لـم تكـن منظمـات شـيوعية ثورية.كان تراثهم هو تراث اشتراكية ديمقراطية مـا قبـل الحرب.الثورية بالكلمات،والسلبية في الممارسة.وكان يقودها

رجال مستعدون للقيام بأى التواء أو دوران من أجل استمرار سيطرتهم ومنع إقرار استراتيجية وتكتيك ثوري أصيل.

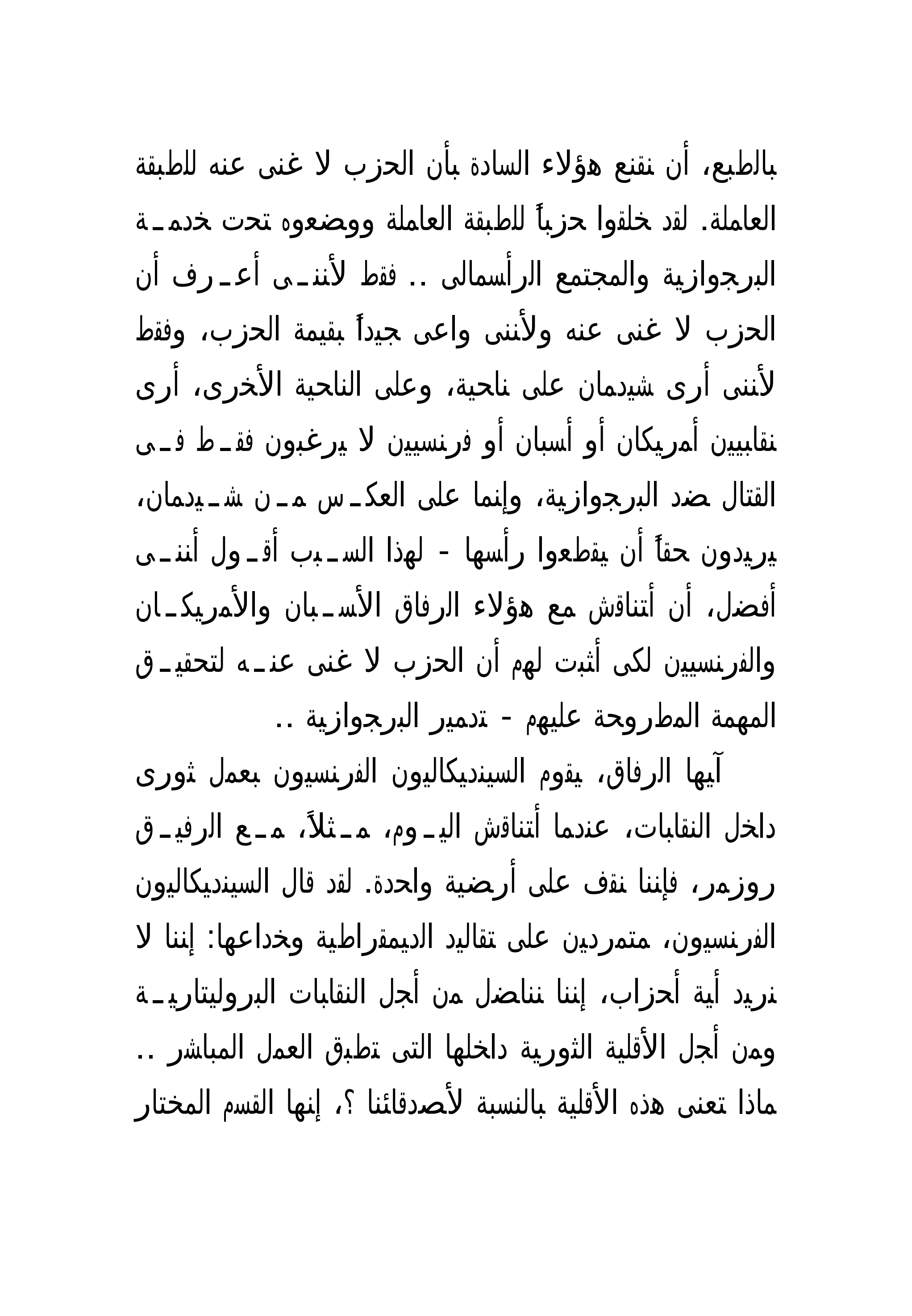
بدون كتلة الأعضاء الخاصة بتلك الأحزاب، لم يكن للأممية الجديدة أن تأمل فى ممارسة تأثير حاسم فى أوروبـا فى المدى القصير. وبدون قطع مع القادة الوسطيين لم يكـن لها أن تأمل فى ممارسة تأثير ثورى. ولـم يكـن الوضـع مختلفاً كثيراً بالنسبة للأحزاب الجماهيرية التى كانت داخـل الأممية بالفعل. فالحزب الاشتراكى الإيطالى، علـى سـبيل المثال، كان فـى داخـل قيادتـه وسـطيون بـل وبعـض الإصلاحيين على طول الخط.

لقد تعقد الصراع ضد الوسطية بفعل عامل أخر. لقد تواجدت قيادات يسارية متطرفة قويـة داخـل كثيـر مـن المنظمات الشيوعية وخارج هذه المنظمات كانت هناك بعض المنظمات النقابية "***السنديكالية***" التى كانت قد اقتربـت مـن الأممية الثالثة، إلا أنها كانت لا تزال ترفض الحاجـة إلـى الحزب الشيوعى. لقد كان كسب ودمج هذه القـوى الكبيـرة عملية صعبة ومعقدة. لقد اقتضت صـراعاً علـى جبهـات مختلفة عديدة.

كانت قرارات المؤتمر الثانى ذات أهمية جوهرية. بمعنى ما: كان هذا هو المؤتمر التأسيسى الحقيقى. وقد جرى أثناء أوج الحرب مع بولندا، عندما كان الجيش الأحمر يقترب من وارسو. وفى ألمانيا، كان عمل الطبقة العاملة الجماهيرى قد احبط فى التو محاولة لإقامة ديكتاتورية عسكرية. وفى إيطاليا، كان احتلال المصانع على وشك الابتداء. كان مزاج التفاؤل الثورى أقوى من أى وقت سابق. أعلن زينوفييف، رئيس الأممية: *"إننى مقتنع بعمق بأن المؤتمر العالمى الثانى للأممية الشيوعية هو تمهيد لمؤتمر عالمى أخر، المؤتمر العالمى للجمهوريات السوفيتية"* (١٤).

لم تكن هناك حاجة إلا لأحزاب شيوعية جماهيرية حقيقية، تقود الحركة إلى النصر. كان أهم تدخلات تروتسكى فى المؤتمر متعلقاً بطبيعة مثل هذه الأحزاب.

"آيها الرفاق قد يبدو من الغريب حقاً أنه بعد ثلاثة أرباع قرن من ظهور البيان الشيوعى، فإن النقاش يثور فى مؤتمر شيوعى أممى، حول ما إذا كان الحزب ضرورياً أم لا .. من البديهى أننا إذا كنا نتعامل مع السادة شيدمان أو كاوتسكى أو شركائهم فى الفكر الانجليزى، فإنه لن يكون ضرورياً



بالطبع، أن نقنع هؤلاء السادة بأن الحزب لا غنى عنه للطبقة العاملة. لقد خلقوا حزباً للطبقة العاملة ووضعوه تحت خدمة البرجوازية والمجتمع الرأسمالى .. فقط لأننى أعرف أن الحزب لا غنى عنه ولأننى واعى جيداً بقيمة الحزب، وفقط لأننى أرى شيدمان على ناحية، وعلى الناحية الأخرى، أرى نقابيين أمريكان أو أسبان أو فرنسيين لا يرغبون فقط فى القتال ضد البرجوازية، وإنما على العكس من شيدمان، يريدون حقاً أن يقطعوا رأسها - لهذا السبب أقول أننى أفضل، أن أتناقش مع هؤلاء الرفاق الأسبان والأمريكان والفرنسيين لكى أثبت لهم أن الحزب لا غنى عنه لتحقيق المهمة المطروحة عليهم - تدمير البرجوازية ..

آيها الرفاق، يقوم السينديكاليون الفرنسيون بعمل ثورى داخل النقابات، عندما أتناقش اليوم، مثلاً، مع الرفيق روزمر، فإننا نقف على أرضية واحدة. لقد قال السينديكاليون الفرنسيون، متمردين على تقاليد الديمقراطية وخداعها: إننا لا نريد أية أحزاب، إننا نناضل من أجل النقابات البروليتارية ومن أجل الأقلية الثورية داخلها التى تطبق العمل المباشر .. ماذا تعنى هذه الأقلية بالنسبة لأصدقائنا ؟، إنها القسم المختار

من الطبقة العاملة الفرنسية، قسم له برنامج واضح ومنظمـة خاصة به، منظمة يناقشون فيها كل الأسئلة ولا يناقشون فقط وإنما يقررون أيضاً، وهى منظمة يلتزمون فيها بنظام معين" (١٥).

طرح تروتسكى أن تلك كانت جذور المسألة. كـان النقابيون الثوريون أقرب كثيراً إلى تكوين حزب شيوعى من الوسطيين الذين أخذوا فكرة الحزب كأمر مفروغ منـه. لـم يكن الموقف السينديكالى سليماً تماماً، كان من اللازم إضافة شئ "***مستودع .. يركز التجربة الكاملـة المتراكمـة لـدى الطبقة العاملة. هكذا نفهم حزبنـا. هكـذا نفهـم منظمتنـا الأممية***" (١٦).

لم يكن من الممكن أن تكون منظمة دعائية بالأساس. أثناء حديثه أمام اللجنة التنفيذية للأممية الشيوعية فى مواجهة اليسارى المتطرف الهولندى جورتر الذى كـان قـد اتهـم الأممية الثالثة بـ "***ملاحقة الجماهير***" أعلن تروتسكى:

"ماذا يقترح الرفيق جورتر ؟ ماذا يريد ؟ الدعاية ! هذه خلاصة منهجه كله. يقول الرفيق جورتر أن الثورة ليسـت متوقفة لا على الحرمان ولا على الظروف الاقتصادية وإنما

على الوعى الجماهيرى، فإن الوعى الجماهيرى بدوره تشكله الدعاية. الدعاية هنا ينظر إليها بطريقة مثالية تماماً، قريبة جداً من مفهوم مدرسة التنوير والعقلانية فى القرن الثامن عشر .. إن ما تريد عمله الآن هو بمثابة استبدال للتطور الديناميكى للأممية بوسائل التجنيد الفردى للعمال من خلال الدعاية. إنك تريد نوعاً من الأممية النقية المكونة من المختارين" (١٧).

النوع السلبى، الدعائى، من اليسارية المتطرفة، لم يكن هو الشكل الوحيد الممثل فى الكومنترن فى بداياته. فى ١٩٢١ نمت نزعه انقلابية فى قيادة الحزب الألمانى. فى مارس من هذا العام، وفى غياب حالة ثورية على المستوى الوطنى (محلياً، فى أجزاء من ألمانيا الوسطى، كان يوجد ما يشبه حالة ثورية) حاولت قيادة الحزب أن تدفع معدل السرعة، أن تستبدل حركة جماهيرية حقيقية بمناضلى الحزب .. كانت نتيجة "***عمل مارس***" هذا هزيمة خطيرة. انخفضت عضوية الحزب من حوالى ٣٥٠ ألف إلى حوالى ١٥٠ ألف وقد استخدمت "نظرية الهجوم" لتبرير تكتيك الحزب الشيوعى الألمانى.

"تم تقديم ما يسمى بنظرية الهجوم، ما هى خلاصة هذه النظرية ؟. خلاصتها هى أننا دخلنا عصر تفسـخ المجتمـع الرأسمالى، أى بكلمات أخرى، العصر الذى يجب فيه إسقاط البرجوازية. كيف ؟. عن طريق هجوم الطبقة العاملة، علـى هذا الشكل المجرد تماماً، فإن النظرية سليمة بلا شك. إلا أن بعض الأفراد سعوا إلى تحويل هذا الرأسمال النظـرى إلـى عملة مقابلة تتكون من مقامات أصـغر، وأعلنـوا أن هـذا الهجوم يتكون من عدد متوالى من الهجمات الأصغر".

هكذا لاحظ تروتسكى فى خطاب فى صيف ١٩٢١، وقد أضاف:

"ايها الرفاق، إن تشبيه الصراع السياسى للطبقة العاملة بالعمليات العسكرية، قد أسئ استخدامه كثيراً. ولكن إلى حد معين يمكن للمرء أن يتحدث هنا عن تشابه مـن النـواحى العسكرية، نحن أيضاً كان لدينا (أيام مـارس). إذا تحـدثنا الألمانية، و(أيام سبتمبر) إذا تحدثنا الإيطالية (الإشارة إلـى فشل الحزب الاشتراكى الإيطالى فى استغلال الأزمة الثورية فى سبتمبر ١٩٢٠). ماذا يحدث بعد هزيمة جزئية ؟. يقـع بعد الاختلال فى الجهاز العسكرى، وينشأ بعض الاحتياج إلى

فكرة التقاط الأنفاس، احتياج لإعادة التوجيه، وتقدير أكثر دقة للقوى المتقابلة: أحياناً لا يكون كل هذا ممكناً إلا فى ظروف تراجع استراتيجى، ولكن لكى نفهم هذا جيداً، لكى نرى فـى الحركة إلى الوراء، فى التراجع جزءاً من خطة اسـتراتيجية موحدة، فمن الضرورى توفر خبرة معينة .. ولكن إذا فكـر المرء بشكل مجرد تماماً وأصر على الحركة للأمام دائماً .. على أساس أن كل شئ يمكن تجاوزه عن طريق نفحه إرادية إضافية، فآية نتائج إذاً يحصل عليها المرء ؟. دعونـا نأخـذ على سبيل المثال أحداث سبتمبر فى إيطاليا، أحداث مـارس فى ألمانيا. يقال لنا أن الحالة فى هـذين البلـدين لا يمكـن علاجها إلا بهجوم جديد .. فى ظل هذه الظروف، فإن هذا قد يجعلنا نلقى هزيمة أكبر وأخطر كثيراً. لا يـا رفـاق، بعـد هزيمة كهذه يجب أن نتراجع" (١٨).

الجبهة الموحدة

والواقع أنه بحلـول صـيف ١٩٢١ كانـت قيـادة الكومنترن قد قررت أن تراجعاً اسـتراتيجياً بمعنـى أكثـر عمومية كان ضرورياً. كتب تروتسكى فى البرافدا فى يونيو:

"فى السنة الأكثر حرجاً للبرجوازية سنة ١٩١٩ كانـت بروليتاريا أوروبا قادرة بلا شك على الاستيلاء على السلطة بالحد الأدنى من التضحيات، لو كان هناك على رأسها حزب ثورى أصيل، يطرح أهدافاً واضحة ويكون قادراً على السير نحو تحقيقها، أى حزب شيوعى قوى. ولكن لم يكن هناك أى حزب على هذا النحو .. أثناء السنوات الثلاث الأخيرة قاتـل العمال كثيراً وعانوا كثيراً من تضحيات كبيرة ولكـنهم لـم يكسبوا السلطة. نتيجة لذلك، أصبحت الجماهير العمالية أكثر حذراً منها فى ١٩١٩ - ١٩٢٠" (١٩).

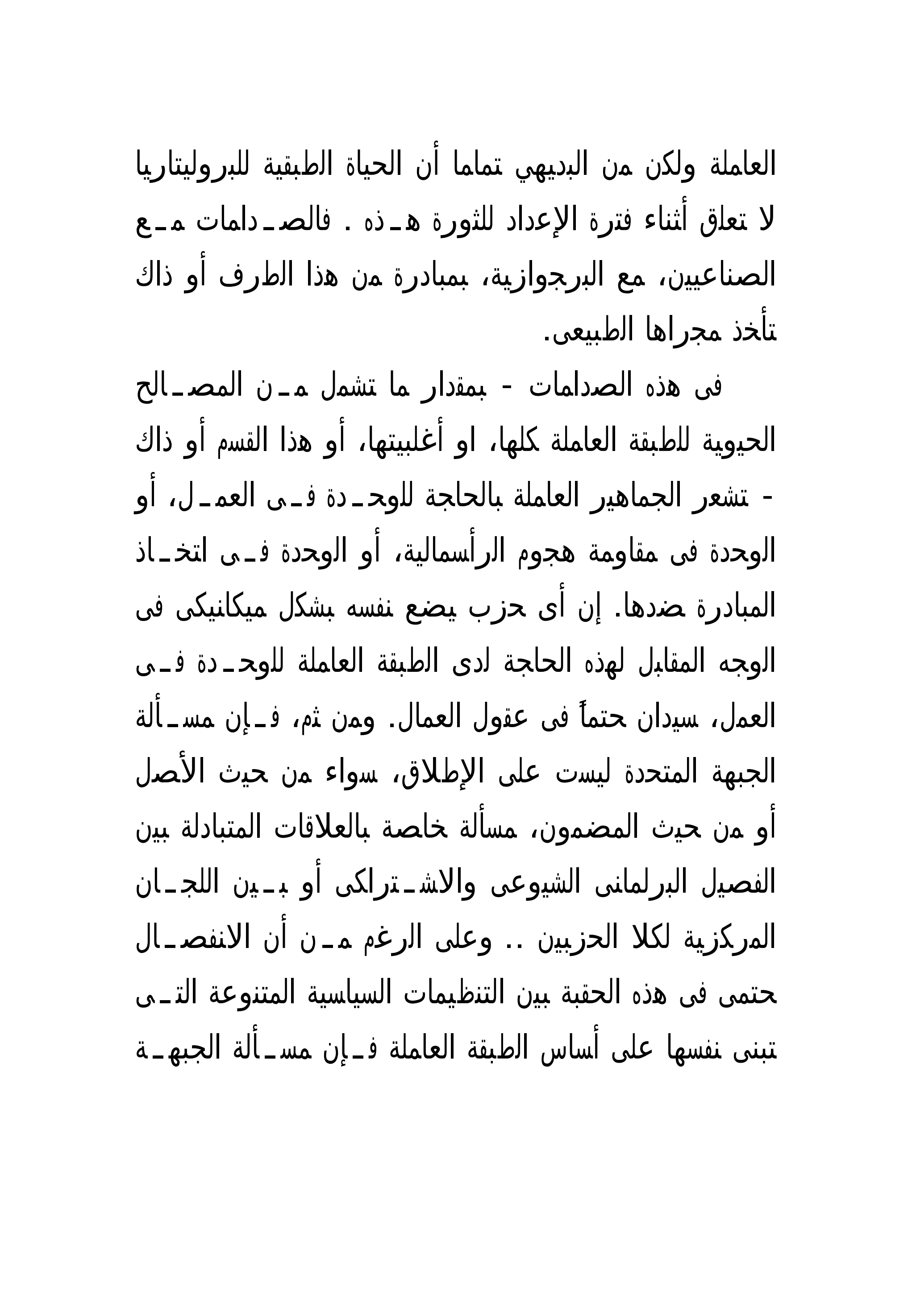
تم التعبير عن نفس الفكر فـى "أطروحـات حـول الوضع العالمى" التى كتبها تروتسـكى وتـم إقرارهـا فـى المؤتمر الثالث للكومنترن فى يوليو ١٩٢١:

"أثناء السنة التى مرت بين المؤتمرين الثـانى والثالـث للأممية الشيوعية، انتهت سلسلة من الانتفاضات والصراعات العمالية بهزائم جزئية (تقدم الجيش الأحمر إلى وارسو فـى أغسطس ١٩٢٠، إنتفاضة العمـال الألمـان فـى مـارس ١٩٢١). ويبدو أن الفترة الأولى لحركة مـا بعـد الحـرب الثورية، المتميزة بالطابع التلقائى لهجماتهـا وعـدم الدقـة

الواضح لأهدافها ووسائلها والذعر الشديد الذى أنشأته بـين الطبقات الحاكمة، قد انتهت جوهرياً. ولا شك أن الثقة بالنفس لدى البرجوازية كطبقة، والاسـتقرار الخـارجى لأجهـزة دولتها، قد زادا قوة .. بل أن قادة البرجوازية يتباهون بقـوة أجهزة دولهم وانتقلوا إلى الهجوم ضد العمال فى كل الـبلاد سواء على الجبهة الاقتصادية أو السياسية" (٢٠).

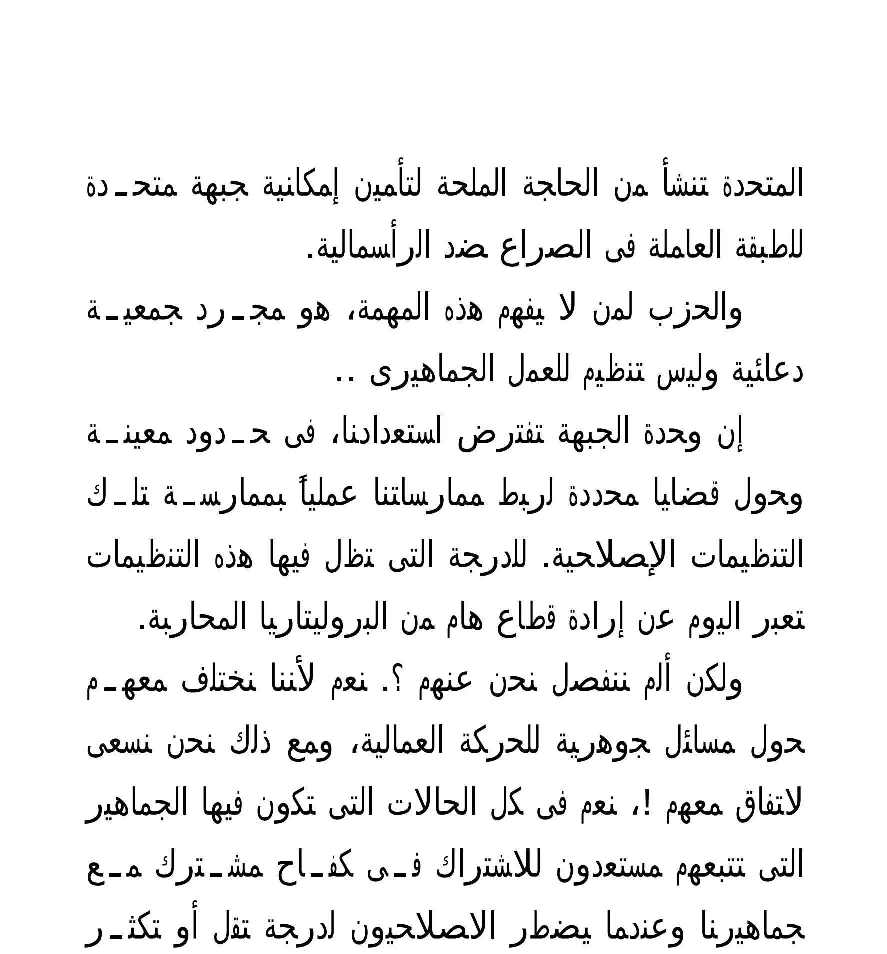
بعد انتهاء المؤتمر بقليل، بـدأت اللجنـة التنفيذيـة للأممية الشيوعية تضغط على الأحزاب لتحويل التركيز فـى عملها على الجبهة المتحدة. وقد لخص تروتسكى بوضـوح شديد جوهر هذا السبيل فى أوائل ١٩٢٢:

"إن مهمة الحزب الشيوعى هى قيادة الثورة البروليتارية .. لتحقيقها ينبغى للحزب الشيوعى أن تكون قاعدته الغالبيـة الساحقة للطبقة العاملة، لا يستطيع الحزب تحقيـق هـذا إلا بالبقاء كمنظمة مستقلة تماماً لها برنامج واضح ونظام داخلى صارم. ولهذا لم يكن هناك مفر من قيـام الحـزب بقطـع أيديولوجي مع الإصلاحيين والوسطيين. وبعـد أن يضـمن لنفسه الاستقلال الكامل والتجانس الأيديولوجي لقواعده فـإن الحزب الشيوعي يناضل من أجل التأثير على غالبية الطبقـة



العاملة ولكن من البديهي تماما أن الحياة الطبقية للبروليتاريا لا تعلق أثناء فترة الإعداد للثورة هذه . فالصدامات مع الصناعيين، مع البرجوازية، بمبادرة من هذا الطرف أو ذاك تأخذ مجراها الطبيعى.

فى هذه الصدامات - بمقدار ما تشمل من المصالح الحيوية للطبقة العاملة كلها، او أغلبيتها، أو هذا القسم أو ذاك - تشعر الجماهير العاملة بالحاجة للوحدة فى العمل، أو الوحدة فى مقاومة هجوم الرأسمالية، أو الوحدة فى اتخاذ المبادرة ضدها. إن أى حزب يضع نفسه بشكل ميكانيكى فى الوجه المقابل لهذه الحاجة لدى الطبقة العاملة للوحدة فى العمل، سيدان حتماً فى عقول العمال. ومن ثم، فإن مسألة الجبهة المتحدة ليست على الإطلاق، سواء من حيث الأصل أو من حيث المضمون، مسألة خاصة بالعلاقات المتبادلة بين الفصيل البرلمانى الشيوعى والاشتراكى أو بين اللجان المركزية لكلا الحزبين .. وعلى الرغم من أن الانفصال حتمى فى هذه الحقبة بين التنظيمات السياسية المتنوعة التى تبنى نفسها على أساس الطبقة العاملة فإن مسألة الجبهة



المتحدة تنشأ من الحاجة الملحة لتأمين إمكانية جبهة متحـدة للطبقة العاملة فى الصراع ضد الرأسمالية.

والحزب لمن لا يفهم هذه المهمة، هو مجـرد جمعيـة دعائية وليس تنظيم للعمل الجماهيرى ..

إن وحدة الجبهة تفترض استعدادنا، فى حـدود معينـة وحول قضايا محددة لربط ممارساتنا عملياً بممارسـة تلـك التنظيمات الإصلاحية. للدرجة التى تظل فيها هذه التنظيمات تعبر اليوم عن إرادة قطاع هام من البروليتاريا المحاربة.

ولكن ألم ننفصل نحن عنهم ؟. نعم لأننا نختلف معهـم حول مسائل جوهرية للحركة العمالية، ومع ذلك نحن نسعى لاتفاق معهم !، نعم فى كل الحالات التى تكون فيها الجماهير التى تتبعهم مستعدون للاشتراك فـى كفـاح مشـترك مـع جماهيرنا وعندما يضطر الاصلاحيون لدرجة تقل أو تكثـر أن يصبحوا أداة لهذا الكفاح ..

إن سياسة تستهدف تأمين جبهة متحدة لا تتضمن بالطبع ضمانات أوتوماتيكية على أن تلك الوحدة ستتحقق فـى كـل الظروف على العكس، ففى حالات كثيرة بل من المحتمل فى غالبية الحالات ستكون الاتفاقات التنظيمية نصف محققـه أو

غير محققة على الإطلاق. ولكن من الضرورى أن تعطـى الجماهير المكافحة دائماً الفرصة لإقناع أنفسهم بـأن عـدم تحقيق الوحدة فى الممارسة لم يكن نتيجة لتضـاد شـكلى لا يمكن حله، ولكن كان نتيجة غياب إرادة حقيقية للنضال لدى الإصلاحيين" (٢١).

كان المؤتمر الرابع للكومنترن ١٩٢٢ والذى اهـتم أساساً بمسألة الجبهة المتحدة، هو الأخير الذى حضره لينـين والأخير الذى اعتبـر تروتسـكى قراراتـه صـحيحه فـى جوهرها. وبعد ذلك بعشرة أعوام وفى بيان المبادئ الأساسية طرح تروتسكى موقفـه مـن قـرارات المـؤتمر الأولـى للكومنترن:

"تقف المعارضـة اليسـارية الأمميـة علـى أرضـية المؤتمرات الأربعة الأولى للكومنترن. وهذا لا يعنـى أنهـا تنحنى أمام كل حرف من قراراتها، فكثير من هذه القرارات كان لها طابع لحظى وقد نقضتها الأحداث التالية. ولكن كـل المبادئ الأساسية (بخصوص الإمبريالية والدولة البرجوازية والديمقراطية والإصلاحية ومسائل الانتفاضـة وديكتاتوريـة البروليتاريا والعلاقة مع الفلاحـين والقوميـات المضـطهدة

والعمل فى النقابات والبرلمانية وسياسة الجبهة المتحدة) كـل هذه المبادئ تظل حتى اليوم أعلـى تعبيـر للإسـتراتيجية البروليتارية فى حقبة الأزمة العامـة للرأسـمالية. تـرفض المعارضة اليسارية القرارات التحريفيـة للمـؤتمر الأممـى الخامس والسادس (١٩٢٤ - ١٩٢٨)" (٢٢).

شهد عام ١٩٢٣ ظهور الحكـم الثلاثـى لسـتالين وزينوفييف وكامينيف من جهة، والمعارضة اليسـارية مـن الجهة الأخرى. وشهد نفس العـام فـى أوروبـا هـزيمتين كبيرتين للكومنترن. ففى يوليـة تبنـى الحـزب الشـيوعى البلغارى، وهو حزب جماهيرى يتمتع بتأييد الطبقة العاملـة بأكملها تقريباً سياسة سلبية تماماً فى مواجهة الانقلاب اليمينى ضد حكومة الحزب الفلاحى. وبعد ذلك، بعد تدمير النظـام البرجوازى الديمقراطى وتكوين حكم عسـكرى ديكتـاتورى وإرهاب الجماهير، شن الحزب يوم ٢٢ سـبتمبر إنتفاضـة مفاجئة بدون أى تحضير سياسى جاد. كانت النتيجـة هـى تدمير الانتفاضة وبداية فترة إرهاب أبيض متوحش.

وفى ألمانيا حـدثت أزمـة اقتصـادية واجتماعيـة وسياسية عميقة، وكان السبب فيها هو الاحـتلال الفرنسـى

لمنطقة "***الرو***"، والتضخم الفلكى الذى جعل النقود فعلياً بـلا قيمة. "***كان الوضع الألمانى فى خريف ١٩٢٣ اكثر يأساً من أى وقت منذ ١٩١٩ والبؤس أكبر، والأمل فـى المسـتقبل أضعف" (٢٣)***. وتم التخطيط لانتفاضة فى أكتـوبر بعـد أن كان الحزب الشيوعى قـد شـكل حكومـة ائتلافيـة مـع الاشتراكيين الديمقراطيين فى سكسونيا، ولكـن الخطـة تـم إلغائها فى اللحظة الأخيرة (فى هامبورج لـم يصـل قـرار الإلغاء فى الوقت المناسب وحدثت انتفاضة معزولـة وتـم تحطيمها بعد يومين)

رأى تروتسكى أن فرصة تاريخية قد ضيعت. ومنذ ذلك الوقت أصبحت سياسة الكومنترن تشكل بشكل متزايد فى البداية على أساس احتياجات جناح سـتالين فـى الصـراع الداخلى للحزب فى الاتحاد السوفيتى ثم بعد ذلك على أساس احتياجات السياسة الخارجية لحكومة ستالين.

وبعد انحراف "***يسارى***" قصـير فـى ١٩٢٤، دفـع الكومنترن فى اتجاه يمينى واستمر حتى ١٩٢٨ ثم فى اتجاه يسارى متطرف (١٩٢٨ - ١٩٣٤)، وأخيراً دفع بشدة فـى إلى اليمين فى فترة الجبهة الشعبية (١٩٣٥ - ١٠٣٩). وقد

حال تروتسكى ونقد كل هذه المراحـل والتحـولات. ومـن الملائم تقديم نقده باستخدام ثلاثة نماذج.

اللجنة النقابية الأنجلو – سوفيتية:

بجانب الثورة الصينية (١٩٢٥ - ١٩٢٧) والتـى تـم تناولها، كانت سياسة الحزب الشيوعى البريطـانى (تحـت توجه الكومنترن) قبل وخلال الإضراب العام فى ١٩٢٦ هى أهم علامة على كارثية هذه التوجهات.

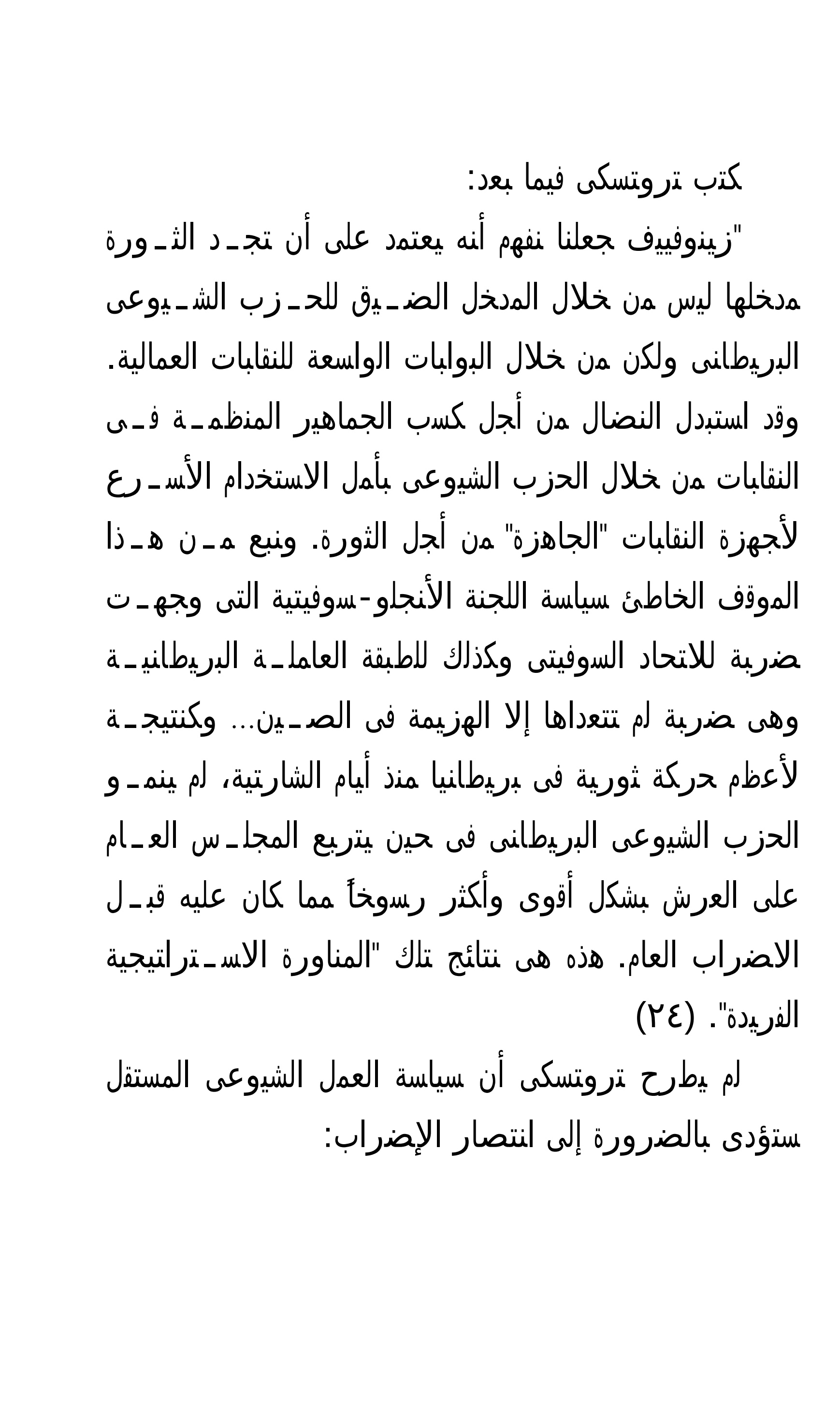
كان إضراب مايو ١٩٢٦ نقطة تحـول حاسـمة فـى التاريخ البريطانى وكان هزيمة أكيدة للطبقة العاملـة. وقـد أنهى هذا الإضراب فترة طويلة، وإن كانت متقطعـة، مـن النضالية العمالية وأدى إلى السيطرة طويلة الأجـل للجنـاح اليمينى فى النقابات بسياساته المتواطئة طبقياً وأدى هذا أيضاً إلى تقوية إصلاحية حزب العمال علـى حسـاب الحـزب الشيوعى.

كان المد فى الحركة النقابية فى ١٩٢٤-١٩٢٥ يتجـه يساراً. وكانت حركة الأقلية التى أنشأها الحـزب الشـيوعى عام ١٩٢٤ حول شعارات مثل " أوقفوا التراجع" و" العـودة

إلى النقابات" تزداد نفوذاً. وفى نفس الفترة ازداد نفوذ وتأثير مجموعة من القيادات اليسارية فى الحركة النقابية الرسـمية. وبدأ فى ربيع ١٩٢٥ مؤتمر النقابات العمالية فى التعاون مع اتحاد النقابات العمالية السوفيتية من خلال **اللجنة الأنجلـو-سوفيتية الاستشارية المشتركة.** وقد أعطى ذلـك أعضـاء المجلس العام نوع من الرداء

" الثورى" وغطاءاً ضد الانتقادات من اليسار.

كان جوهر نقد تروتسكى هـو أن الحـزب الشـيوعى البريطانى كان، بضغط من موسكو، يقوم ببنـاء الثقـة فـى هؤلاء البيروقراطيين اليساريين (كان الشـعار المركـزى للحزب الشيوعى هو كل السلطة للمجلس العام) الذين كـانوا بالضرورة سيخونون الحركة فى اللحظة الحاسمة (وهذا ما فعلوه بالطبع) وهذا بدلاً من أن تقوم كوادر الحزب بالبنـاء بشكل مستقل داخل القواعد باستخدام أى إطار يوفره النقابيون اليساريون، ولكن ، دون الاعتماد علـيهم وبـدون تشـجيع القيادات القاعدية على الاعتماد عليهم، بل على العكس التأكيد على أنهم سيخونون، والتحذير من هذه الخيانـة والتحضـير لها.



كتب تروتسكى فيما بعد:

"زينوفييف جعلنا نفهم أنه يعتمد على أن تجد الثورة مدخلها ليس من خلال المدخل الضيق للحزب الشيوعى البريطانى ولكن من خلال البوابات الواسعة للنقابات العمالية. وقد استبدل النضال من أجل كسب الجماهير المنظمة فى النقابات من خلال الحزب الشيوعى بأمل الاستخدام الأسرع لأجهزة النقابات "الجاهزة" من أجل الثورة. ونبع من هذا الموقف الخاطئ سياسة اللجنة الأنجلو-سوفيتية التى وجهت ضربة للاتحاد السوفيتى وكذلك للطبقة العاملة البريطانية وهى ضربة لم تتعداها إلا الهزيمة فى الصين... وكنتيجة لأعظم حركة ثورية فى بريطانيا منذ أيام الشارتية، لم ينمو الحزب الشيوعى البريطانى فى حين يتربع المجلس العام على العرش بشكل أقوى وأكثر رسوخاً مما كان عليه قبل الاضراب العام. هذه هى نتائج تلك "المناورة الاستراتيجية الفريدة". (٢٤)

لم يطرح تروتسكى أن سياسة العمل الشيوعى المستقل ستؤدى بالضرورة إلى انتصار الإضراب:

" لم يطرح أى ثورى يزن كلماتـه أن انتصـاراً كـان مؤكداً من خلال اتباع هذا الخط. ولكن انتصاراً كان ممكنـاً فقط عبر هذا الطريق. كما إن الهزيمة على هذا الطريق هى التى يمكن أن تؤدى فيما بعد إلى انتصار".(٢٥)

ولكن هذا الطريق:

" يبدو طـويلاً وغيـر مؤكـد لبيروقراطـى الأمميـة الشيوعية. وقد اعتبروا أنه من خلال التأثير الشخصى علـى أمثال "بورسل" و "هيكس" و "كوك" وآخرين... يمكن جـذبهم بالتدريج وبشكل غير ملحوظ إلى الأممية الشيوعية. ولضمان مثل هذا النجاح... كان يجب عدم إزعاج أو إقلاق الأصدقاء الأعزاء (بروسل وهيكس وكوك) وكان يجب اتخـاذ تـدبير راديكالى وهو إخضاع الحزب الشيوعى لحركـة الأقليـة... عرف الجماهير فقط بورسل وهيكس وكوك، الذين رشحتهم موسكو أيضاً، كقيادات لهذه الحركة.

هؤلاء الأصدقاء "اليساريون" قد خانوا البروليتاريا فـى الاختبار الجاد. وقد دخل العمال الثوريون فـى حالـة مـن التخبط وغرقوا فى حالة اللامبالاة وامتد بالطبع إحباطهم إلى الحزب الشيوعى الذى لم يكن سوى الجزء السلبى فـى آلـة

الخيانة والغدر. وقد انهارت حركة الأقلية، وإلى الصفر عاد الحزب الشيوعى إلى حلقة صغيرة يمكن تجاهلها". (٢٦)

إن الاعتماد على قيادات نقابية "يسـارية" لا زال أحـد الخصائص المميزة للإصلاحيين اليساريين عن الثوريين. ولا زال نقد تروتسكى ذا أهمية بالغة اليوم.

ألمانيا فى الفترة الثالثة:

بدأ المؤتمر العالمى السادس للكومنترن (صيف ١٩٢٨) كعملية رد فعل عنيفة للخط اليمينى فى فترة ١٩٢٤-١٩٢٨. وقد فرض خط يسارى متطرف ذا طبيعة بيروقراطية خاصة على الأحزاب الشيوعية فى كل مكان، بغض النظـر عـن الظروف المحلية. كان هذا الخط انعكاساً لبدء الخطة الخمسية الأولى وللتجميع القهرى فى الريف بالاتحاد السوفيتى، وقـد أعلن هذا الخط "الفترة الثالثة" كفترة من النضالات الثوريـة المتصاعدة.

كان هذا يعنى عملياً أنه فى الوقت الـذى كانـت فيـه الفاشية تشكل خطراً حقيقياً ومتنامياً، خاصة فى ألمانيا، تـم اعتبار الاشتراكيين الديمقراطيين بمثابة العدو الأساسى. وقد

أعلــن المــؤتمر العاشــر للكــومنترن عــام ١٩٢٩ أن: "تصبح الفاشية أكثر فأكثر المنهج المهيمن للحكم البرجوازى. وفى البلاد التى بها أحزاب اشتراكية ديمقراطية قوية تأخـذ الفاشية شكل " الفاشية الاجتماعية" والتى تخدم بشكل متزايـد البرجوازية كأداة لشل نشاط الجماهير فى النضال ضد نظام الديكتاتورية". (٢٧)

وقد استتبع ذلك أن سياسة الجبهة المتحدة كما كانت تفهم حتى ذلك الوقت كان يجب التخلص منها. لم يعد مطروحـاً محاولة إجبار الأحزاب الاشتراكية الديمقراطية الجماهيريـة والنقابات التى يسيطرون عليها للدخول فى جبهة متحدة ضد الفاشيين، فهم أنفسهم كانوا فاشيون اجتماعيون. حتى أضاف المؤتمر الحادي عشر للكومنترن أن الاشتراكية الديمقراطية " هل العامل المحرك لتطور الدولة الرأسمالية نحو الفاشـية" . (٢٨).

إن هـذا التحليـل الخـاطئ تمامـا لطبيعـة الفاشـية والاشتراكية الديمقراطية قد أدى إلـى افتـراض أن هنـاك إمكانية للتواجد المشترك " لأحزاب اشتراكية ديمقراطية قوية ، ونظام ديكتاتورية فاشية وأن مثل هذا الوضع كان موجوداً

بالفعل فى ألمانيا حتى قبل وصول هتلر للسلطة " والدليل أن حكومة "فون بابن شليخر" أسسـت فـى ألمانيـا بمسـاعدة "الرايخسفير" و "الشتالهلم" والنازيون شكل من الديكتاتوريـة الفاشية". (٢٩) هكذا طرح المؤتمر الثانى عشر للكـومنترن فى ١٩٣٢.

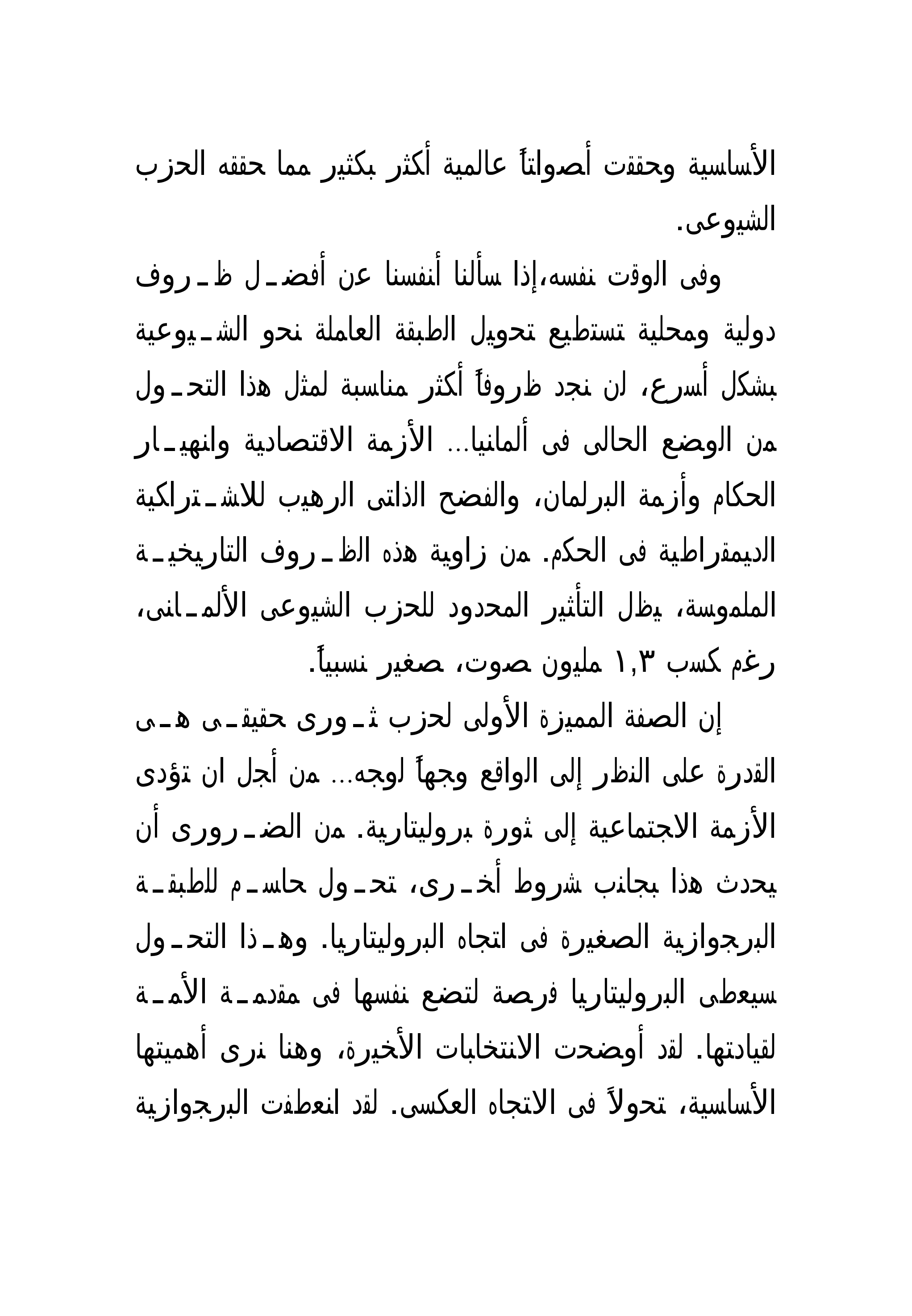
وقد كتب تروتسكى ضد هذا الغباء الإجرامى بإلحـاح وقلق متزايدين من ١٩٢٩ وحتى كارثة ١٩٣٣. وبلا شـك فإن براعة وقوة أعماله حول الأزمة الألمانية لم يتخطاها أى ماركسى.

إن الفكرة الأساسية فى كل هذه الكتابات هى ضـرورة "الجبهة العمالية المتحدة ضد الفاشية" وهو عنوان إحدى أشهر هذه الكتابات. ولكن الطرح كان أكثر تعقيداً من ذلك بكثيـر، وقد أجبر تروتسكى نفسه على المتابعة الدقيقة للاطروحـات العجيبة التى كان يطرحها الستالينيون الألمان دفاعاً عن مالا يمكن الدفاع عنه. وقد واجهت ودحضت كتاباته فـى هـذه الفترة تشكيلة متنوعة من الاطروحات شبه الماركسية، وفـى نفس الوقت شـرحت بوضـوح اسـتثنائى " أعلـى تعبيـر

للاستراتيجية البروليتارية" وسيمكننا فقط التعـرض لجـزء صغير من هذه الكتابات هنا:

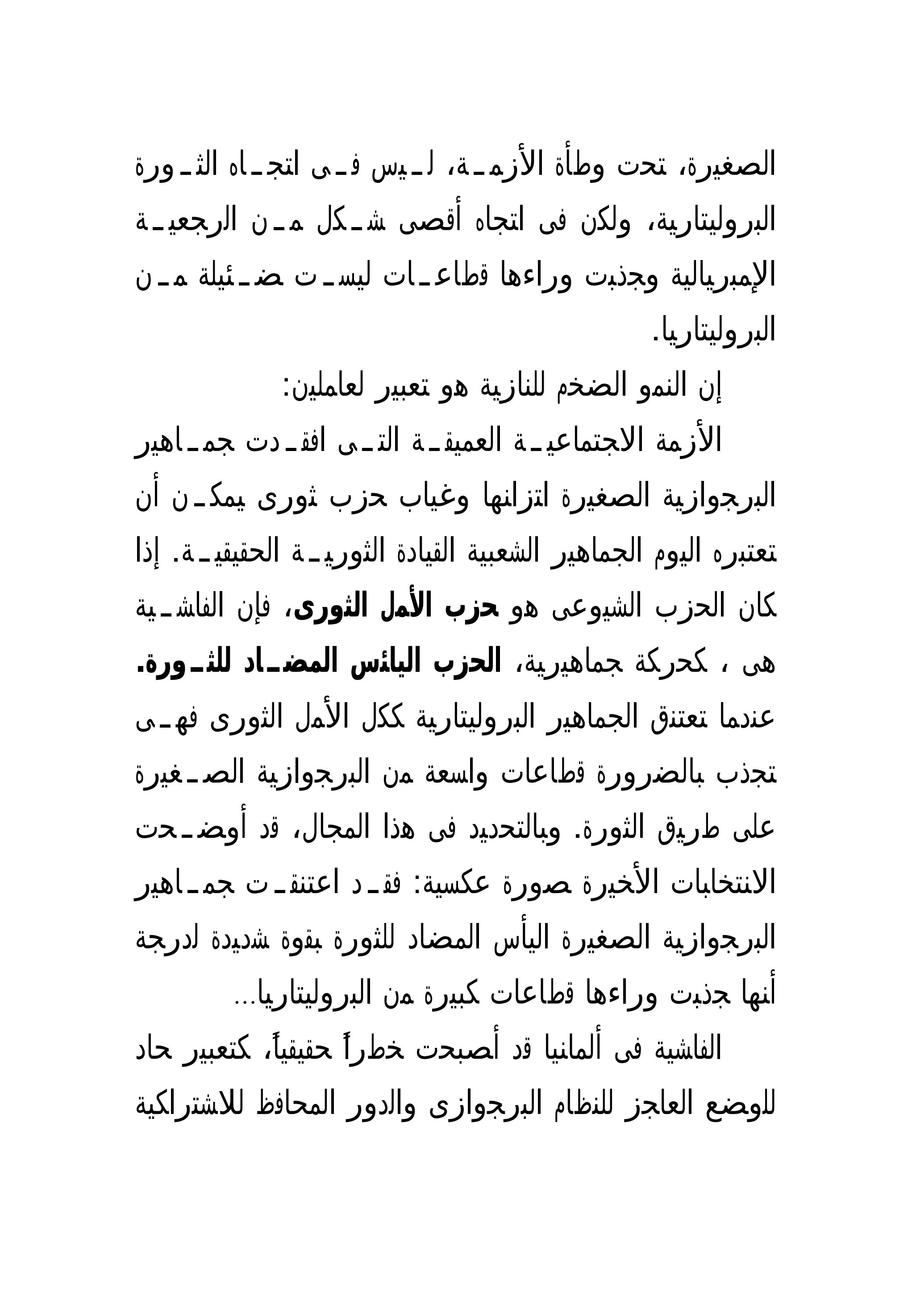
"تصور الصـحافة الرسـمية للكـومنترن الآن نتـائج الانتخابات الألمانية (سبتمبر ١٩٣٠) كأنها انتصـار عظـيم للشيوعية، والتى تطرح اليوم شعار ألمانيا السوفيتية كشـعار أدنى. إن المتفائلين البيروقراطيين لا يريدون التفكيـر فـى معنى علاقات القوة التى توضحها الإحصاءات الانتخابيـة، فهم ينظرون إلى أرقام الأصوات التى حققهـا الشـيوعيون بشكل مستقل عن المهام الثورية التى يخلقها الوضع الحـالى والعقبات التى يشكلها.

وقد حقق الحزب الشيوعى حوالى ٤,٦ مليون صـوت مقارنة بـ ٣,٣ مليون فى ١٩٢٨. من وجهة نظر الميكنـة البرلمانية "الطبيعية" مكسب ١,٣ مليون هو مكسـب جـدير بالإحترام حتى إذا أخذنا فى الاعتبار الزيادة فى العدد الكلـى للمصوتين. ولكن المكسب الذى حققه الحزب يصبح ضـئيلاً إذا ما قورن بقفزة الفاشية من ٨٠٠ ألف إلـى ٦,٤ مليـون صوت. واللافت للنظر أيضاً أن الاشـتراكية الديمقراطيـة وعلى الرغم من خسائر كبيرة، قد حافظت علـى كوادرهـا


الأساسية وحققت أصواتاً عالمية أكثر بكثير مما حققه الحزب الشيوعى.

وفى الوقت نفسه،إذا سألنا أنفسنا عن أفضل ظروف دولية ومحلية تستطيع تحويل الطبقة العاملة نحو الشيوعية بشكل أسرع، لن نجد ظروفاً أكثر مناسبة لمثل هذا التحول من الوضع الحالى فى ألمانيا... الأزمة الاقتصادية وانهيار الحكام وأزمة البرلمان، والفضح الذاتى الرهيب للاشتراكية الديمقراطية فى الحكم. من زاوية هذه الظروف التاريخية الملموسة، يظل التأثير المحدود للحزب الشيوعى الألمانى، رغم كسب ١,٣ مليون صوت، صغير نسبياً.

إن الصفة المميزة الأولى لحزب ثورى حقيقى هى القدرة على النظر إلى الواقع وجهاً لوجه... من أجل ان تؤدى الأزمة الاجتماعية إلى ثورة بروليتارية. من الضرورى أن يحدث هذا بجانب شروط أخرى، تحول حاسم للطبقة البرجوازية الصغيرة فى اتجاه البروليتاريا. وهذا التحول سيعطى البروليتاريا فرصة لتضع نفسها فى مقدمة الأمة لقيادتها. لقد أوضحت الانتخابات الأخيرة، وهنا نرى أهميتها الأساسية، تحولاً فى الاتجاه العكسى. لقد انعطفت البرجوازية



الصغيرة، تحت وطأة الأزمة، ليس فى اتجاه الثورة البروليتارية، ولكن فى اتجاه أقصى شكل من الرجعية الإمبريالية وجذبت وراءها قطاعات ليست ضئيلة من البروليتاريا.

إن النمو الضخم للنازية هو تعبير لعاملين:

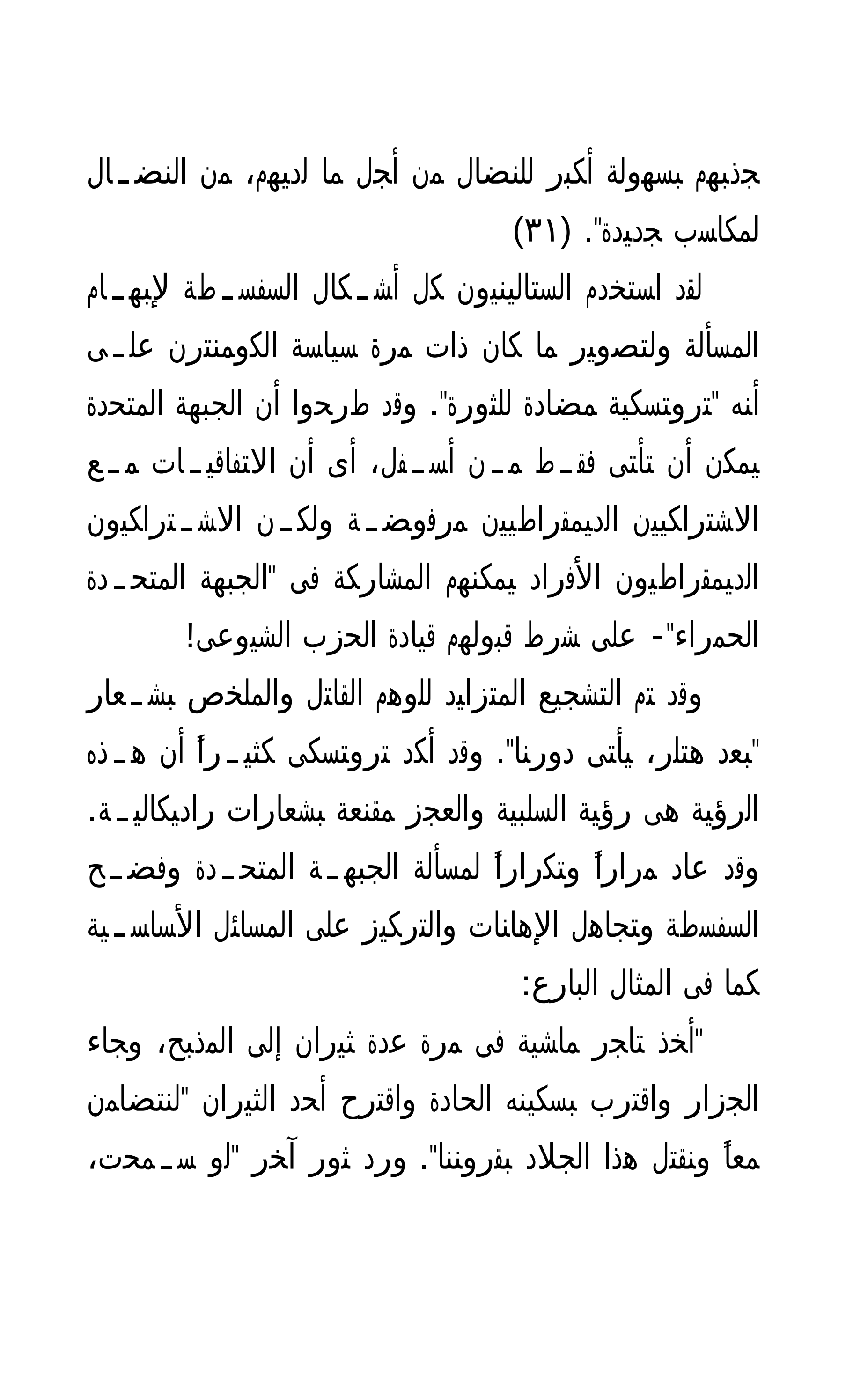
الأزمة الاجتماعية العميقة التى افقدت جماهير البرجوازية الصغيرة اتزانها وغياب حزب ثورى يمكن أن تعتبره اليوم الجماهير الشعبية القيادة الثورية الحقيقية. إذا كان الحزب الشيوعى هو **حزب الأمل الثورى**، فإن الفاشية هى ، كحركة جماهيرية، **الحزب اليائس المضاد للثورة.** عندما تعتنق الجماهير البروليتارية ككل الأمل الثورى فهى تجذب بالضرورة قطاعات واسعة من البرجوازية الصغيرة على طريق الثورة. وبالتحديد فى هذا المجال، قد أوضحت الانتخابات الأخيرة صورة عكسية: فقد اعتنقت جماهير البرجوازية الصغيرة اليأس المضاد للثورة بقوة شديدة لدرجة أنها جذبت وراءها قطاعات كبيرة من البروليتاريا...

الفاشية فى ألمانيا قد أصبحت خطراً حقيقياً، كتعبير حاد للوضع العاجز للنظام البرجوازى والدور المحافظ للاشتراكية

الديمقراطية فى النظام والضعف المتراكم للحزب الشـيوعى للإطاحة به. إن الـذى ينكـر ذلـك هـو إمـا أعمـى أو متبجح".(٣٠)

طرح تروتسكى أن إصلاح الوضع يتطلب أولاً نفـض الحزب الشيوعى من تطرفه الراديكالى العقيم. يجب استبدال سياسة "التهديد البيروقراطى" وهى محاولة (لاغتصاب الطبقة العاملة بعد الفشل فى إقناعها) بسياسة مناورات نشطة علـى أساس سياسة الجبهة المتحدة.

"إن تعبئة أغلبية الطبقة العاملة الألمانية للهجـوم هـى مهمة صعبة. فكنتيجـة لهـزائم ١٩١٩ و ١٩٢١ و ١٩٢٣ ولمغامرات "الفترة الثالثـة" فقـد طـور العمـال الألمـان، المرتبطون فوق ذلك كله بتنظيمات محافظة قويـة، درجـة عالية من التردد والخوف. ولكن على الجانب الآخـر فـإن التضامن التنظيمى للعمال الألمان، والذى منع بشكل كامـل تقريباً حتى الآن دخول الفاشية فى صفوفهم، يفـتح المجـال لإمكانيات واسعة للنضالات الدفاعية. ويجـب ملاحظـة أن سياسة الجبهة المتحدة أكثر تأثيراً بشكل عام فى الدفاع عنها فى الهجوم. إن القطاعات الأكثر محافظة أو تخلـف يمكـن



جذبهم بسهولة أكبر للنضال من أجل ما لديهم، من النضال لمكاسب جديدة". (٣١)

لقد استخدم الستالينيون كل أشكال السفسطة لإبهام المسألة ولتصوير ما كان ذات مرة سياسة الكومنترن على أنه "تروتسكية مضادة للثورة". وقد طرحوا أن الجبهة المتحدة يمكن أن تأتى فقط من أسفل، أى أن الاتفاقيات مع الاشتراكيين الديمقراطيين مرفوضة ولكن الاشتراكيون الديمقراطيون الأفراد يمكنهم المشاركة فى "الجبهة المتحدة الحمراء"- على شرط قبولهم قيادة الحزب الشيوعى!

وقد تم التشجيع المتزايد للوهم القاتل والملخص بشعار "بعد هتلر، يأتى دورنا". وقد أكد تروتسكى كثيراً أن هذه الرؤية هى رؤية السلبية والعجز مقنعة بشعارات راديكالية. وقد عاد مراراً وتكراراً لمسألة الجبهة المتحدة وفضح السفسطة وتجاهل الإهانات والتركيز على المسائل الأساسية كما فى المثال البارع:

"أخذ تاجر ماشية فى مرة عدة ثيران إلى المذبح، وجاء الجزار واقترب بسكينه الحادة واقترح أحد الثيران "لنتضامن معاً ونقتل هذا الجلاد بقروننا". ورد ثور آخر "لو سمحت،

كيف يكون الجزار أسوأ من التاجر الذى أتى بنا إلـى هنـا بنبوته؟" وكان هذا الثور قد حصل على تعليمه السياسى فـى مؤسسة مانويلسكى.

وكان الرد "ولكننا سنستطيع التعامل مع التـاجر فيمـا بعد!" غير أن الثيران ردوا فى صوت واحد " لن ينفع هذا... أنت تحاول أن تحمى أعدائنا فى اليسار، أنت نفسك جـزار اجتماعى! ورفضوا أن يتضامنوا" من أساطير أيسوب. (٣٢)

ظل الحزب الشيوعى متماسكاً بمنهجه القاتل وجاء هتلر إلى السلطة وحطمت الحركة العمالية.

الجبهة الشعبية والثورة الأسبانية:

دفع انتصار هتلر زعماء الاتحاد السوفيتى للبحث عن "تأمين" من خلال حلف عسكرى مع القوتين الغربيتين المهيمنتين حتى ذلك الوقت- فرنسا وبريطانيا- وإلى دفع الكومنترن بقوة لتبنى سياسـات يمينيـة. وذلك كعامل مساعد للدبلوماسية الستالينية، وكان هذا هو الدور الجديـد للكومنترن. وقد أقيم المؤتمر السابع والأخير عام ١٩٣٥ كبرهان علنى على أن الثورة لم تصبح على الإطلاق مطروحة على جدول الأعمال. وقد نادى المؤتمر بـ "جبهة شعبية متحدة " تناضل من أجـل السـلام وضد إثارة الحرب. وتضم كل المهتمين بإبقاء السلام.(٣٣)

وقد ضمت قائمة المهتمين بإبقاء السلام، المنتصرون فى ١٩١٨: الطبقات الحاكمة الفرنسية والبريطانية، وهم هدف الخط الجديد.

وقد صرحت القيادة التنفيذية للكومنترن فى مايو ١٩٣٦:

"إن الوضع اليوم ليس ما كان عليه فى ١٩١٤، فالآن ليس فقط الطبقة العاملة والفلاحون وكل الجماهير الكادحة هم المصرون على إبقاء السلام ولكن أيضاً الدول المضطهدة والضعيفة التى تهدد الحرب استقلاليتها... وفى المرحلة الحالية هناك عدد من الدول الرأسمالية يهمها أيضاً إبقاء السلام. ولذلك هناك إمكانية لخلق جبهة واسعة من الطبقة العاملة وكل الجماهير الكادحة وأمم بأكملها ضد خطر الحرب الإمبريالية". (٣٤)

إن مثل هذه الجبهة كانت بالطبع دفاع عن الوضع الإمبريالى القائم حينذاك. وكان يجب استخدام لغة إصلاحية بشكل مرن لإخفاء هذه المسألة وهذا ما حدث بشكل ناجح جداً لفترة.

ففى المرحلة الأولى أدى الحماس الجماهيرى للوحدة إلى تحقيق الأحزاب الشيوعية لمكاسب ضخمة:

فقد نمى الحزب الفرنسى من ٣٠ ألف عام ١٩٣٤ إلى ١٥٠ ألف بنهاية ١٩٣٦ بالإضافة إلى ١٠٠ ألف من منظمة الشباب الشيوعى. وقد سلح الأعضاء الجدد ضد انتقادات اليسار بإيمان أن التروتسكيين يعملون كعملاء للفاشية!.

وفى مايو ١٩٣٥ تم التوقيع على المعاهدة الفرنسية- السوفيتية وبحلول شهر يوليو وصل الحزب الشيوعى والحزب الاشتراكى الفرنسى إلى اتفاق مع الحزب الراديكالى وهو العمود الفقرى للديمقراطية البرجوازية الفرنسية. وفى إبريل ١٩٣٦ فازت "الجبهة الشعبية" المكونة من الأحزاب الثلاث فى الانتخابات العامة على أساس سياسة "الأمن الجماعى" والإصلاح. ونال الحزب الشيوعى ٧٢ مقعداً وكانت حملته الدعائية على أساس شعار " من أجل فرنسا قوية وحرة وسعيدة" وأصبح جزء أساسى من الأغلبية البرلمانية بقيادة "ليون بلوم" زعيم الحزب الاشتراكى ورئيس وزراء حكومة الجبهة الشعبية. واستطاع "موريس ثوريز"، السكرتير العام للحزب الشيوعى، أن يزعم "أننا حرمنا عدونا

بشجاعة من الأشياء التى سرقت منا وسحقت تحت الأقـدام. لقد استعدنا نشيد المارسييز وراية الألوان الثلاث". (٣٥)

وعندما استتبع الانتصار الانتخابى لليسار موجة ضخمة من الإضرابات والاعتصامات (وقد شارك بهـا ٦ ملايـين عامل فى يونيو ١٩٣٦) بذل الأبطـال السـابقون "للنضـال الثورى المتصاعد" جهداً كبيراً لاحتواء الحركة فـى أطـر ضيقة ولإنهائها على اساس تنازلات "اتفاقية ماتينون" (أساساً ٤٠ ساعة عمل بالأسبوع واجازات مدفوعة الأجر) وبحلول نهاية العام كان الحزب الشيوعى، والذى أصبح على يمـين حلفائه الاشتراكيين الديمقراطيين، ينادى بتوسـيع "الجبهـة الشعبية" إلى "جبهة فرنسية" من خلال ضم بعض المحافظين اليمينيين المعاديين بشدة للألمان على أسس قومية.

كان الحزب الفرنسى أول المنفذين لهذه السياسات، لأن التحالف مع فرنسا كان مركزياً لسياسة سـتالين الخارجيـة، ولكن سرعان ما تم تبنيها من قبل الكومنترن كله.

وعندما اندلعت الثورة الأسبانية فى يوليو ١٩٣٦، كرد فعل لمحاولة فرانكو الاستيلاء على السلطة، فعـل الحـزب الشيوعى الأسبانى، والذى كان جزء من الجبهـة الشـعبية

الأسبانية التى فازت بالانتخابات فى فبراير واستولى علـى السلطة، كل ما بوسعه للإبقاء على الحركـة داخـل إطـار "الديمقراطية" وقد نجح فى ذلك بمساعدة الدبلوماسية الروسية والاشتراكيين الديمقراطيين بالطبع.

وقد صرح "يسوس هرنانديس"، محرر الجريدة اليوميـة للحزب:

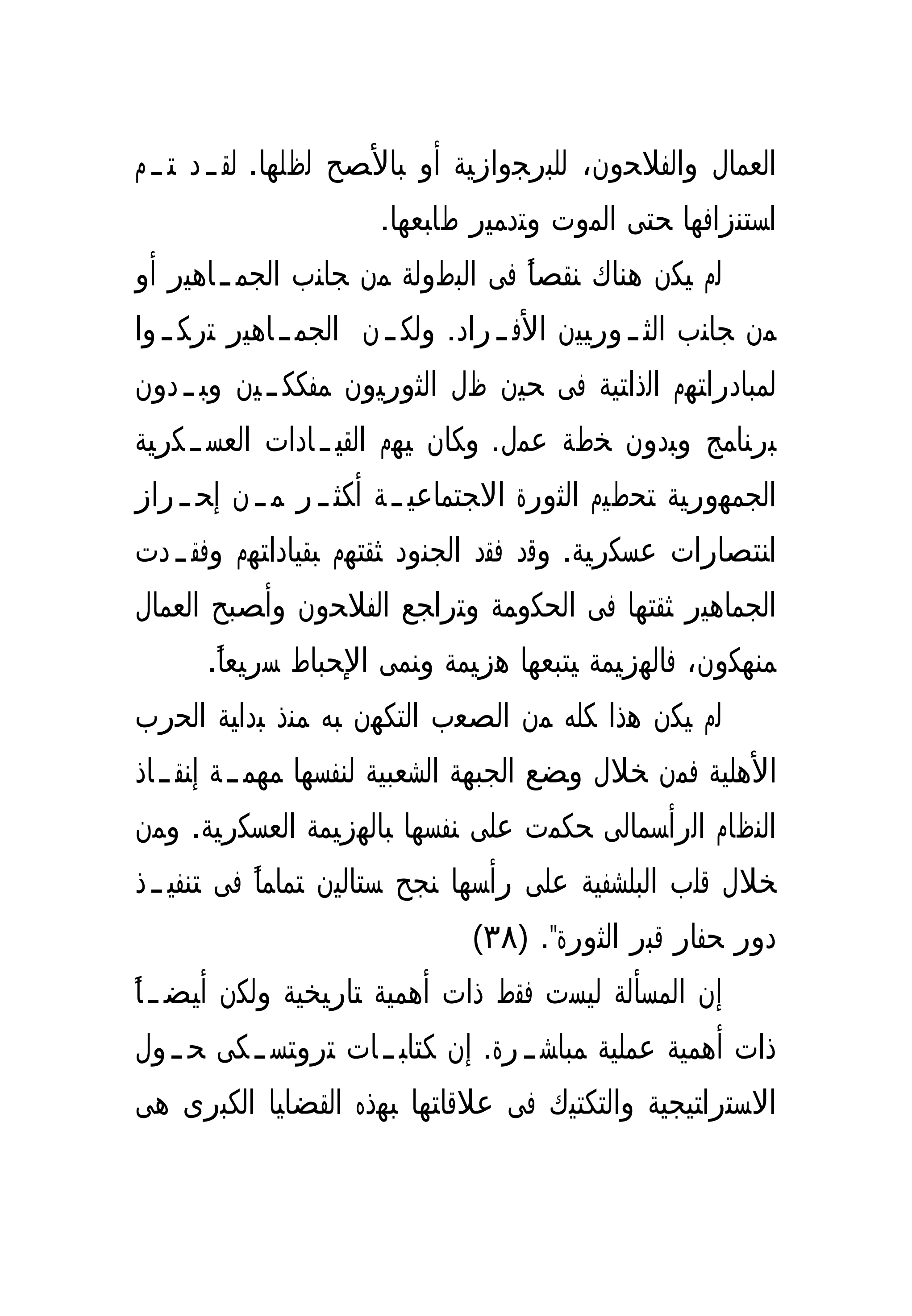
"من الخطأ تماماً تصور أن هدف الحركة العمالية هـو إنشاء ديكتاتورية البروليتاريا بعد انتهـاء الحـرب... نحـن الشيوعيون أول من يرفض هذا التصور.إن ما يحركنا هـو فقط الرغبة فى الدفاع عن الجمهورية الديمقراطية". (٣٦)

ونتيجة لهذا هذا الخط دفع الحزب الشيوعى الأسـباني وحلفائه البرجوازيين سياسات الحكومـة الجمهوريـة أكثـر فأكثر إلى اليمين. ففى أثناء الحرب الأهلية الممتـدة أخـرج البوم (P.O.U.M) من الحكومة وكان هذا الحزب على يسار الحزب الشيوعى وكان تروتسكى قد انتقـده بشـدة لدخولـه أصلاً فى الجبهة الشعبية وبالتالى تجريد نفسـه مـن قوتـه السياسية وإعطاء "غطاء " يسارى للحـزب الشـيوعى ثـم للجناح اليسارى للحزب الاشتراكى الأسبانى.

أدى "الدفاع عن النظام الجمهورى مع الدفاع عن الملكية" (٣٧) إلى فترة من الحكم الإرهابى فى الجمهورية الأسبانية ضد اليسار. وهذا ما مهد السبيل، كما طرح تروتسكى، لانتصار فرانكو. وقد كتب فى ديسمبر ١٩٣٧:

"لقد أظهرت البروليتاريا الأسبانية قدرات عسكرية من الدرجة الأولى. فى وزنها النسبى فى الحياة الاقتصادية للبلاد وفى مستواها السياسى والثقافى، وقفت البروليتاريا الأسبانية فى اليوم الأول للثورة فى مستوى أعلى من البروليتاريا الروسية فى بداية ١٩١٧. وقد وقفت تنظيماتها كالعقبات الأساسية فى طريقها للنصر. لقد تكونت الفئة المسيطرة من الستالينيين، وفى توافق مع وظيفتهم المضادة للثورة، من مرتزقة ووصوليين وعناصر بلا طبقة وبشكل عام كل أنواع الحثالة الاجتماعية.

أما ممثلى التنظيمات العمالية الأخرى: إصلاحيون بلا إصلاحات، وفوضويين مرددين للشعارات ووسطيوا البوم (P.O.U.M) العاجزون، كل هؤلاء تذمروا وتأهلوا وترددوا وتناوروا ولكن فى النهاية تأقلموا مع الستالينيين. وكنتيجة لنشاطهم المشترك تم إخضاع معسكر الثورة الاجتماعية-



العمال والفلاحون، للبرجوازية أو بالأصح لظلها. لقد تم استنزافها حتى الموت وتدمير طابعها.

لم يكن هناك نقصاً فى البطولة من جانب الجماهير أو من جانب الثوريين الأفراد. ولكن الجماهير تركوا لمبادراتهم الذاتية فى حين ظل الثوريون مفككين وبدون برنامج وبدون خطة عمل. وكان يهم القيادات العسكرية الجمهورية تحطيم الثورة الاجتماعية أكثر من إحراز انتصارات عسكرية. وقد فقد الجنود ثقتهم بقياداتهم وفقدت الجماهير ثقتها فى الحكومة وتراجع الفلاحون وأصبح العمال منهكون، فالهزيمة يتبعها هزيمة ونمى الإحباط سريعاً.

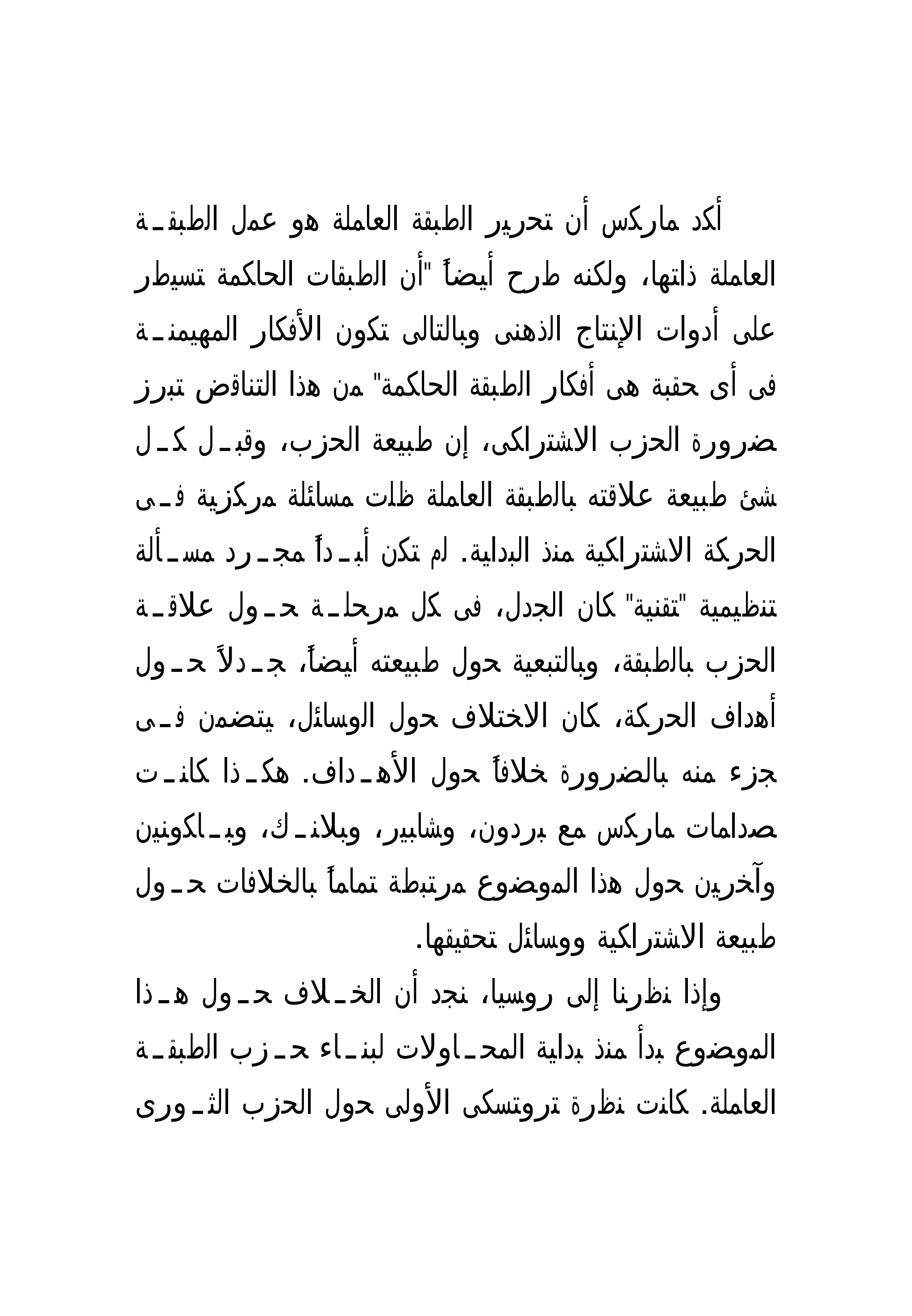
لم يكن هذا كله من الصعب التكهن به منذ بداية الحرب الأهلية فمن خلال وضع الجبهة الشعبية لنفسها مهمة إنقاذ النظام الرأسمالى حكمت على نفسها بالهزيمة العسكرية. ومن خلال قلب البلشفية على رأسها نجح ستالين تماماً فى تنفيذ دور حفار قبر الثورة". (٣٨)

إن المسألة ليست فقط ذات أهمية تاريخية ولكن أيضاً ذات أهمية عملية مباشرة. إن كتابات تروتسكى حول الاستراتيجية والتكتيك فى علاقاتها بهذه القضايا الكبرى هى

بالفعل كنز عظيم. ويمكن القول وبدون مبالغة أنه لـم ينـتج أحد منذ ١٩٢٣ أعمالاً تقترب حتى من أعمال تروتسكى فى البراعة والعمق وهى بالفعل أعملاً لا غنى عنهـا للثـوريين اليوم.

الفصل الرابع

الحزب والطبقة



أكد ماركس أن تحرير الطبقة العاملة هو عمل الطبقة العاملة ذاتها، ولكنه طرح أيضاً "أن الطبقات الحاكمة تسيطر على أدوات الإنتاج الذهنى وبالتالى تكون الأفكار المهيمنة فى أى حقبة هى أفكار الطبقة الحاكمة" من هذا التناقض تبرز ضرورة الحزب الاشتراكى، إن طبيعة الحزب، وقبل كل شئ طبيعة علاقته بالطبقة العاملة ظلت مسائلة مركزية فى الحركة الاشتراكية منذ البداية. لم تكن أبداً مجرد مسألة تنظيمية "تقنية" كان الجدل، فى كل مرحلة حول علاقة الحزب بالطبقة، وبالتبعية حول طبيعته أيضاً، جدلاً حول أهداف الحركة، كان الاختلاف حول الوسائل، يتضمن فى جزء منه بالضرورة خلافاً حول الأهداف. هكذا كانت صدامات ماركس مع بردون، وشابير، وبلانك، وباكونين وآخرين حول هذا الموضوع مرتبطة تماماً بالخلافات حول طبيعة الاشتراكية ووسائل تحقيقها.

وإذا نظرنا إلى روسيا، نجد أن الخلاف حول هذا الموضوع بدأ منذ بداية المحاولات لبناء حزب الطبقة العاملة. كانت نظرة تروتسكى الأولى حول الحزب الثورى

هى بالأساس ما أطلق عليه فيما بعد "النظرة اللينينية"، والتى كان هو قد طرحها بمعزل عن لينين فى منفاه فى سيبريا فى ١٩٠١ (١). على أى حال كان تروتسكى من أوائل مؤيـدى "إيسكرا" ووقف مدافعاً عن فكرة منظمة عالية المركزية فـى مؤتمر حزب العمال الاشتراكى الديمقراطى الروسـى فـى ١٩٠٣.

"إن قواعدنا...تمثل عدم الثقة المنظم من الحزب تجاه كل أقسامه، أى السيطرة التامة على كـل المنظمـات المحليـة ومنظمات المناطق والمنظمات القومية".(٢)

وبعد أن أخذ تروتسكى صف المناشـفة فـى إنشـقاق المؤتمر ارتد بعنف عن هذه النظرة، وأصبح فى خلال سـنة واحدة أبرز ناقد لمركزية المناشفة. " إن طريقة لينين تـؤدى إلى أن تحل مؤسسات الحزب التنظيمية محل الحـزب كلـه وأن تحل اللجنة المركزية محل مؤسسـات الحـزب، وفـى النهاية يأتى الديكتاتور" (٣)،هكذا كتب تروتسكى فى ١٩٠٤.

كان تروتسكى مثل روزا لوكسـمبرج، يتخـوف مـن "محافظة الحزب" ويؤكد بشدة على أهميـة تحـرك الطبقـة العاملة العفوية:

"لقد أصبح لدى الأحزاب الاشتراكية الأوربية، وخاصة أقواهم الحزب الألمانى، روح محافظة تنمو وتقوى كلما نمـا حجم الجماهير المتأثرة بهم، وكلما ازدادت كفـاءة التنظـيم وانتظام الحزب. ولذا، من الممكـن أن تكـون الاشـتراكية الديمقراطية عقبة فى طريق الصدام المباشـر بـين العمـال والبرجوازية". (٤)

للتغلب على هذه المحافظة، اعتمد تروتسكى على المـد التلقائى للثورة الذى "يقتل روتين الحزب، ويدمر محافظتـه" كما كتب بعد ثورة ١٩٠٥ (٥) وهكذا يتقلص دور الحـزب إلى الدعاية بالأساس. أنه ليس طليعة الطبقة العاملة.

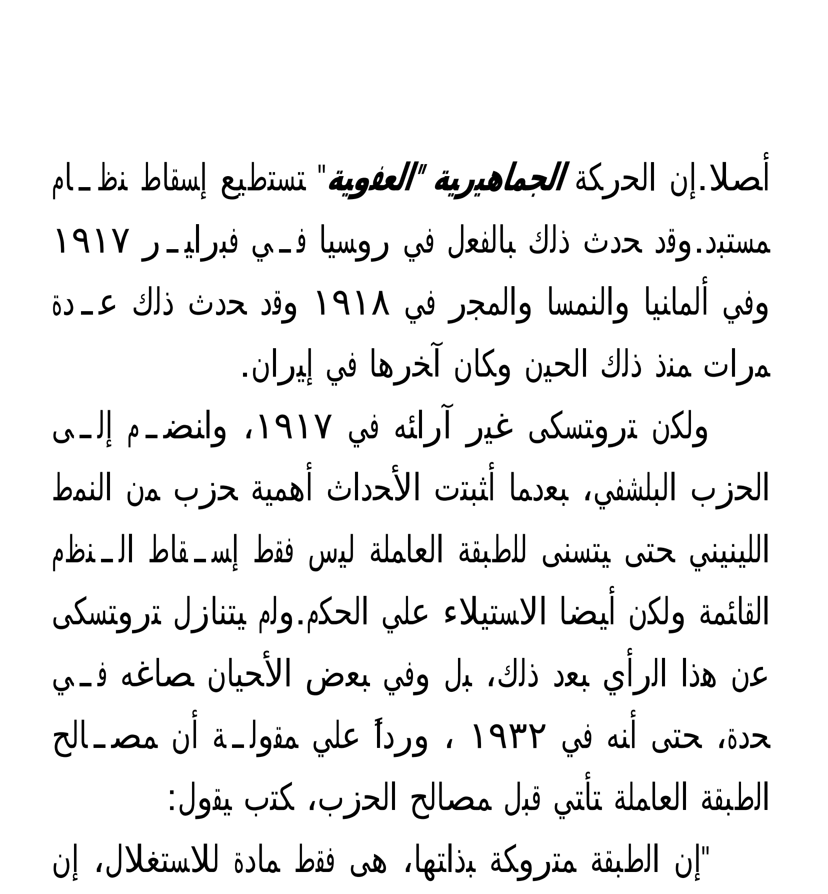
كانت لتخوفات تروتسكى تلك بالطبع ما يبررها. ففـى روسيا من ١٩٠٥ إلى ١٩٠٧ حتى الحزب البلشفي أظهـر محافظته، وتكرر ذلك فى ١٩١٧ (٦). وفى الغـرب حيـث للمحافظة قاعدة مادية أكثر تتمثل في ميزات الأرستقراطيات العمالية، لعبت دورا حاسـما ضـد الثـورة فـي ١٩١٨ - ١٩١٩.

أثرت بالطبع تجربة ١٩٠٥ علي تكـوين هـذه الآراء، حيث لعب تروتسكى دوراً غير عادي في تلك الثورة كفـرد

بدون ارتباطات حزبية حقيقية (كان في تلك الفتـرة منشـفياً بالاسم، ولكنه عملياً حراً تاماً) مما عضد فكرته عن كفايـة الفعل العفوي الجماهيري.

ولقد ظل في فترة المد الرجعي بعد ١٩٠٦، وفي فتـرة تصاعد الحركة العمالية من ١٩١٢، ناقدا لـ ـ "***اسـتبدالية*** البلاشفة، داعيا إلى وحدة كل الاتجاهات، الاقتراح الذي كان بالأساس موجها ضد البلشفية. (قد يكون، هذا قد ساهم فـي بطئه في اكتشاف أخطار الاستبدالية الحقيقية بعد ١٩٢٠).

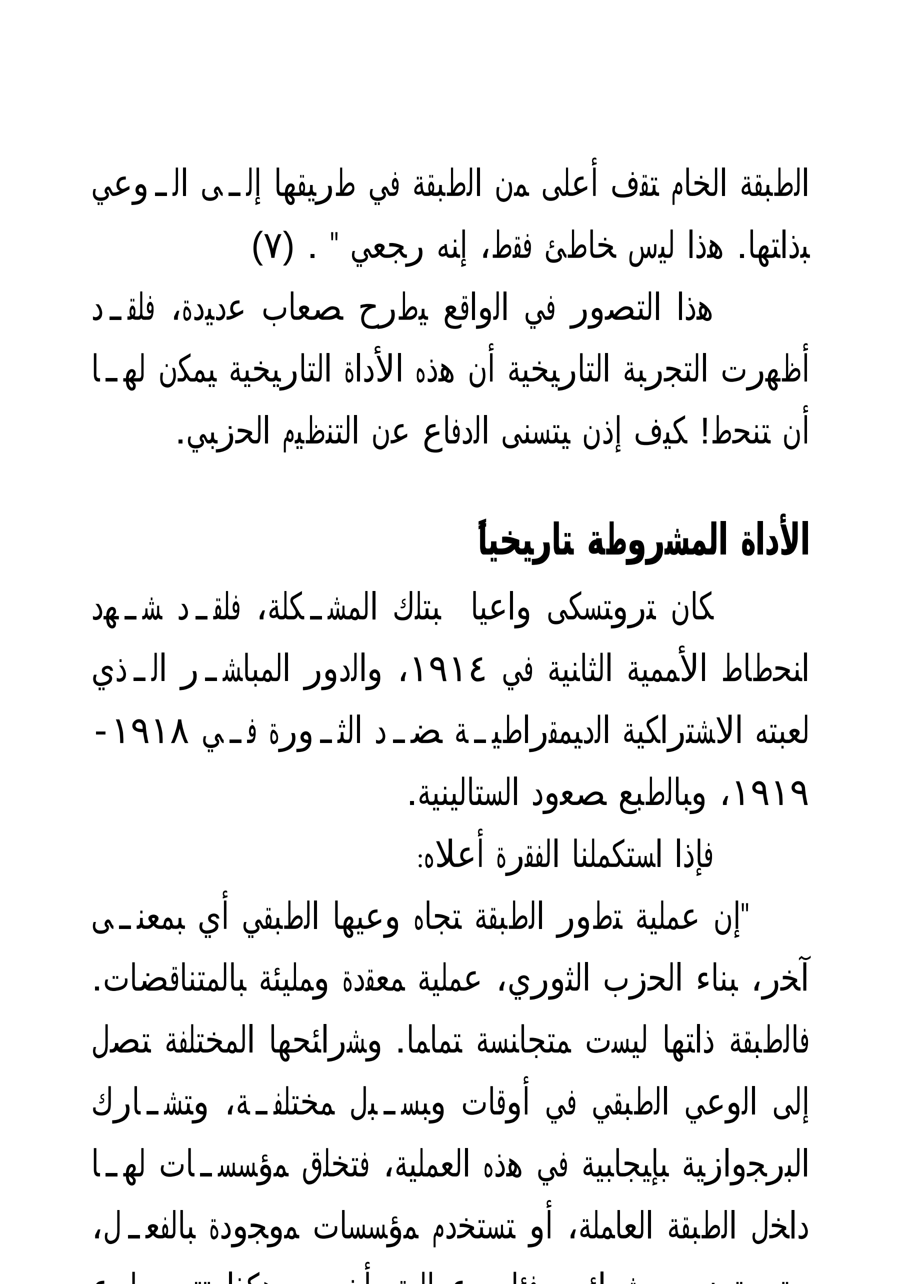
لقد أثبتت الأحداث خطأ موقف تروتسكى في الفترة مـا بين ١٩٠٤ و ١٩١٧ كتب تروتسكى أنه بدون لينين ما كانت هناك ثورة أكتوبر، ولكن المسألة لم تكـن ببسـاطة مسـألة وصول لينين إلى محطة فنلندا في أبريل ١٩١٧. بل كانـت مسألة الحزب الذي بناه لينين ومعاونيه عبر السنوات السابقة. إن الميل المحافظ لدى كثير من قادة ذلك الحـزب (والـذي ساعده بالتأكيد الطرح النظري "***الديكتاتوريـة الديمقراطيـة***" الذي كان لينين قد دافع عنه طويلاً) كان غالبا مـا سـيمنع الاستيلاء علي السلطة لولا وضع لينين الفريـد وإصـراره. ولكن بدون الحزب، رغم كل عيوبه لما طرحـت المسـألة



أصلا.إن الحركة ***الجماهيرية "العفوية***" تستطيع إسقاط نظام مستبد.وقد حدث ذلك بالفعل في روسيا في فبراير ١٩١٧ وفي ألمانيا والنمسا والمجر في ١٩١٨ وقد حدث ذلك عدة مرات منذ ذلك الحين وكان آخرها في إيران.

ولكن تروتسكى غير آرائه في ١٩١٧، وانضم إلى الحزب البلشفي، بعدما أثبتت الأحداث أهمية حزب من النمط اللينيني حتى يتسنى للطبقة العاملة ليس فقط إسقاط النظام القائمة ولكن أيضا الاستيلاء علي الحكم.ولم يتنازل تروتسكى عن هذا الرأي بعد ذلك، بل وفي بعض الأحيان صاغه في حدة، حتى أنه في ١٩٣٢ ، ورداً علي مقولة أن مصالح الطبقة العاملة تأتي قبل مصالح الحزب، كتب يقول:

"إن الطبقة متروكة بذاتها، هى فقط مادة للاستغلال، إن البروليتاريا تتبوأ دوراً مستقلاً فقط حينما تتحول من طبقة اجتماعية بذاتها إلى طبقة سياسية لذاتها. وهذا لا يمكن حدوثه إلا من خلال حزب. إن الحزب هو الأداة التاريخية التي تستطيع الطبقة من خلالها أن تصبح واعية بذاتها. أن نقول أن " الطبقة تقف أعلى من الحزب" هو أن نقول أن



الطبقة الخام تقف أعلى من الطبقة في طريقها إلى الوعي بذاتها. هذا ليس خاطئ فقط، إنه رجعي " . (٧)

هذا التصور في الواقع يطرح صعاب عديدة، فلقد أظهرت التجربة التاريخية أن هذه الأداة التاريخية يمكن لها أن تنحط! كيف إذن يتسنى الدفاع عن التنظيم الحزبي.

الأداة المشروطة تاريخياً

كان تروتسكى واعيا بتلك المشكلة، فلقد شهد انحطاط الأممية الثانية في ١٩١٤، والدور المباشر الذي لعبته الاشتراكية الديمقراطية ضد الثورة في ١٩١٨-١٩١٩، وبالطبع صعود الستالينية.

فإذا استكملنا الفقرة أعلاه:

"إن عملية تطور الطبقة تجاه وعيها الطبقي أي بمعنى آخر، بناء الحزب الثوري، عملية معقدة ومليئة بالمتناقضات. فالطبقة ذاتها ليست متجانسة تماما. وشرائحها المختلفة تصل إلى الوعي الطبقي في أوقات وبسبل مختلفة، وتشارك البرجوازية بإيجابية في هذه العملية، فتخلق مؤسسات لها داخل الطبقة العاملة، أو تستخدم مؤسسات موجودة بالفعل، حتى تضرب شرائح وفئات عمالية بأخرى. هكذا تتصارع

داخل البروليتاريا أحزاب عديدة في نفس الوقت، لـذا نجـد البروليتاريا منقسمة سياسيا في الشوط الأعظم من مشوارها السياسي، ومن هنا بالضبط تنبع إشكالية "الجبهـة المتحـدة" التي تبرز بحدة على السطح، فـي بعـض الأحيـان تجـد المصالح التاريخية للبروليتاريا تعبيرها في الحزب الشيوعي (عندما تكون سياساته صـحيحة) وتكمـن مهمـة الحـزب الشيوعي في كسب أغلبية البروليتاريا هكذا فقط تكون الثورة الاشتراكية ممكنة، ولا يمكن للحزب الشيوعي تحقيق مهمته إلا عن طريق الحفاظ على استقلاليته السياسـية والتنظيميـة عن الأحزاب والتنظيمات الأخرى داخـل وخـارج الطبقـة العاملة، والتعدي على هذا المبدأ الأساسي في الماركسية هو اقتراف لأفظع الجرائم ضد مصالح البروليتاريا كطبقة.. لكن البروليتاريا لا تقترب من الوعي الثوري من خلال اجتيـاز الامتحانات المدرسية، بل من خلال معترك الصراع الطبقي، الذي يجب أن تمتلك فيه البروليتاريا وحـدة الصـف حتـى تستطيع القتال. وهذا يسرى على مستوى صراع اقتصـادي جزئي بين حوائط مصنع واحـد، كمـا علـى الصـراعات السياسية "**القومية**" كالنضال ضد الفاشية. ولذا فتكتيك "الجبهة

المتحدة" ليس اصطناعيا أو من قبيل الصدفة على الإطـلاق، إنه ينبع كليا من الظروف الموضوعية التي تحكـم تطـور البروليتاريا.(٨)

هذا التحليل الواقعي المتماسك لم يكن بالطبع تعميمـا سوسيولوجيا أبديا، وإنمـا تحليـل يضـرب بجـذوره فـي التطورات التاريخية الواقعية. وقد ساعدت أحزاب الأمميـة الثانية، في وقت ما، على خلق:

"تلك القلاع من الديمقراطية العمالية (المنظمات العمالية، وبخاصة النقابات) داخل الدولة البرجوازية... الضرورية من أجل مسار الثورة.

إن عمل الأممية الثانية يتمثل بالضبط في خلـق تلـك القلاع في الحقبة التاريخية التي كانت لازالت فيهـا تـؤدى دورا تقدميا تاريخيا" (٩).

كانـت أحـزاب الأمميـة الثانيـة قـد استسـلمت لبرجوازياتها أمام اختبار الحرب العالمية الأولى (باسـتثناء البلاشفة والبلغاريون والصرب)، أو اتخذت مواقف "***وسطية***" (كالإيطـاليين والاسـكندنافيين والأمـريكيين) ومـن هـذا الاستسلام، ومن الأزمات الانشقاقات التي ولدها، ومن مـد

المعارضة العمالية المتصاعدة للحرب بعـد ١٩١٦، ومـن ثورات ١٩١٧، ١٩١٨، نشأت الأممية الشيوعية، ***"الاستمرار المباشر للمحاولات الهائلة والاستشهاد البطـولي لسلسـلة طويلة من الأجيال الثورية من بابوف إلى كـارل ليبكنخـت وروزا لوكسمبورج" (١٠).***

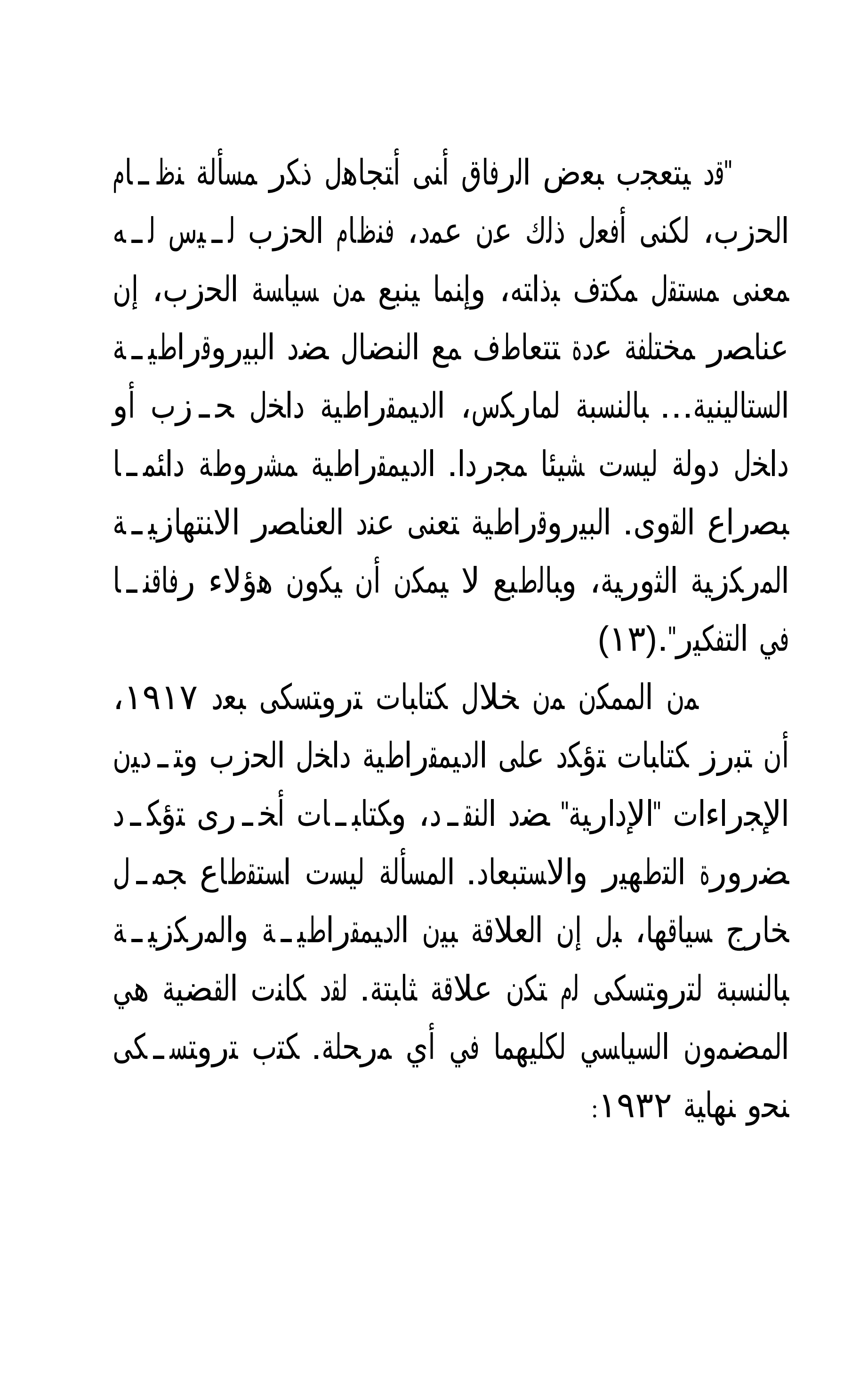
أصبحت هذه الأممية الشيوعية الآن "***الأداة التاريخية التي تستطيع الطبقة من خلالها أن تصبح واعية بـذاتها***". وقد اقترفت أحزاب الأممية الشيوعية منـذ ١٩٢٣ أخطـاء جسيمة (لم يكن تروتسكى بـالطبع غـافلاً عـن أخطـائهم السابقة)، واتبعت سياسات انتهازية أو انفصالية تحت قيـادة ستالين والنخبة الحاكمة في الاتحاد السوفيتي. على الرغم من ذلك كانت الأممية حقيقة واقعية وليست فرضا نظريا، لهـا تأييد أو تعاطف الملايين في العالم. ورغم التناقض الظاهري فإن تلك المساوئ ذاتها تدل على أنها كانـت حقـا منظمـة جماهيرية، فلم يعتقد تروتسـكى بتلـك الرؤيـة التبسـيطية لأحزاب الكومنترن على أنها فقط أدوات بأيدي البيروقراطية الستالينية، المشكلة هي تصحيح مسارها. "كل الأنظار إلـى الحزب الشيوعي، يجب أن نشرح له يجب أن نقنعه".(١١)

وكضرورة سياسية ، يجب أن يكون النظـام الـداخلي للحزب ديمقراطيا:

"النضال الداخلي يدرب الحزب وينير له الطريق. مـن هذا النضال يكتسب كل الأعضاء ثقة عميقة بصحة سياسات الحزب وبجدارة القيادة.

"إن هذه الثقة من الأعضاء العاديين، والمكتسـبة مـن خلال الممارسة والصراع الأيديولوجي هو الذي يعطى القيادة الفرصة لقيادة الحزب كله في ميدان المعركة فـي اللحظـة الضرورية، فقط ثقة عميقة من الحزب نفسه بصحة سياساته تعطى الجماهير العاملة الثقة بالحزب. ما يشل حركة الحزب الشيوعي الأسباني الآن .. هو الانشقاقات المصـطنعة مـن خارجه وغياب صراع أيديولوجي نزيه وحر".(١٢)

هكذا كتب تروتسكى في ١٩٣١، وتنطبـق المقولـة بشكل عام. ولكن المسألة لم تكن بهذه البساطة، فبعد طـرده من الاتحاد السوفيتي بقليل في ١٩٢٩، أوضح تروتسكى مـا اعتبره المسائل الأساسية لمؤيدي المعارضة اليسـارية فـي أوروبا (المواقف من اللجنة النقابيـة الإنجليزيـة الروسـية، الثورة الصينية، ومن الاشتراكية في بلد واحد).



"قد يتعجب بعض الرفاق أنى أتجاهل ذكر مسألة نظام الحزب، لكنى أفعل ذلك عن عمد، فنظام الحزب ليس له معنى مستقل مكتف بذاته، وإنما ينبع من سياسة الحزب، إن عناصر مختلفة عدة تتعاطف مع النضال ضد البيروقراطية الستالينية... بالنسبة لماركس، الديمقراطية داخل حزب أو داخل دولة ليست شيئا مجردا. الديمقراطية مشروطة دائما بصراع القوى. البيروقراطية تعنى عند العناصر الانتهازية المركزية الثورية، وبالطبع لا يمكن أن يكون هؤلاء رفاقنا في التفكير".(١٣)

من الممكن من خلال كتابات تروتسكى بعد ١٩١٧، أن تبرز كتابات تؤكد على الديمقراطية داخل الحزب وتدين الإجراءات "الإدارية" ضد النقد، وكتابات أخرى تؤكد ضرورة التطهير والاستبعاد. المسألة ليست استقطاع جمل خارج سياقها، بل إن العلاقة بين الديمقراطية والمركزية بالنسبة لتروتسكى لم تكن علاقة ثابتة. لقد كانت القضية هي المضمون السياسي لكليهما في أي مرحلة. كتب تروتسكى نحو نهاية ١٩٣٢:

"إن مبدأ ديمقراطية الحزب ليس على أي وجه مطابقـا لسياسات الباب المفتوح. لم تطلب المعارضة اليسارية إطلاقا من الستالينيين أن يحولوا الحزب إلى حاصل جمع ميكانيكي للأجنحة والجماعات والأفراد. نحـن نـتهم البيروقراطيـة "الوسطية" بتبني سياسة خاطئة، تضعهم في كل خطـوة فـي تناقض مع زمرة البروليتاريا، ثم البحث عن مخـرج لـذلك التناقض عن طريق خنق الديمقراطية الحزبية".(١٤)

قد يبدو هذا ملتبسا. وهو ملتـبس بالفعـل بالمعيـار الصوري البحت، إن حل التناقض يكمن في ديناميات تطور الحزب. آمن تروتسكى أن الحزب لا يمكن أن ينمو (بمعيار التأثير الجماهيري وليس النمو العددي فقط) إلا مـن خـلال علاقة تبادلية، عملية تفاعل، مع شرائح متزايدة من العمـال. ومن أجل هذه العملية فإن ديمقراطية الحزب الداخلية أساسية ولا يمكن الاستغناء عنها، فهي وسـيلة اكتسـاب الحـزب، لخبرات الطبقة وهذا التطور ليس ممكنا دائما، فكثيـرا مـا تعوق العوامل الموضوعية مثل ذلك التطور ولكن يجـب أن يكون الحزب متهيئا حتى يمكن له اقتناص الفرص التي تسنح من وقت لآخر.

لذلك يجب أن يكون النظام الداخلي مفتـوح ومـرن بقدر الإمكان في كل الأوقات، بما يتمشى مع الحفاظ علـى وحدة الحزب الثورية. إن هذا الشرط هـام، فقـد تضـعف الظروف الارتباط بين الحزب وشرائح العمـال المتقـدمين وبذلك تزيد مشكلة "الأجنحة، والجماعات والفئات"، مما يعيق تطور الديمقراطية الداخلية كما فهمها تروتسكى، بالأسـاس كآلية من خلالها يرتبط الحزب بشرائح متزايدة من العمـال، يتعلم منهم وفى ذات الوقت يكتسب حق القيادة.

ولتجسيد الأطروحة لننظر إلى هذه الفقرة من **تاريخ الثورة الروسية** التي يتناول فيها تروتسكى عزلة لينين عـن أغلبية قيادة الحزب بعد ثورة فبراير.

"وجد لينين في موقفه ضد البلاشفة القدامى (في إبريـل ١٩١٧) التأييد من شريحة أخرى في الحزب أكثـر حداثـة وأكثر ارتباطا بالجماهير.

في ثورة فبراير، كما نعلم، لعب البلاشفة العمال الـدور الحاسم، لقد رأوا من البديهي، أن الطبقة التي فازت بالنصـر يجب أن تستولي على السلطة.. في كل مكان تقريبـا أتُهـم البلاشفة اليساريون بالتطرف، وحتى بالفوضـوية. هـؤلاء

العمال الثوريون افتقدوا فقط المرجع النظري، للـدفاع عـن آرائهم، ولكنهم كانوا مستعدين لإجابة النداء الواضح الأول. على هذه الشريحة من العمال التي قامت على القـدمين فـي سنوات صعود ١٩١٢- ١٩١٤، كان لينين يستند (١٥).

يتكرر هذا النموذج مرة بعد أخـرى فـي كتابـات تروتسكى. إن حزبا جماهيريا، على غير الحلقات السياسية، يصطدم بقوى شديدة خاصة في الظروف الثورية، هذه القوى حتما ما تجد تعبيرا عنها داخل الحزب أيضا، وحتـى يظـل الحزب على مساره (عمليا، حتـى يصـحح هـذا المسـار باستمرار في الموقف المتغير) فإن العلاقة المركبة بين القيادة والمستويات المختلفة من الكوادر والعمال الـذين يـؤثرون عليهم ويتأثرون بهم تعبر عن نفسها، يجب أن تعبـر عـن نفسها كصراع سياسي داخل الحزب. ولو أن هـذه العمليـة خنقت بالوسائل الإدارية لأضاع الحزب طريقه.

إن من وظائف القيادة الثورية (تلـك القيـادة التـي تكونت عن طريق الانتقاء من الصراعات السابقة) التـي لا غنى عنها أن تعرف متى تغلق أبواب الحزب حتى تحـافظ على صلب المنظمة من التفكك نتيجة للضـغوط الخارجيـة

غير المواتية -أن تشدد على المركزية- ومتى تفتح المنظمة وتعتمد على شرائح من العمال المتقـدمين داخـل الحـزب وخارجه للتغلب على روح المحافظة لدى بعض أقسام الكادر والقيادة. أن تؤكد على الديمقراطية وذلك لتُعدل من المسار بسرعة.

كل هذا يتضمن فهما معظماً لـدور القيـادة، وذلـك بالضبط ما فعله تروتسكى بعد ١٩١٧، فكـان ليؤكـد فـي ١٩٣٨، أن الأزمة التاريخية للإنسانية يمكن أن تلخص إلـى أزمة القيادة الثورية.

ومع هذا فقد كان فهما للتطور العضـوي للكـادر القيادي بالارتباط مع تجارب الحزب في الصـراع الطبقـي الواقعي. بالطبع، يجب أن يجسـد الكـادر القيـادي تـراث وخبرات الماضي (من بابوف إلى كارل ليبكنخت)، ومعرفة بالإستراتيجية والتكتيك الذي اختبر في بلاد عدة في أوقـات مختلفة على مدى سنين، لم يكن تروتسكى ليقلل أبـدا مـن شأن تلك المعرفة التي كانت نظرية في غالبها، إلا أنها كانت بالنسبة لتروتسكى عامل ضروري للقيادة الناجحة ولكنه ليس كافيا. فتجارب الحزب من الصراع ومن علاقتـه المتغيـرة

بقطاعات مختلفة من العمال، هي العامل الإضافي الذي لا يمكن الاستغناء عنه والذي يتطور فقط بالممارسة.

التناقض

في حياة تروتسكى كان حزب شيوعي وحيد - الحزب الموجود في الاتحاد السوفيتي - يسيطر على السلطة بالإضافة إلى المناطق التي سيطر عليها الحزب الشيوعي الصيني في الثلاثينات ولقد صنف تروتسكى كل الأحزاب الشيوعية في تلك الفترة كمنظمات "بيروقراطية وسطية" تتأرجح ما بين السياسات الثورية والإصلاحية. وبعد ١٩٣٥ مع خط "الجبهة الشعبية" توصل إلى أنهم أصبحوا اشتراكيين وطنيين "***الأيادي الصفراء للرأسمالية المتعفنة***".(١٦)

ولكن كل هذه التوصيفات تشير مع ذلك إلى منظمات عمالية، إلى أحزاب تتنافس مع أخرى، على كسب التأييد بين حركات الطبقة العاملة، إلا أن الحزب الشيوعي السوفيتي بالتأكيد بعد ١٩٢٩ إن لم يكن أسبق، توقف عن كونه حزبا على الإطلاق بهذا المعنى. لقد كان جهازا بيروقراطيا، أداة استبدادية شمولية، ولقد سلم تروتسكى بذلك جزئيا، كما كتب في ١٩٣٠ : "إن الحزب السوفيتي كحزب لم يعد موجودا

اليوم. إن الجهاز الوسطى قد قام بخنقه".(١٧)، ولكنه مع ذلك أكد أن الحزب السوفيتي يختلـف جوهريـا ونوعيـا عـن الأحزاب العمالية خارج الاتحاد السوفيتي.

وحتى بعدما فقد تروتسكى الأمل (أكتوبر ١٩٣٣) فـي إصلاح سلمى للنظام في الاتحاد السوفيتي ظل هذا اللـبس، وبالطبع فإن هذا التناقض كان مرتبطا تماما باعتقاده أنـه حتى وإن كان الإصلاح مستحيلا، يبقى الاتحـاد السـوفيتي دولة عمالية، وإن كانت منحطة.

زادت أهمية وتعقد هذا اللبس، بظهـور دول سـتالينية عديدة، بعد وفاة تروتسكى، بدون ثورات عماليـة، يحكمهـا ***أحزاب شيوعية"،*** من الواضح أنها ليست أحزابـا عماليـة بمفهوم تروتسكى وكانت بذرة التناقض موجودة في موقـف تروتسكى بعد ١٩٣٣.

انقطاع الخيط

كما رأينا فإن مفهوم تروتسكى الناضج للعلاقة بـين الحزب والطبقة لم يكن مجرداً أو اعتباطياً، لكنه اعتمد على تجارب البلشفية في روسيا وعلـى التطـورات التاريخيـة

الواقعية التي أدت إلى أحزاب شيوعية جماهيرية في عدد من البلاد المهمة.

ولكن لماذا إذن ذهبت هذه التطورات أدراج الرياح؟ لماذا إذا فشلت "الأداة المشروطة تاريخيا" في الاختبار؟ فكر تروتسكى في هذا الاحتمال، ولكن فقط ليرفضه بحزم، فكمـا كتب في ١٩٣١:

"دعونا نأخذ مثالا آخر لتوضيح أفكارنا: يدعى هوجـو أوربانز - الذي يعتبر نفسه شيوعي يساري- إفلاس الحزب الألماني، ويدعو لخلق حزب جديد. لو كان أوربانز محقـا، فإن هذا يعنى أن انتصار الفاشية مؤكد. فمن أجل خلق حزب جديد يحتاج إلى سنوات عديدة (ولم يبد ما يدل على أن حزب أوربانز سيكون على أي نحو أفضل من حزب تيلمان: عندما كان أوربانز على رأس الحزب، لم تكن الأخطاء بأي معيار أقل). نعم لو أن الفاشيين استولوا على السلطة فسيعنى هـذا ليس فقط التدمير المادي للحزب، ولكن الإفـلاس السياسـي بحق أيضا... إن استيلاء الفاشيين علـى السـلطة سـيعنى ضرورة خلق حزب ثوري جديد، وعلى أغلب الاحتمـالات أممية جديدة أيضا، وسيكون ذلك كارثة تاريخية مخيفة. أمـا

القول بأن كل هذا أمر محتوم، فهو عمل الصـوفيين الـذين يعجلون بالاستسلام والخنوع في وجه الصراع مختبئين تحت عباءة الشعارات الجوفاء.. نحن واثقون بإمكانية الانتصـار على الفاشيين، ليس بعد قدومهم إلى السلطة، وليس بعد خمسة عشرة أعوام أو بعد عشرين عاما ولكن الآن، تحت الظروف المعطاة، في الشهور والأسابيع القادمة".(١٨)

ولكن هتلر أتى بالفعل إلى السلطة، وبغـض النظـر عن قوة إقناع وبريق أطروحات تروتسـكى، فلقـد توجـه الحزب الألماني سريعا بالربع مليون من أعضائه، والسـتة ملايين صوت (في ١٩٣٢) إلى مساره المهلك. لقد تحطـم، بدون مقاومة، إلى جانب "الاشتراكيين الفاشيين"، والنقابـات، وكل المنظمات السياسية والثقافية والاجتماعية التي خلقتهـا الطبقة العاملة الألمانية في الستين سنة السابقة.

في ١٩٣١ كتب تروتسكى يصف ألمانيا بأنها "مفتاح الوضع الدولي...على تطورات الأزمة في ألمانيا يعتمد ليس فقط مصير ألمانيا (وهذا وحده شيء جسيم) ولكـن مصـير أوروبا ، مصير العالم لسنوات عديدة".(١٩)

وكان هذا تنبؤاً دقيقاً: فلقد غيـرت هزيمـة الطبقـة العاملة الألمانية السياسة العالميـة. وكـان فشـل الحـزب الشيوعي حتى في محاولة المقاومة ضربة بنفس قوة استسلام الاشتراكية الديمقراطية في ١٩١٤.

ماذا يتبقى إذن من "***الأداة التاريخية التـي تسـتطيع الطبقة من خلالها أن تصبح واعيـة بـذاتها***". لقـد جاهـد تروتسكى منذ ١٩٣٣ حتى وفاته في أغسـطس ١٩٤٠ فـي محاولة حل معضلة ثبت أنه لا حل لها ، في ذلك الوقت في يونيو ١٩٣٢ كتب:

"يريد الستالينيون باضطهادهم لنا الدفع بنا على طـرق حزب آخر ثاني وأممية رابعة وهم يعرفون أن خطئا قـاتلا كهذا من المعارضة سيبطئ نموها لسنوات، إن لم يقض على نجاحاتها بالكامل".(٢٠)

وبعد أقل من سنة اضطر تروتسكى إلى أن يقر أولا، بأن الحزب الشيوعي الألماني قد انتهى، ثم وبعد أن أعلنـت اللجنة التنفيذية للكومنترن في إبريل ١٩٣٣ أن سياستها فـي ألمانيا كانت "صحيحة تماما" أقـر بـأن جميـع الأحـزاب الشيوعية قد انتهت كمنظمات ثورية وأن ما يحتاج إليه هـو

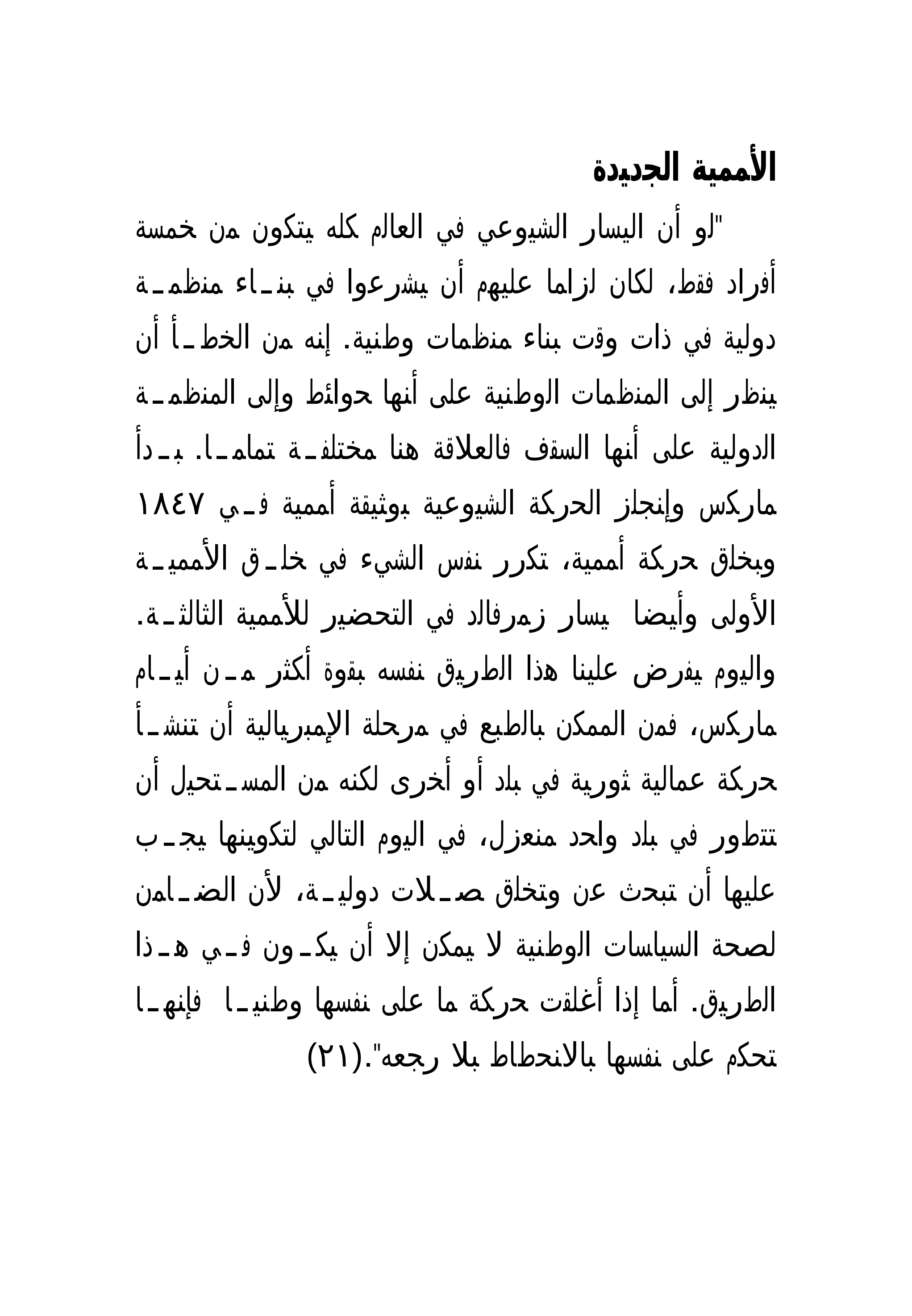
"***أحزاب شيوعية جديدة وأممية جديدة***" (عنوان مقـال فـي يوليو ١٩٣٣).

كانت الوصلة بين النظرية والممارسة قـد قطعـت. اعتمد تروتسكى قبل ١٩١٧ على تحركات الطبقـة العاملـة التلقائية لمحاربة محافظة الحزب. وبعد ١٩١٧ أكـد علـى الحزب العمالي الثوري كالأداة التي لا يمكن الاستغناء عنها للثورة الاشتراكية، إن غياب أحزاب من ذلك الطراز متجذرة في الطبقة العاملة، ولها كوادر ثورية ناضـجة ذات خبـرة، أدى إلى مأساة الحركات الثورية الجماهيريـة فـي ألمانيـا والنمسا والمجر، ونضالات تلقائية في أماكن أخرى عديدة في ١٩١٨-١٩١٩. وكانت وسائل تلافى هذا النقص -أحـزاب الأممية الشيوعية- قد انحطت في ذلك الوقت إلـى مسـتوى أنهم أصبحوا عقبة في طريق الحل الثوري لأزمات اجتماعية عميقة جديدة.

كان لابد من البدء من جديد، ولكن ماذا تبقى للبـدء به؟ بالأساس لم يكن هناك إلا بعض المجموعات الصـغيرة المنفصلة عن الحركات الحقيقيـة للطبقـة العاملـة وعـن الاشتراك المباشر في النضالات العمالية.

كان الاستثناء الجزئي لهذا الوضع العـام وهـى تلـك المجموعات التي كان أعضـاؤها بالمئـات والآلاف ولـيس بالعشرات، هي تنظيمات في اليونان وهولندا وأسبانيا(البـوم) ولكن هذه التنظيمات أثبتت ضعفها ووسطيتها وبالتالي كانت تشكل.

بدأ تروتسكى في إعادة البناء بهذه القوى الضئيلة. لـم يكن لديه اختيار إلا إذا اعتبرنا السلبية اختيار(أو تلك السلبية المسماة بالماركسية الغربية أو الأكاديمية) ولكن هناك تداخل حتمي بين الوسائل والأهداف. فبدون صلات حقيقية بالطبقة العاملة بدأت التروتسكية، حتى في حياة تروتسكى، في التأقلم مع جمهورها الواقعي وهو القطاعات الراديكالية من مثقفـي البرجوازية الصغيرة. وقد حارب تروتسكى، كمـا سـنرى حرباً طويلة ضد هذا التأقلم ولكن فـي نفـس الوقـت أدت ضرورات الوضع القاسية إلى تبنيه لمواقف سـاعدت علـى الرغم من إرادته وفهمه في نمو هذا الاتجاه.



الأممية الجديدة

"لو أن اليسار الشيوعي في العالم كله يتكون من خمسة أفراد فقط، لكان لزاما عليهم أن يشرعوا في بناء منظمة دولية في ذات وقت بناء منظمات وطنية. إنه من الخطأ أن ينظر إلى المنظمات الوطنية على أنها حوائط وإلى المنظمة الدولية على أنها السقف فالعلاقة هنا مختلفة تماما. بدأ ماركس وإنجلز الحركة الشيوعية بوثيقة أممية في ١٨٤٧ وبخلق حركة أممية، تكرر نفس الشيء في خلق الأممية الأولى وأيضا يسار زيمرفالد في التحضير للأممية الثالثة. واليوم يفرض علينا هذا الطريق نفسه بقوة أكثر من أيام ماركس، فمن الممكن بالطبع في مرحلة الإمبريالية أن تنشأ حركة عمالية ثورية في بلد أو أخرى لكنه من المستحيل أن تتطور في بلد واحد منعزل، في اليوم التالي لتكوينها يجب عليها أن تبحث عن وتخلق صلات دولية، لأن الضامن لصحة السياسات الوطنية لا يمكن إلا أن يكون في هذا الطريق. أما إذا أغلقت حركة ما على نفسها وطنيا فإنها تحكم على نفسها بالانحطاط بلا رجعه".(٢١)

كتب تروتسكى ذلك حين كان يعتقد بإمكانية إصلاح الأحزاب الشيوعية الموجودة، وكان يطرح جناح عالمي، مبنى على الأممية الموجودة. إن منطق ذلك، على عكس الحجج التي بنى عليها، لا دحض لها. أما الحجج فإنها لن تتماسك أمام الاختبار النقدي. فماركس وإنجلز لم يبدءا بـ "خلق حركة أممية". والبيان الشيوعي كتب لعصبة شيوعية كانت موجودة بالفعل (بالرغم من بدائية أفكارها الشيوعية)، وكانت أممية فقط بمعنى تواجدها في عدد من البلدان، لقد كانت بالأساس منظمة ألمانية، تتكون من حرفيين ومثقفين ألمان مهاجرين إلى باريس وبروكسل وأماكن أخرى، بالإضافة إلى مجموعات أخرى بمنطقة الراين وسويسرا الألمانية.

والأممية الأولى بدأت كتحالف بين منظمات نقابية إنجليزية تحت تأثير ليبرالي وأخرى فرنسية تحت تأثير برودونى، وفيما بعد اجتذبت تجمعات بصفات أخرى ومن جنسيات مختلفة، وبعيدا عن تكرار تجربة العصبة الشيوعية تطورت الأممية الأولى على عكس المسار، بدون قاعدة برنامجية أساسية وبدون تنظيم مركزي. ونفس الشيء

ينطبق، وإن بدرجه أقل، على الأممية الثانيـة، والتـي لـم يذكرها تروتسكى هنا.

وحتى الإشارة إلى يسار زيمرفالد لـن تتماسـك أمـام الفحص، فيسار زيمرفالد (علي خلاف تيار زيمرفالد ككل) لم يتكون إلا من الحزب البلشفي كحـزب جمـاهيري قـوي، بالإضافة إلي أفراد معدودين معزولين بدرجة أو بأخرى (داد ليتواني، كارل راديك البولندي، مندوبان سويدان، وجوليـان بوركارد مندوب مجموعة صغيرة، الاشتراكيون الأمميـون الألمان) (٢٢).

[ومع ذلك كله، فلم يكن لتروتسكى خياراً. لم يكن له في ذلك الحين أية قاعدة في أية حركة عمالية، وكانت كـل اتصاله بمؤيديه في الاتحاد السوفيتي قد قطعت فـي ربيـع ١٩٣٣.(٣٢) لقد كانت المسألة بالنسبة له هي تجميع، كل ما يستطيع، أينما وجد، لخلق تيار سياسي. وعلاوة علي ذلـك. فإن حجته عن أهمية وجود منبر دولـي، تحليـل مشـترك لقضايا الحركة العمالية، لا يمكن دحضها، ذلـك مـا قدمـه تروتسكى، ولكن اللبس بين الأفكار والتنظـيم، بـين التيـار السياسي والحزب العالمي كان قد ظهر. وفي خلال بضـعة

سنوات، كان تروتسكى قد أسقط ضمنيا مفهومه عن الحزب "الأداة التاريخية التي تصبح الطبقة من خلالها واعية بذاتها" ودشن أممية بدون أية قاعدة، ذات أهمية، فـي أيـة حركـة عمالية.

بحث تروتسكى فى البداية عن قوي جديـدة، ولكـن المجموعات التروتسكية كانـت صـغيرة ومعزولـة بقـوة الستالينينة ومحصورة في وجودهـا الاجتمـاعي فـي فئـة إنتلجنسيا البرجوازية الصغيرة.

كيف كان يمكن الخروج من ذلك المأزق، كيف كان يمكن بلترة التروتسكية وجذب أعدادا واسعة من العمال، لبناء أحزاب شيوعية جديدة ؟. لقد كان هناك صعاب هائلـة فـي ذلك الطريق. فلقد كان من الآثار البعيدة المدى للهزيمة فـي ألمانيا هو خلق شعور عام بين مناضلي الحركـة العماليـة بأهمية الوحدة، حتى أن الدعوة إلـي أحـزاب جديـدة، أي انشقاقات جديدة، كانت تقع علـيهم وقوعهـا علـي الأرض الصخرية. كان تروتسكى رائد الدعوة إلي الجبهة العماليـة المتحدة ضد الفاشية، ولكن ما أن بدأت هذه الدعوة تكتسـب أرضية في الأحزاب الاشتراكية بعد ١٩٣٣ (وبعد قليل فـي

الأحزاب الشيوعية أيضا)، حتى ظهـر أنصـار تروتسـكى كانشقاقيين، لقد كانوا يدعون إلي أحـزاب جديـدة وأمميـة جديدة. وهكذا وطدت عزلتهم.

وبعدما فشلت محاولات أولية للالتقاء مع تجمعـات "وسطية" ويسارية إصلاحية عديدة (كان نتاجها كتابات غنية لتروتسكى في السجال ضد الوسـطية)، أقتـرح تروتسـكى خطوة خطيرة وهى الـدخول فـي الأحـزاب الاشـتراكية الديمقراطية.

وللدقة، فإن تلك الخطوة طرحت فقط لحالات معينـة - في البداية فرنسا (ومن هنـا أتـت تسـميته "***المنعطـف الفرنسي***") - ولكنها عممت في التطبيق. كانت الحجة هي أن الاشتراكيين الديمقراطيين يتجهون إلي اليسار وهكذا يخلقون مناخ أفضل للعمل الثوري، وأنهم يجذبون شرائح جديدة من الطبقة العاملة وهكذا يمثلون مناخا بروليتاريا أكثر بمـا لا يدعو للمقارنة من مجـال الحركـة المتـوفر للمجموعـات التروتسكية المعزولة.

كانت النظرة الأساسية إلي هذه العملية علـي أنهـا خطوة قصيرة الأجل: الدخول في تلك الأحزاب، ثم صـراع

عنيف مع الوسطيين والإصلاحيين، ثـم الانشـقاق وخلـق الحزب. ***"إن الدخول في حزب إصلاحي أو وسطي في حـد ذاته لا يشمل منظور طويل الأمد. إنها فقط مرحلة يمكن أن تختصر تحت ظروف معينة إلي واقعة عرضية"*** (٢٤).

ولكن تلك العمليـة أخفقـت فـي تحقيـق هـدفها الإستراتيجي، فلقد فشلت في تغيير ميزان القوي وفي تحسين التكوين الاجتماعي للمجموعات التروتسكية. كانت الأسـباب الرئيسية للفشل هي عواقـب الهزيمـة الألمانيـة وتحـول الكومنترن أولا إلي الجبهة المتحدة (١٩٣٤) ثم إلي الجبهة الشعبية (١٩٣٥) ونتائجها التي أدت إلى الانـزلاق لليمـين للحركة العمالية بأسرها. بالإضافة إلي ذلك، كانـت حملـة ستالين ضد تروتسكى قد نجحت فـي تصـوير تروتسـكى ومؤيديه علي أنهم عملاء للفاشية.

ببساطة فإن الظروف التي جعلت بإمكان الثوريين أن يكسبوا أحزاب وسطية جماهيرية متجهة يسارا مثل الحزب الألماني وأغلبيـة الاشـتراكيين الفرنسـيين فـي ١٩١٩ - ١٩٢٠، لم يكن لها أي وجود في ١٩٣٤ - ١٩٣٥. إن تأثير أي أخطاء ارتكبها تروتسـكى ومؤيـدوه أثنـاء المنعطـف

الفرنسي تصبح تافهة إذا ما قورنت بتأثير الأوضـاع غيـر الملائمة.

ولكن بعض الفوائد المفترضة من ذلك التكتيـك قـد تحققت، فمثلا القطع مع كثيـر ممـن دعـاهم تروتسـكى "*الانشقاقيين المحافظين*" الذين لم يسـتطيعوا التوافـق مـع السياسة النشطة

نحو أواخر ١٩٣٣ كتب تروتسكى:

"لا تستطيع منظمة ثورية أن تتطور بدون تطهير نفسها، بالذات تحت ظروف العمل القانوني حين يحدث أن يتجمـع تحت لواء الثورة عناصر غريبة ومنحطـة... نحـن علـي أبواب منحني ثوري هـام. وفـي تلـك اللحظـات تصـبح الانشقاقات والأزمات الداخلية محتومـة. أن الخـوف منهـا يساوي استبدال السياسة الثورية بعاطفية البرجوازية الصغيرة والمخططات الشخصية.

إن العصبة (المجموعة التروتسكية الفرنسية) تمر بأول أزمة تحت معايير ثورية واضحة، وتحت هـذه الظـروف يصبح انشقاق جزء من العصبة خطوة عظيمة إلي الأمـام. سوف تطرح جانبا كل ما هو مريض. كسيح وعقيم، وسوف

تعطي درسا لكل العناصر المترددة المائعـة، وتزيـد مـن صلابة القسم الأفضل من الشباب. سوف تحسن مـن منـاخ العمل، وتفتح أمام العصبة آفاقا جديدة وعظيمة.(٢٥)

بدون شك كان كل هذا صحيحا علي مستوي المبدأ، وعمليا تم ضم عناصـر جديـدة مـن منظمـات الشـباب الاشتراكية لتحل محل أولئك الذين تم استبعادهم (أو بالأحرى تساقطوا) ولكن رغم ذلك ظل ميزان القوي علـي حالـه - ضعف اليسار الثوري الشديد. ماذا إذن؟

دفع تروتسكى في طريق إنشاء الأممية الرابعة، بعد أن كان قد كرر مرارا أن ذلك لا يمكـن أن يكـون هـدفا مباشرا بسبب عدم وجود القوى التي يمكنها تحقيـق ذلـك. فحتى ١٩٣٥ كان يهـاجم الفكـرة السـخيفة القائلـة بـأن "***التروتسكيين يريدون أممية رابعة الخميس القادم***"، وفي أقل من سنة كان يطرح إنشاء الأممية الجديدة.

في ذلك الحين لم يستطع إقناع مؤيديه، لكن بحلـول ١٩٣٨ كان قد جذبهم إلي صفه. كانـت القـوى الملتصـقة بالأممية الرابعة في ١٩٣٨ أضعف من تلك الموجـودة فـي ١٩٣٤ (باستثناء حزب العمال الاشتراكي الأمريكي)، وكانت

الثورة الأسبانية قد خنقت. برر تروتسكى موقفـه بتراجـع جزئي إلى شبه العفوية التي كان يدعو إليهـا قبـل ١٩١٧، وبالتشبه بموقف لينين في ١٩١٤.

كتب تروتسكى في ١٩٣٨:

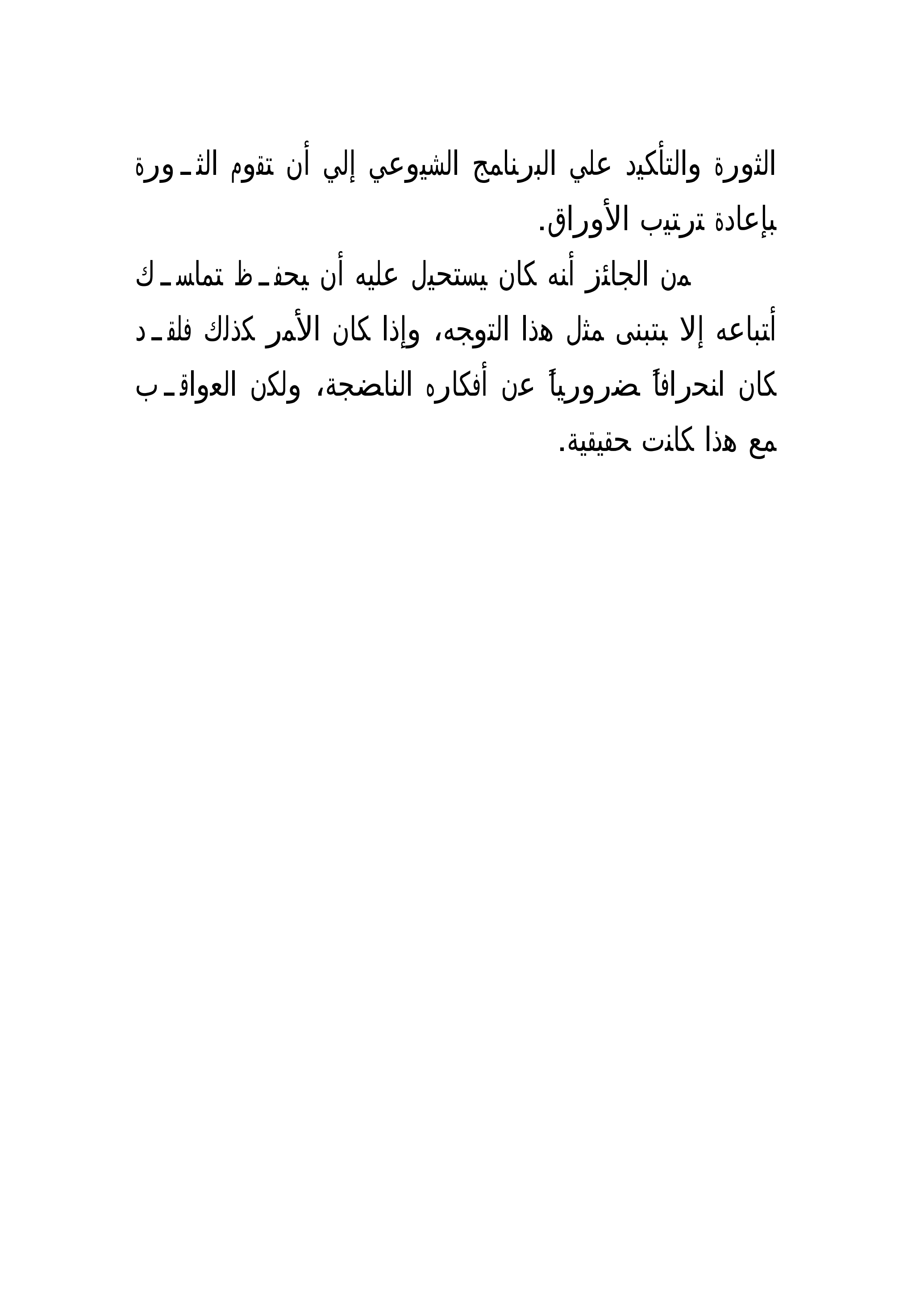
"إننا نري بجلاء أكثر من منتقدينا الفجوة ما بين قوتنـا وأهدافنا الحالية، ولكن الجدلية المأساوية القاسية لهذه المرحلة تعمل لصالحنا. فعندما تصل الجماهير إلي أقصـي درجـات السخط والنقمة لن تجد بديلا لقيادة الأممية الرابعة"(٢٧).

لقد أثبتت دروس أعـوام ١٩١٧ إيجابيـاً، و ١٩١٨ - ١٩١٩ سلبياً وقبل كل شيء دروس الثورة الأسـبانية فـى ١٩٣٦ ، أنه لا غني عن أحزاب ثورية متجذرة في الطبقـة العاملة من خلال الصراع الطويل حول مطالب جزئية، وكان تروتسكى يدرك ذلك جيدا، لكنه الآن وبسبب غيـاب تلـك الأحزاب، ولأن هذه الأحزاب لم تكن موجودة والحاجة لهـا كانت شديدة الإلحاح تبنى تروتسكى رؤية أن انفجار الثورة نفسه سيخلق من الحركة الغاضبة والعفوية للجمـاهير هـذه الأحزاب طالما رفعت راية ثورية نقية. وسـيرفع الانفجـار

العفوي خلال الحرب و بعدها بقليل قيادات فصائل الأممية الرابعة المعزولة وقليلة الخبرة إلى قيادات أحزاب جماهيرية.

أما عن التشبه بموقف لينين في ١٩١٤ عندما أعلن "إن الأممية الثانية قد ماتت، فلتحيا الأممية الثالثة" فلقد كان خطئاً مزدوجا، فلينين عندما أعلن ذلك كان بالفعل أقوي القادة لحزب جماهيري حقيقي في دولة كبيرة، على الرغم من ذلك لم يفكر لينين بإنشاء الأممية الثالثة إلا بعد سنه ونصف من ثورة أكتوبر عندما كانت هناك حركة جماهيرية ثورية متصاعدة في أوربا. إن تجاهل تروتسكى لكل ذلك هو نتيجة لإرادته الثورية الشديدة ولكن النتيجة السياسية لذلك كان التشوش والتخبط لأتباعه عندما حدث بعد موت تروتسكى صعود حقيقي للجماهير ولم يتمكنوا من التأثير فيه بسبب عزلتهم وصغر حجمهم وأدى ذلك أيضاً إلى الصعوبة الشديدة التي واجهوها في تطوير توجه ثوري واقعي.

كان هناك عنصراً ذاتياً غاية فى الأهمية في رؤية تروتسكى في تلك الفترة ، التى شهدت صعود الفاشية وتراكم هزائم الحركة العمالية . ففي موقفه شديد الصعوبة ووجود حرب عالمية جديدة علي الأبواب، كان يجب رفع لواء



الثورة والتأكيد علي البرنامج الشيوعي إلي أن تقوم الثورة بإعادة ترتيب الأوراق.

من الجائز أنه كان يستحيل عليه أن يحفظ تماسك أتباعه إلا بتبنى مثل هذا التوجه، وإذا كان الأمر كذلك فلقد كان انحرافاً ضرورياً عن أفكاره الناضجة، ولكن العواقب مع هذا كانت حقيقية.

الفصل الخامس

الإرث

إن جوهر التراجيديا، كما كتب تروتسكى ذات مرة، هو التفاوت بين الأهداف العظيمة والوسائل الضئيلة. مهمـا يمكن القول عن هذا التعميم فإنـه بالتأكيـد يلخـص محنـة تروتسكى في السنوات الأخيرة من حياته. فالرجل الذي نظم فعليا انتفاضة أكتوبر والذي قاد عمليات الجيش الأحمر، الذي تعامل كصديق أو كعدو.. مع الأحزاب العمالية الجماهيريـة (ثورية وإصلاحية) من خلال الكومنترن، كان الآن يناضـل فقط من أجل أن تبقي معاً مجموعات صغيرة جدا متفرقـة، كلها غير قادرة علي التأثير في مجري الأحداث، حتى بشكل هامشي. لقد اضطر لأن يتدخل مرة بعد أخري فـي مئـات النزاعات الصغيرة داخل عدد من المجموعـات الصـغيرة، تضمنت بعض تلك النزاعات، بالفعل، مسـائل هامـة عـن المبادئ السياسية ولكن حتـى هـذه النزاعـات، كمـا رأي تروتسكى ذاته بوضوح، كانت تجد جـذورها فـي عزلـة المجموعات عن الحركة الحقيقية للطبقة العاملة وتأثير المناخ البرجوازي الصغير - لأن هذا هو المناخ الذي نشطوا فيـه، والذي تأقلم عليه الكثيرون منهم.

رغم كل ذلك، ناضل تروتسكى حتى النهاية؟. أثرت عزلته المفروضة عن المشاركة الفعالة في الحركة العمالية، التي لعب فيها يوما ما دورا كبيرا، أثرت لحد ما علي فهمـه للمجري المتغير دائما للصراع الطبقي. لم تكن حتى خبرته الواسعة ولمحاته التكتيكية المتفوقة لتغني تماما عن التفاعـل مع المناضلين المشتركين في الصراع اليومي، الأمر الذي لا يمكن حدوثه إلا في حزب شيوعي حقيقي. ولكلما طالت فترة العزلة كلما وضح ذلك أكثر. قارن مـثلا بـين "البرنـامج الانتقالي" الذي كتبـه فـي ١٩٣٨ وبـين برنـامج العمـل المخصص لفرنسا (١٩٣٤) فالأخير متفوق بوضـوح فـي نضارته، وفي علاقته الوثيقة بالموضوع، فـي خصوصـيته وواقعيته بالنظر إلي الصراع الحقيقي.

لم تكن هذه بالتأكيد مسألة إخفاق في القوة الفكريـة فبعض أعمال تروتسكى الأخيرة التي لـم يكملهـا، خاصـة "النقابات العمالية في حقبة التفسخ الإمبريالي" تعتبر إضافات رائعة للفكر الماركسي. ولكنها كانت مسألة غيـاب للعلاقـة الوثيقة مع أعداد مهمة من المناضلين المشتركين في الصراع الحقيقي.

إلا أنه عندما قُتل تروتسكى علي يد عميـل سـتالين جاسكون - ميركادير كان بالفعل قد ترك وراءه حركة. مهما كان ضعف وفشل هذه الحركة، وهما أمران واضحان، كانت تعد إنجازاً عظيما. لقد كاد نمو الستالينية ثم انتصار الفاشـية في معظم أوروبا أن يقضي تماما علي التـراث الشـيوعي الحقيقي في الحركة العمالية. كان تدمير الفاشية مباشراً. لقـد دمرت التنظيمات العمالية حيثما وصـلت للسـلطة. فعلـت الستالينية نفس الشيء بوسائل مختلفة داخل الاتحاد السوفيتي وخارج الاتحاد السوفيتي أفسدت الستالينية ثم خنقـت فعليـا التراث الثوري كحركة جماهيرية.

يصعب اليوم تقدير القوة الكاملة للسيل الجارف مـن الافتراء والسب الذي تعرض له تروتسـكى وأتباعـه فـي الثلاثينات. لقد خصصت موارد الدعاية في الاتحاد السوفيتي وأحزاب الكومنترن، بالكامل، لإدانة "التروتسكيين" (الحقيقيين والزائفين) كعملاء لهتلر والإمبراطور الياباني وكـل أنـواع الرجعية. لقد وصف ذبح البلاشـفة القـدامى فـي الاتحـاد السوفيتي (بعضهم بعد محاكمات "***مسرحية***" رائعة، ومعظمهم بالقتـل دون محـاكمتهم)، كانتصـار لقـوي "***الاشـتراكية***"

و"السلام" بناء علي الشعار الستاليني وقتذاك "كل خـائن - ضعيف، فاسد أو طموح - للاشتراكية في الاتحاد السوفيتي قد أُجر ليقوم بالأعمال القذرة للرأسمالية والفاشية".

هكذا أعلن تقرير اللجنة المركزية المقدم للمؤتمر ال ١٥ للحزب الشيوعي الإنجليزي في ١٩٣٨:

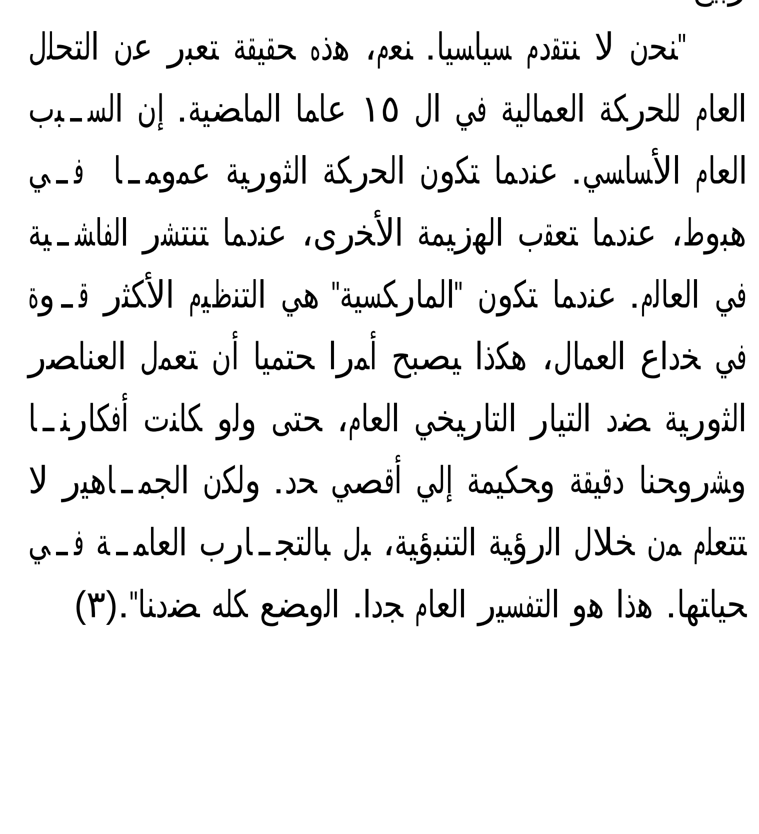
"في مقدمة التحطيم والتخريب والاغتيـال نجـد دائمـاً العميل الفاشي تروتسكى. ولكن دفاعات الشـعب السـوفيتي قوية. فتحت قيادة الرفيق البلشـفي يزهـوف، تـم فضـح الجواسيس والعملاء أمام العالم وتقديمهم للمحاكمة".(١)

يزهوف هذا الذي وصل للساطة بعد قرار إعدام سلفه ياجودا، كان رئيس الشرطة الذي قام بعملية ذبح الشـيوعيين وآخرين كثيرين في الاتحاد السوفيتي فـي ١٩٣٧- ١٩٣٨ في قمة الإرهاب الستاليني.

الخط الرسمي، الذي أعلنه ستالين بنفسـه، كـان إن "***التروتسكية هي رأس حربة البرجوازية المضادة للثـورة، التي تشن الصراع ضد الشيوعية***"(٢). واستمرت هذه الحملة الجبارة من الأكاذيب يساندها الكثيـرون مـن "***الليبـراليين***" والاشتراكيين الديمقراطيين الذين انجذبوا للأحزاب الشيوعية

بعد ١٩٣٥، أكثر من عشرين عاما. ساعدت هذه الحملة علي تلقيح المناضلين في الأحزاب الشيوعية ضد النقد الماركسي للستالينية. وهناك أيضا أمر آخر علي الأقل يتساوى في الأهمية مع ما ذكرناه بالنسبة للتنظيمات الثورية الصغيرة في ذلك الوقت وهو الإحباط العام الذي ترسب نتيجة لانهيار الجبهات الشعبية وقدوم الحرب العالمية الثانية.

عبر تروتسكى عن كل هذا في النقاش الذي دار في ربيع ١٩٣٩:



"نحن لا نتقدم سياسيا. نعم، هذه حقيقة تعبر عن التحلل العام للحركة العمالية في ال ١٥ عاما الماضية. إن السبب العام الأساسي. عندما تكون الحركة الثورية عموما في هبوط، عندما تعقب الهزيمة الأخرى، عندما تنتشر الفاشية في العالم. عندما تكون "الماركسية" هي التنظيم الأكثر قوة في خداع العمال، هكذا يصبح أمرا حتميا أن تعمل العناصر الثورية ضد التيار التاريخي العام، حتى ولو كانت أفكارنا وشروحنا دقيقة وحكيمة إلي أقصي حد. ولكن الجماهير لا تتعلم من خلال الرؤية التنبؤية، بل بالتجارب العامة في حياتها. هذا هو التفسير العام جدا. الوضع كله ضدنا".(٣)

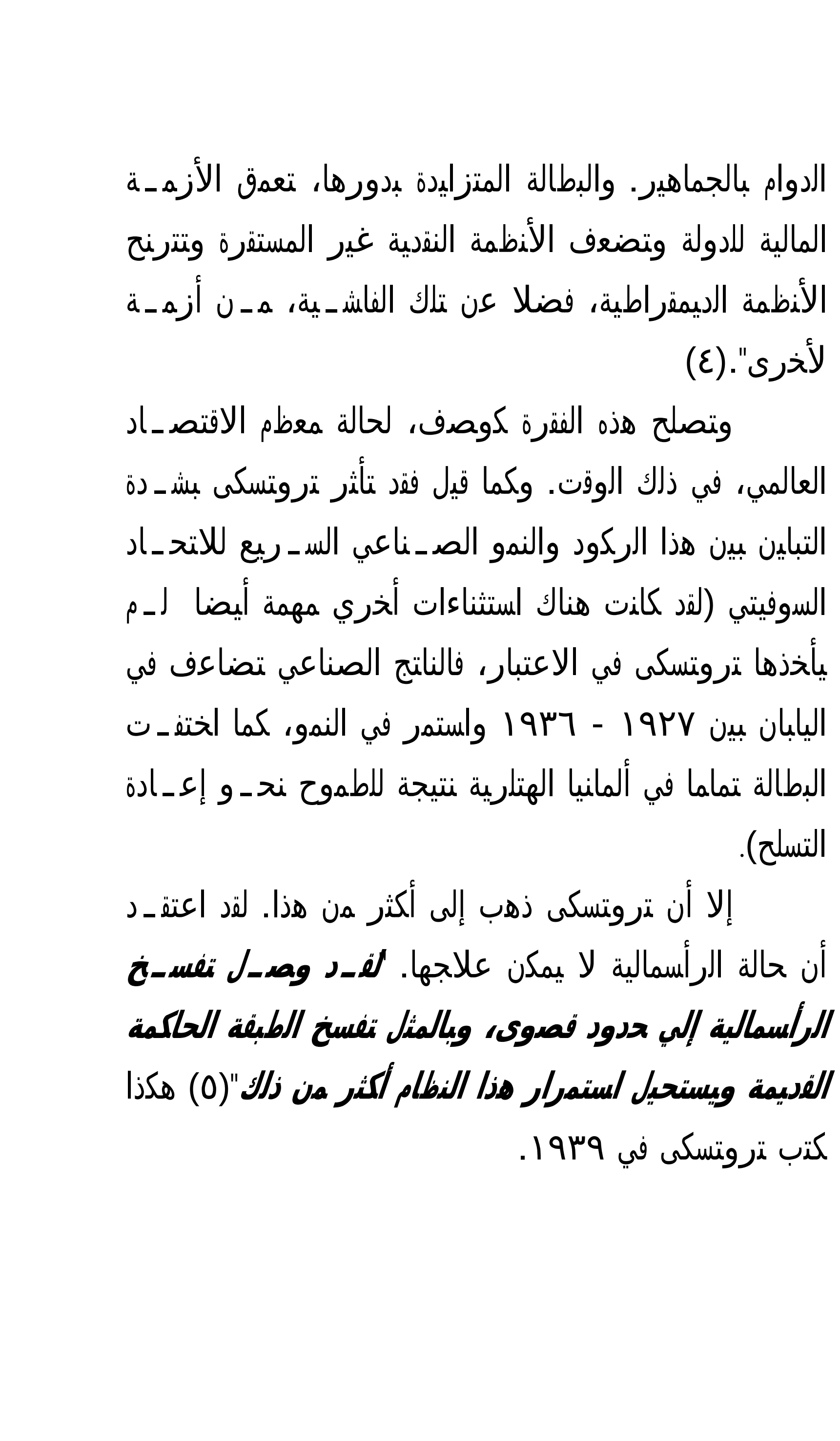
لقد كانت حركة الأممية الرابعة التي نجت من تلـك الظروف شديدة الصعوبة تحت إلهام تروتسـكى وتوجيهـه خائفة سياسيا من التجربة بدرجة كبيرة. وقد دخلت تباعاً في المزيد من التشوهات. ولكن، علي كل الأحوال، كانت هـي التيار الشيوعي الحقيقي الوحيد الـذي نجـا مـن العصـر الجليدي.

الرؤية العالمية ١٩٣٨ - ١٩٤٠

مثل الاعتقاد بأن النظام الرأسمالي قريب من نَفسـه الأخير مركز رؤية تروتسكى للعالم في أعوامه الأخيرة.

"إن الشرط المسبق الاقتصادي للثورة البروليتارية قـد وصل عموما إلي أعلي نقاط نضجه التي يمكـن الوصـول إليها في ظل الرأسمالية. إن قوي إنتاج البشرية فـي حالـة ركود. ولم تعد الاختراعات والتحسينات الجديدة قادرة علـي رفع مستوي الثروة المادية" هكذا كتب تروتسكى في برنامج ١٩٣٨:

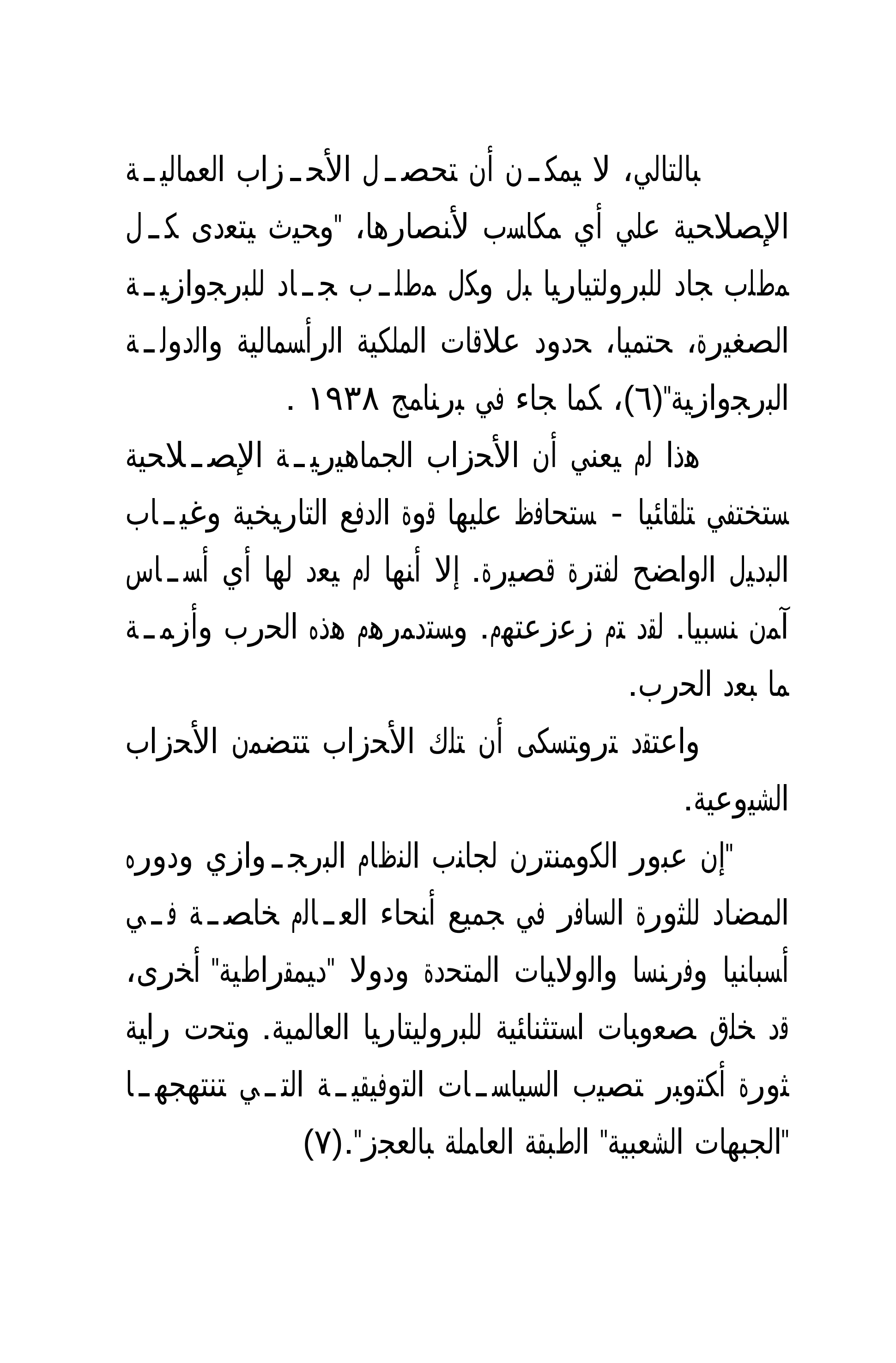
"الأزمات المتضافرة في ظل ظروف الأزمة الاجتماعية للنظام الرأسمالي ككل، تُنزل حرمانا ومعاناة أكثـر علـي،



الدوام بالجماهير. والبطالة المتزايدة بدورها، تعمق الأزمة المالية للدولة وتضعف الأنظمة النقدية غير المستقرة وتترنح الأنظمة الديمقراطية، فضلا عن تلك الفاشية، من أزمة لأخرى".(٤)

وتصلح هذه الفقرة كوصف، لحالة معظم الاقتصاد العالمي، في ذلك الوقت. وكما قيل فقد تأثر تروتسكى بشدة التباين بين هذا الركود والنمو الصناعي السريع للاتحاد السوفيتي (لقد كانت هناك استثناءات أخري مهمة أيضا لم يأخذها تروتسكى في الاعتبار، فالناتج الصناعي تضاعف في اليابان بين ١٩٢٧ - ١٩٣٦ واستمر في النمو، كما اختفت البطالة تماما في ألمانيا الهتلرية نتيجة للطموح نحو إعادة التسلح).

إلا أن تروتسكى ذهب إلى أكثر من هذا. لقد اعتقد أن حالة الرأسمالية لا يمكن علاجها. "***لقد وصل تفسخ الرأسمالية إلي حدود قصوى، وبالمثل تفسخ الطبقة الحاكمة القديمة ويستحيل استمرار هذا النظام أكثر من ذلك***"(٥) هكذا كتب تروتسكى في ١٩٣٩.



بالتالي، لا يمكن أن تحصل الأحزاب العمالية الإصلاحية علي أي مكاسب لأنصارها، "وحيث يتعدى كل مطلب جاد للبروليتاريا بل وكل مطلب جاد للبرجوازية الصغيرة، حتميا، حدود علاقات الملكية الرأسمالية والدولة البرجوازية"(٦)، كما جاء في برنامج ١٩٣٨ .

هذا لم يعني أن الأحزاب الجماهيرية الإصلاحية ستختفي تلقائيا - ستحافظ عليها قوة الدفع التاريخية وغياب البديل الواضح لفترة قصيرة. إلا أنها لم يعد لها أي أساس آمن نسبيا. لقد تم زعزعتهم. وستدمرهم هذه الحرب وأزمة ما بعد الحرب.

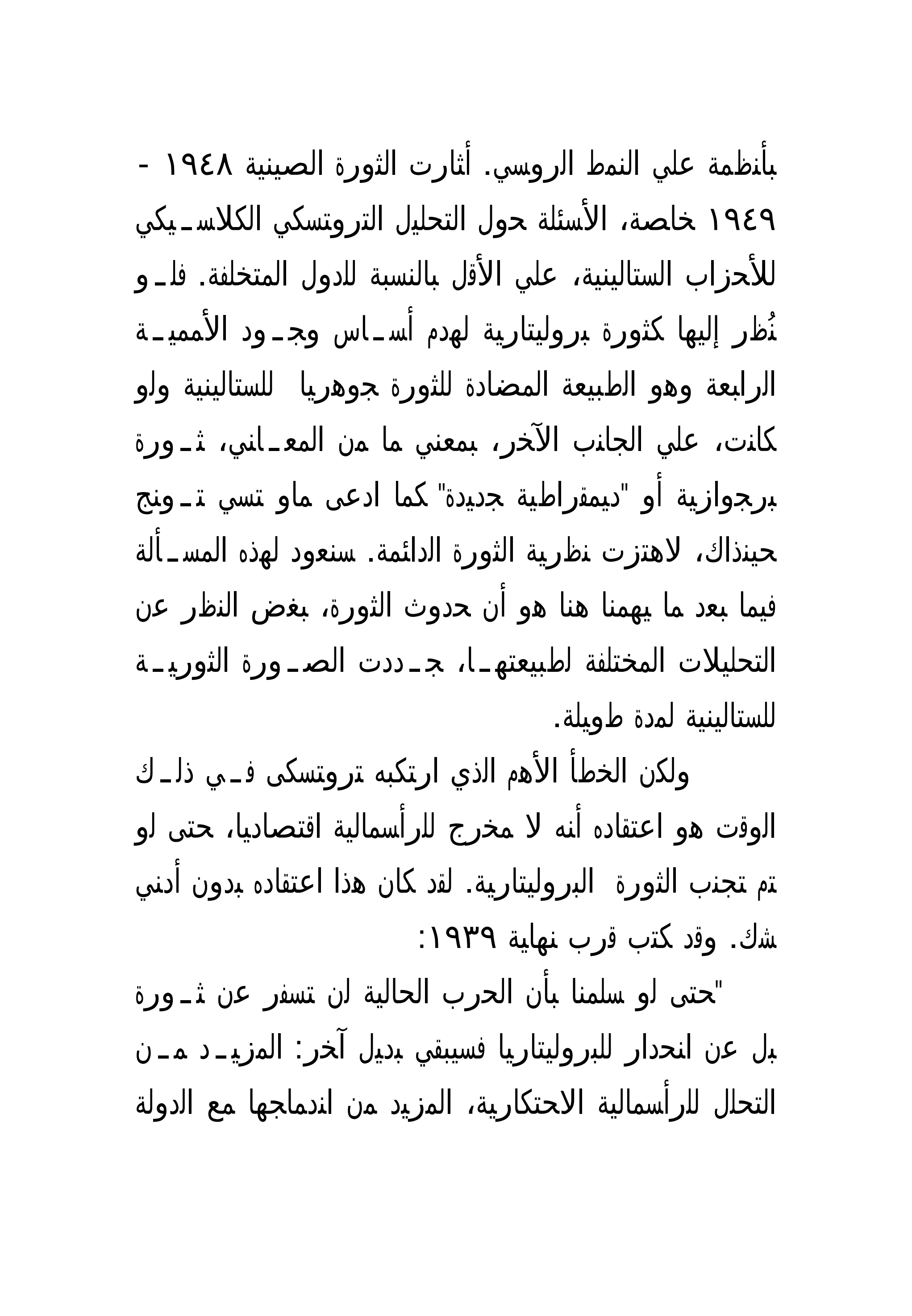
واعتقد تروتسكى أن تلك الأحزاب تتضمن الأحزاب الشيوعية.

"إن عبور الكومنترن لجانب النظام البرجوازي ودوره المضاد للثورة السافر في جميع أنحاء العالم خاصة في أسبانيا وفرنسا والولايات المتحدة ودولا "ديمقراطية" أخرى، قد خلق صعوبات استثنائية للبروليتاريا العالمية. وتحت راية ثورة أكتوبر تصيب السياسات التوفيقية التي تنتهجها "الجبهات الشعبية" الطبقة العاملة بالعجز".(٧)

لقد حمل تروتسكى منذ ١٩٣٥ الاعتقاد بأن "لا شيء الآن يفرق الشيوعيين عـن الاشـتراكيين الـديمقراطيين إلا الخطاب التقليدي الذي يسهل تجاهله".(٨)

أثبت الواقع أنه أكثر تعقيداً ، وهذا الأمر عجل أخيـرا بأزمة جوهرية في حركة الأممية الرابعة لقد كان تروتسـكي يشير إلى اتجاه حقيقي إلا أن المدة الزمنية لهذا الاتجاه كانت أطول بكثير مما تصور تروتسكي. بعد حلف هتلر – ستالين (أغسطس ١٩٣٩) ظلت أحزاب الكومنترن موالية لموسكو. وفي الحرب الباردة " منذ أواخـر ١٩٤٨ لـم تسـلم تلـك الأحزاب لبروجوازيتها أيضا لم تكن سياساتهم ثورية ولكنها لم تكن ببساطة إطلاحية بالمعنى المعتاد. لقد حافظوا، قرابـة ٢٠ عاما علي توجه "***يساري***" تجاه الدولة البرجوازية (دعـم ذلك استبعادهم عن الحكومة في فرنسا وإيطاليا وبلاد أخرى بعد ١٩٤٧) الأمر الذي صعب جدا مهمة خلق بديل ثوري، حتى لو كانت الظروف الأخرى أكثر مناسبة .

وفي حالة مهمة واحدة وهى الصين، وحالات أقـل (من ضمنهم ألبانيا ويوغوسلافيا وفيتنام الشـمالية، حطمـت بالفعل أحزاب ستالينية دولا برجوازية ضـعيفة واسـتبدلتهم



بأنظمة علي النمط الروسي. أثارت الثورة الصينية ١٩٤٨ - ١٩٤٩ خاصة، الأسئلة حول التحليل التروتسكي الكلاسيكي للأحزاب الستالينية، علي الأقل بالنسبة للدول المتخلفة. فلو نُظر إليها كثورة بروليتارية لهدم أساس وجود الأممية الرابعة وهو الطبيعة المضادة للثورة جوهريا للستالينية ولو كانت، علي الجانب الآخر، بمعني ما من المعاني، ثورة برجوازية أو "ديمقراطية جديدة" كما ادعى ماو تسي تونج حينذاك، لاهتزت نظرية الثورة الدائمة. سنعود لهذه المسألة فيما بعد ما يهمنا هنا هو أن حدوث الثورة، بغض النظر عن التحليلات المختلفة لطبيعتها، جددت الصورة الثورية للستالينية لمدة طويلة.

ولكن الخطأ الأهم الذي ارتكبه تروتسكى في ذلك الوقت هو اعتقاده أنه لا مخرج للرأسمالية اقتصاديا، حتى لو تم تجنب الثورة البروليتارية. لقد كان هذا اعتقاده بدون أدني شك. وقد كتب قرب نهاية ١٩٣٩:

"حتى لو سلمنا بأن الحرب الحالية لن تسفر عن ثورة بل عن انحدار للبروليتاريا فسيبقي بديل آخر: المزيد من التحلل للرأسمالية الاحتكارية، المزيد من اندماجها مع الدولة

واستبدال الديمقراطية أينما بقيت بنظام شمولي يمكن حقيقـة أن يسفر عجز البروليتاريا عن الأخذ بزمام قيادة المجتمـع، في ظل هذه الظروف، إلي نمو طبقة مسـتغلة جديـدة مـن البيروقراطية البونابرتية الفاشية هذا سيكون إذا أخـذنا فـي الاعتبار كل الدلائل، نظام ينحدر يعطي الإشـارة بخسـوف شمس الحضارة" (٩).

كان يمكن لتروتسكى أن يوافق علي إمكانية انتعاش اقتصادي مؤقت ما علي أساس دوري. لقد لمـح تروتسـكى قبل غيره الصحوة المحدودة في الرأسمالية الأوروبيـة فـي ١٩٢٠ - ١٩٣١ (واستخلاص النتائج السياسية مـن ذلـك) وأشار إلي صحوة معينة في بداية الثلاثينات بعـد مصـائب ١٩٢٩-١٩٣١ ولكنه استبعد تماما إمكانية صعود اقتصادي طويل الأمد مثل ذلك الذي نتجت عنـه الإصـلاحية كقـوة جماهيرية قبل الحرب العالمية الأولي. لقد كانت وجهه نظر تروتسكى وجهة نظر منتشرة داخل صفوف اليسار في ذلـك الوقت. ولكن كانت هناك دلائل حتى في ذلك الوقت علي أن إنتاج الأسلحة في نطاق واسع يمكن أن يـؤدي إلـي نمـو اقتصادي شامل - نمو لم يكن ليقتصر علي قطاع الأسـلحة

في الاقتصاد. بالطبع كانت هذه الدلائل متعلقة بالاستعدادات المباشرة للحرب العالمية الثانية. ولكن ماذا لو إن الإعداد للحرب يمكن أن يكون دائما أو شبه دائم ؟.

في الحقيقة، بعد الحرب العالمية الثانية، شهدت الرأسمالية صحوة جبارة، وبعيدا جدا عن سيطرة الانكماش والانحدار الاقتصادي، كان هناك توسعا اقتصاديا أكبر من التوسع في الفترة الكلاسيكية للإمبريالية قبل ١٩١٩. وكما أشار "***مايكل كيدرون***" في ١٩٦٨، "فالنظام ككل لم ينم أبدا بنفس السرعة التي نما بها بعد الحرب - ضعف سرعة ١٩١٣ - ١٩٥٠ في الفترة بين ١٩٥٠ -١٩٦٤" (١٠).

حصلت الإصلاحية علي صك حياة جديد في الدول الرأسمالية المتطورة علي أساس ارتفاع مستوي حياة جماهير الطبقة العاملة. لقد كان هناك اختلاف بين الإصلاحيين والماركسيين حول كون الانتعاش الاقتصادي الجبار في الخمسينات والستينات أساسا نتيجة إنفاق الدولة المتزايد بضخامة (بالتحديد الإنفاق علي الأسلحة) أم لا، ولكن ما كان يجمع عليه الجميع هو أن نبوءة تروتسكي كانت خاطئة.

فالنتائج السياسية للانتعاش كذبت التنبؤ بأن البـدائل المباشرة كانت إما الثورة البروليتارية أو الدكتاتورية الفاشية أو البونابرتية التي ستؤدي إلي "***خُسوف شمس الحضارة***".

علي العكس، أصـبحت الديمقراطيـة البرجوازيـة وسيطرة الإصلاحية علي الحركة العمالية هي القاعدة مـرة أخري في معظم الدول المتطورة.

مثلت نجاة الأنظمة البرجوازية من الهبات الكبـرى في ١٩٤٤-١٩٤٥، عندما كانـت الـدول الفاشـية تحطـم بواسطة مزيج من القوة العسكرية للحلفاء ونمو متصاعد من التمرد الجماهيري، شرطا لاغني عنه في مثل هذا التطـور اللاحق. في معظم الدول الأوروبية نمت الأحزاب الاشتراكية الديمقراطية والشيوعية بسرعة في هـذه الحقبـة الحرجـة ليلعبوا دورا مضادا للثورة (في شرق وغـرب أوروبـا) ودورا حاسما كذلك معادى للثورة في فرنسا وإيطاليا. إلا أن تروتسكى سلم بأنه في المراحل الأولـي للثـورة سـتنتعش الأحزاب العمالية الموجودة بالفعل (وتكفي كتاباته عن الثورة الروسية لتؤكد ذلك تماما) وستمارس سياستها المضادة للثورة ولأن رؤية تروتسكى كانت تعتمد على الكارثة الاقتصـادية،

الإفقار الجماهيري ونمو الأنظمة الشمولية كالبـديل الوحيـد للثورة البروليتارية في الأمد القصير، فإنه اعتقد أن انتعـاش الإصلاحية سيكون قصير للغاية - مثل فترة حكم كيرنسكي.

هذا هو السبب الذي جعله يكتب بمنتهى الثقـة فـي أواخر ١٩٣٨، "خلال العشر سنوات القادمة سيصبح برنامج الأممية الرابعة موجهاً للملايين وسـتعرف هـذه الملايـين الثورية كيف تزلزل السماء والأرض".(١١)

جعل هذا المناخ من التوقعات الطوباوية التي أنتجته مثل هذه المقولات من الصعب علـي أتبـاع تروتسـكي أن يقيموا بواقعية ورصانة التحولات الحقيقية في وعي الطبقـة العاملة والتغيرات في توازن القـوي الطبقيـة، والتغيـرات التكتيكية اللازمة للاستفادة القصوى منها (وهذا هو جـوهر الممارسة السياسية للينين).

لابد أن نذكر هنا تركيز تروتسـكي علـي أهميـة "***المطالب الانتقالية***" التي سمي بها برنامج ١٩٣٨:

"من الضروري مساعدة الجماهير في عمليـة النضـال اليومي لنوجد المعبر بـين المطالـب الحاليـة والبرنـامج الاشتراكي للثورة. لابد أن يتضمن هذا المعبر نظاما للمطالب

الانتقالية النابعة عن ظروف اليوم ووعي شرائح واسعة مـن الطبقة العاملة اليوم تؤدي بوضوح لاستنتاج نهـائي محـدد: استيلاء البروليتاريا علي السلطة".(١٢)

مسألة ما إذا كان من الممكن أم لإيجاد شـعارات أو مطالب تتماشى مع هذه الخصوصيات المحددة جدا تعتمـد بالطبع علي الظروف. فلو كان وعي شرائح واسعة في وقت ما هو وعي غير ثوري فلن يكون ممكناً تغييره بالشعارات. يتطلب الأمر تغيرات في الظروف الواقعية.

إن المسألة في كل مرحلة هي التوصل إلى والـدفع بتلك الشعارات التي لن تضرب فقط علي وتر حساس لـدي بعض قطاعات الطبقة العاملة (أو الطبقة العاملة كلها مثاليـاً) بل والتي تستطيع أن تدفعها إلى الحركة. كثيراً ما سـتكون تلك الشعارات غير انتقالية بتعريف تروتسكى الضيق جدا .

بالطبع لا يمكن أن نحمل تروتسكى مسـئولية ميـل معظم أتباعه لتصنيم فكرة المطالب الانتقالية بل والمطالـب الخصوصية في برنامج ١٩٣٨ وأكثرها بروزا هو "المقياس المنزلق للأجور". إلا أن تركيزه علي هذا الأمر كان زائـداً

عن اللازم وشجع الاعتقاد بأن لتاك "المطالب" قيمة مستقلة عن التنظيم الثوري في الطبقة العاملة.

الاتحاد السوفيتي والستالينية - الحرب والنتيجة

بدأت الحرب العالمية الثانية بالهجوم الألماني علي بولندا الذي سرعان ما أعقبه تقسيم أراضي دولة بولندا بين هتلر وستالين. ظل هتلر وستالين حلفاء قرابة العامين (من صيف ١٩٣٩ إلي صيف ١٩٤١). وفي تلك الفترة استطاع نظام ستالين أن يضم دول الباطيق وبوكوفينا وباساربيا بالإضافة لمعظم أوكرانيا الغربية وبيلو روسيا الغربية.

منذ ١٩٣٥ حتى ١٩٣٩ كانت السياسة الخارجية لستالين موجهة نحو تحقيق التحالف العسكري مع فرنسا وإنجلترا ضد هتلر. كانت سياسة "الجبهة الشعبية" هي الوجه الآخر لهذا التحالف. ومع مجيء تحالف هتلر - ستالين تحولت الأحزاب الشيوعية إلي موقف معادي للحرب، وهو موقف لا علاقة له بالثورية، إلي أن جاء هجوم هتلر علي الاتحاد السوفيتي (بعد ذلك أصبحت الأحزاب الشيوعية في دول الحلفاء شديدة الوطنية).

أنتج تحالف هتلر - ستالين وتقسيمه لبولندا حالة نفور داخل الحلقات اليسارية خارج الأحزاب الشيوعية (وعدد من الانسحابات من تلك الأحزاب أيضاً)، الأمر الذي كان له أثره أيضاً علي المجموعات التروتسكية. في أكبر تلك المجموعات، حزب العمال الاشتراكي الأمريكي بدأت تظهر معارضة لشعار تروتسكى ***"الدفاع غير المشروط عن الاتحاد السوفيتي ضد الإمبريالية***" وهو الشعار الناتج عن تعريفه للاتحاد السوفيتي كدولة عمالية منحطة، وبعد ذلك بقليل بدأت هذه المعارضة في إعادة التفكير في هذا التعريف ذاته.

وفي أثناء الجدل الذي أعقب ذلك أكمل تروتسكى تطوير تحليله للستالينية في الاتحاد السوفيتي وتعامل مع المواقف البديلة، بغرض نقدها.

"دعونا نبدأ بطرح التساؤل عن طبيعة الدولة السوفيتية لا علي الصعيد السوسيولوجي المجرد بل علي صعيد المهام السياسية المحددة، هكذا كتب تروتسكى في سبتمبر ١٩٣٩. دعونا نسلم للحظة بأن البيروقراطية هي طبقة جديدة وأن النظام الحالي في الاتحاد السوفيتي هو نظام خاص للاستغلال الطبقي. ما هي الاستنتاجات السياسية الجديدة التي ستتبع من

هذه التعريفات؟ لقد توصلت الأممية الرابعة منذ زمن لضرورة التخلص من البيروقراطية بواسطة انتفاضة ثورية للكادحين. لا يطرح، ولا يمكن أن يطرح هؤلاء الذين يدعون بأن البيروقراطية "طبقة" مستغلة شيء آخر فالهدف المنشود من الإطاحة بالبيروقراطية هو إعادة بناء حكم السوفييتات، طاردين منها البيروقراطية الحالية لا يقترح، ولا يمكن أن يقترح، المنتقدون اليساريون أي شيء آخر. إن مهمة السوفييتات العائدة مرة أخري للحياة. هي أن تتعاون مع الثورة العالمية وتبني المجتمع الاشتراكي. إن الإطاحة بالبيروقراطية تفترض أولا المحافظة علي ملكية الدولة والاقتصاد المخطط.. فطالما بقيت هناك علاقة بين مسألة الإطاحة بالأولجياركية الطفيلية والمحافظة علي ملكية الدولة، سنطلق علي الثورة المستقبلية اسم ثورة سياسية. إن بعض منتقدينا (سيلينا، برونو، وآخرين) يريدون، وليحدث ما يحدث، أن يطلقوا علي الثورة المستقبلية ثورة اجتماعية. فلنوافق علي هذا التعريف. ماذا سيغير هذا في جوهر الموقف؟ لن يضيف أي شيء علي الإطلاق لمهام الثورة التي حصيناها".(١٣)

يبدو هذا الرأي قويا جدا عند النظرة الأولي. ولكن ماذا إذن عن مسألة الدفاع عن الاتحاد السوفيتي؟

"إن الدفاع عن الاتحاد السوفيتي يتماشـى عنـدنا مـع الإعداد للثورة العالمية ويسمح فقط بتلك الوسـائل التـي لا تتعارض مع مصالح الثورة. إن الدفاع عن الاتحاد السوفيتي مرتبط بالثورة الاشتراكية العالمية كمهمة تكتيكيـة مرتبطـة بمهمة إستراتيجية. والتكتيك يخضع لهـدف اسـتراتيجي ولا يمكن أن يتناقض مع الأخير".(١٤)

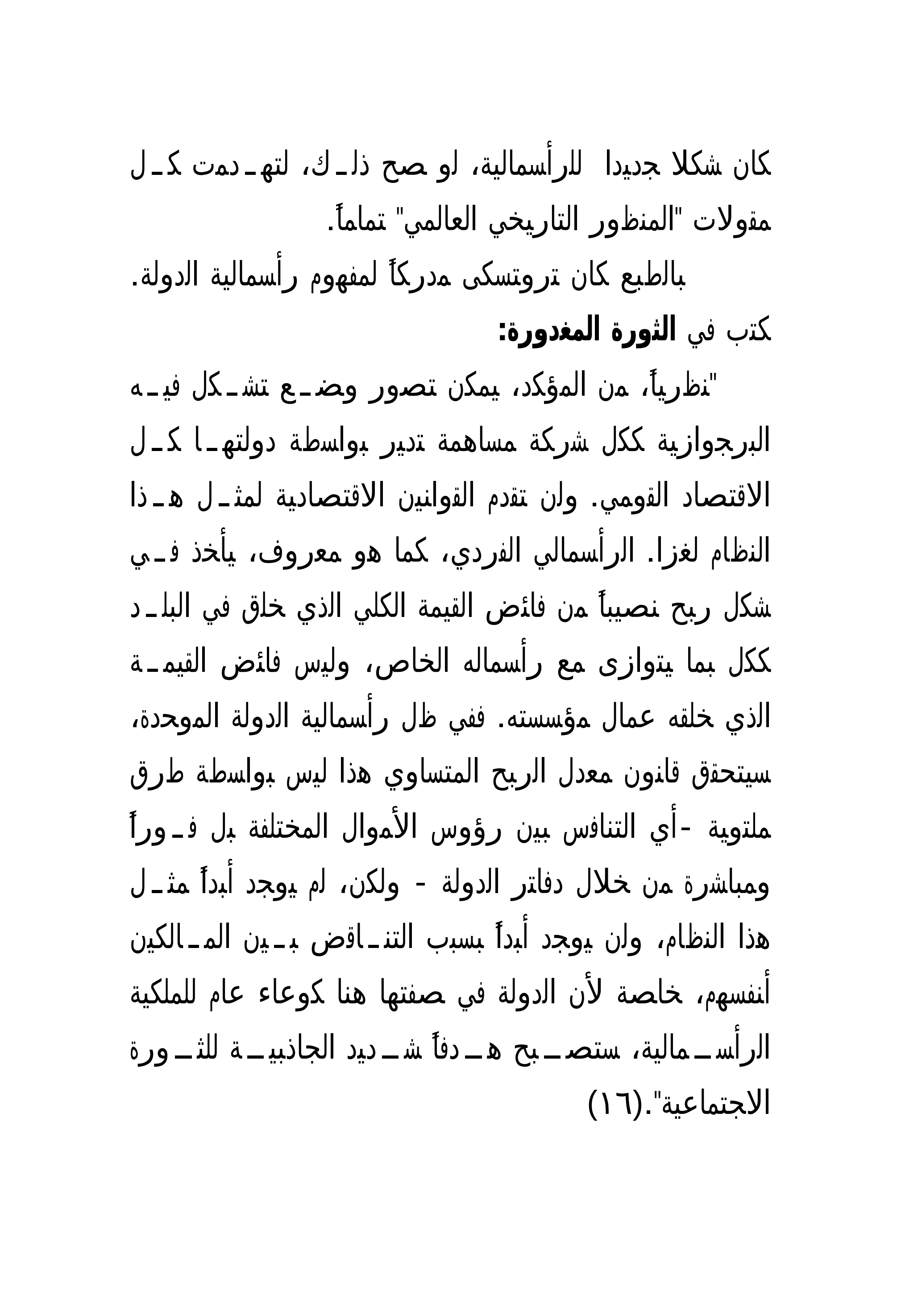
فلو دخلت متطلبات العملية التكتيكية في تعارض مع الهدف الاستراتيجي (وهو مـا اعتقـد منتقـدو تروتسـكى اليساريون بضرورة حدوثه) لبات من الضروري التضـحية بالتكتيك - الدفاع عن الاتحاد السوفيتي علي هذا الأسـاس، يبدو إنه يسهل على منتقدي تروتسكي (هؤلاء الذين اعتبروا أنفسهم ثوريين) أن يختلفوا مع تسميته. ولكن لماذا الانشـقاق بسبب مجرد كلمات؟

كان رأي تروتسكي هو أن المسألة أكبر من ذلك. فلـو شكلت البيروقراطية بالفعل طبقة ومثل الاتحـاد السـوفيتي شكلا للمجتمع المستغل. إذن لما أمكن الافتراض بأن روسيا

الستالينية هي النتاج الاستثنائي جدا لظروف فريـدة، ولمـا أمكن الافتراض بأنها محكوم عليها بالزوال بسرعة، وهو ما كان تروتسكي مقتنعا به.

لم تتوقف الأمور عند هذا الحد أيضـاً. لقـد أشـار تروتسكى لوجهة نظر "في الهواء" لو جاز التعبير، في نهاية الثلاثينيات، وهي تزايد "***البقرطة" و"الدولنة***" في كـل مكـان وأن هذا دال علي شكل المجتمع القادم "***الدولـة الشـمولية***" والتي توقع لها تروتسكى نفسه أن تتطور لو لم تعقب الثورة البروليتارية الحرب. وعبرت رواية جورج أورويـل ١٩٨٤ (التي نشرت في عام ١٩٤٤) عن هذا المزاج. هكذا أصـبح السؤال ملتبساً مع "***المنظور التاريخي العالمي لعقود، إن لـم تكن لقرون قادمة: هل دخلنا في حقبه الثـورة الاجتماعيـة والمجتمع الاشتراكي أم، علي العكس، في حقبـة المجتمـع المنحدر إلي البيروقراطية الشمولية***".(١٥)

طرحت البدائل بشكل خاص. لقد كانت تنبؤات كتاب برونوريزي "بقرطة العالم"، الذي أشـار إليـه تروتسـكى، تنبؤات انطباعية وليست نتاج تحليل ولـم يسـتنتج صـحة الادعاء بأن الاتحاد السوفيتي مجتمع مستغل. افتـرض أنـه



كان شكلا جديدا للرأسمالية، لو صح ذلك، لتهدمت كل مقولات "المنظور التاريخي العالمي" تماماً.

بالطبع كان تروتسكى مدركاً لمفهوم رأسمالية الدولة. كتب في **الثورة المغدورة:**

"نظرياً، من المؤكد، يمكن تصور وضع تشكل فيه البرجوازية ككل شركة مساهمة تدير بواسطة دولتها كل الاقتصاد القومي. ولن تقدم القوانين الاقتصادية لمثل هذا النظام لغزا. الرأسمالي الفردي، كما هو معروف، يأخذ في شكل ربح نصيباً من فائض القيمة الكلي الذي خلق في البلد ككل بما يتوازى مع رأسماله الخاص، وليس فائض القيمة الذي خلقه عمال مؤسسته. ففي ظل رأسمالية الدولة الموحدة، سيتحقق قانون معدل الربح المتساوي هذا ليس بواسطة طرق ملتوية -أي التنافس بين رؤوس الأموال المختلفة بل فوراً ومباشرة من خلال دفاتر الدولة - ولكن، لم يوجد أبداً مثل هذا النظام، ولن يوجد أبداً بسبب التناقض بين المالكين أنفسهم، خاصة لأن الدولة في صفتها هنا كوعاء عام للملكية الرأسمالية، ستصبح هدفاً شديد الجاذبية للثورة الاجتماعية".(١٦)

فعلي الرغم من أن تروتسكى اعتقد أنه من الممكـن نظرياً وجود نظام رأسمالية دولة موحدة (أي كامـل) إلا أن هذا النظام لن يوجد أبدا. ولكن فلنفترض أنه قد تـم تحطـيم برجوازية ما بواسطة ثورة وفشلت البروليتاريـا - بسـبب ضعفها العددي والثقافي - في الاستيلاء علـي السـلطة أو الحفاظ عليها بعـد الاسـتيلاء عليهـا. مـاذا إذن؟ تصـبح بيروقراطية تبرز كشريحة ذات امتيـازات (كمـا وصـف تروتسكى باستفاضة في حالة بيروقراطيـة سـتالين) سـيدة الدولة والاقتصاد. ماذا سيكون في الواقع دورها الاقتصادي؟ ألن تكون "***بديل***" للطبقة الرأسمالية ؟. لا يمكن أن يجادل أحد بأنها ليست رأسمالية لأنها تسيطر علي الاقتصاد القومي كله. لقد سلم تروتسكى من حيث المبدأ، بـأن برجوازيـة دولـة يمكنها أن تشغل مثل هذا الموقع. الدفع الجاد الوحيـد الـذي يمكن تقديمه، بناء علي تحليل تروتسـكى، هـو مـا قدمـه تروتسكى ذاته. "***البيروقراطية لا تملك لا أسهم ولا سندات***"، هناك نقطتان بهذا الصدد: أولا، وهذه هـي النقطـة الأقـل أهمية، إن هذا ببساطة ليس صحيحا، فأي شخص في الاتحاد السوفيتي ذو إمكانيات يستطيع أن يشتري سندات دولة بفائدة

ويستطيع توريثها إذا دفع ضريبة ميرات معقولـة (أصـغر بكثير من ضريبة الميراث في الغرب، بالضبط كما أن أعلي معدلات ضريبة الدخل في الاتحاد السوفيتي أصـغر بكثيـر عنها في معظم الدول الرأسمالية الغربية)، ثانيا، وهذه هـي النقطة الأهم، فمن وجهة نظر ماركسية يعتبر استهلاك الفرد الرأسمالي، كما قال ماركس، "سـرقة تـتم علـي حسـاب التراكم"، أي أنه استنزاف للموارد كان يمكن أن يذهب نحـو التراكم، وهو بالتأكيد ليس الاعتبار الأهم. الاعتبار الأهم هو من يسيطر علي عملية التراكم.

وعند عودته لذات المسألة في ١٩٣٩ كتب تروتسكى :

"لقد رفضنا، وما زلنا نرفض، هذا المصطلح (رأسمالية الدولة) الذي يتجاهل الفرق الجوهري بين الدولة السـوفيتية والدول الرأسمالية، رغم أنه يوصف بالفعل خصائص معينة لهذه الدولة، هذا الفرق هو عدم وجود البرجوازيـة كطبقـة مالكة، ووجود شكل ملكية الدولة لأهم وسائل الإنتاج، وأخيراً الاقتصاد المخطط الذي سمح به قيام ثورة أكتوبر" (١٧).

لقد أصر تروتسكى علي التعامل مع تحليل المجتمـع الستاليني من وجهة نظر شكل الملكية وليس علاقات الإنتاج

الاجتماعية الحقيقية - رغم أنه كثيرا ما استخدم هذا التعبير الذي اعتبره متطابقاً مع شـكل الملكيـة. إلا أنهمـا ليسـا متطابقين.

في نقده لبرودون أوضح ماركس:

"لكي نُعرف الملكية البرجوازية لابد أن نتعرض لكـل علاقات الإنتاج البرجوازي الاجتماعية. أما محاولة تعريـف الملكية كعلاقة مستقلة، كتصنيف منفصل - كفكرة مجـردة أبدية - فلا يمكن اعتباره إلا وهما ميتافيزيقيـاً أو حقوقيـاً" (١٨).

هذا هو الحال في الاتحاد السوفيتي. لا يمكن النظـر إلي شكل الملكية (ملكية الدولة في هذه الحالة) كشيء مستقل عن علاقات الإنتاج الاجتماعية. لقد كانت، وما تزال، العلاقة المهيمنة في الإنتاج في الاتحـاد السـوفيتي (خاصـة بعـد التصنيع) هي علاقة العمل المأجور / رأس المـال المميـزة للرأسمالية: فالعامل في الاتحاد السوفيتي يبيع سـلعة، قـوة العمل، بنفس الطريقة التي يبيعها بها العامل فـي الولايـات المتحدة. ولا يأخذ العمال فى المقابل حصص كما هو الحـال مع العبيد، أو جزء من المنتج كما هو الحال مـع الأقنـان،

ولكن يدفع لهم بالمال الذي يصرف علي شراء السلع التـي أُنتجت لتُباع.

العمل المأجور يعني وجـود رأس مـال. لا توجـد برجوازية في الاتحاد السوفيتي. ولكن بالتأكيـد يوجـد رأس مال - كما عرف ماركس رأس المال. لسنا بحاجة إلـي أن نكرر كماركسيين، أن رأس المال لا يتكون مـن الماكينـات والمواد الخام والقروض. وهكذا "أن رأس المال هـو قـوة اجتماعية مستغلة، أي أنه، بوصفه قوه جزء مـن المجتمـع، يحافظ علي ذاته ويكبر من خلال التبادل مع قوة العمل الحية المباشرة. إن سيطرة العمل المتراكم، السابق تحقيقه، علـي العمل الحي المباشر هي التي تحول العمل المتراكم إلي رأس مال".(١٩)

يوجد مثل هذا الوضع بالتأكيد في الاتحاد السوفيتي.

بالنسبة لماركس، كانت أهمية البرجوازية تكمن فـي كونها تشخيص لرأس المال، في الاتحاد السـوفيتي، تـؤدي البيروقراطية هذا الدور. لقد أنكر تروتسـكى هـذه النقطـة الأخيرة. فبالنسبة له كانت البيروقراطية مجرد "عسكري" في عملية التوزيع يحدد فقط من يأخذ ماذا ومتي، ولكن هذا لـم

يكن منفصلا عن توجيه عملية التراكم الرأسمالي. إن الادعاء بأن البيروقراطية لا تقود عملية التراكم، أي أنها لا تعمل كـ "***تشخيص***" لرأس المال، لا يمكن أن يصمد أكثر من لحظـة أمام أي اختبار. إن لم تكن البيروقراطية، إذن من؟ بالتأكيـد ليس الطبقة العاملة. إن النقطة الأخيـرة توضـح بالضـبط الفارق الأساسي بين مجتمع انتقالي حقيقي (دولـة عماليـة، ديكتاتورية البروليتاريا) حيث سيستمر العمل المأجور لفتـرة من الوقت، وأي شكل للرأسمالية، فالسيطرة الجماعية للطبقة العاملة علي الاقتصاد تحول (عاجلا أو أجلا تزيل) علاقة العمل المأجور / رأس المال. وإذا تم الـتخلص مـن هـذه السيطرة في مجتمع صناعي، تعـود سـلطة رأس المـال. والمعضلة هنا... إن مفهوم الدولة العمالية سيكون خالياً مـن أي معني، بدون درجة ما، من سيطرة العمال علي المجتمـع ؟. كما أنه لو تم وصف مجتمع الاتحاد السوفيتي كشكل مـن أشكال رأسمالية الدولة ولابد من الاعتـراف بأنـه مجتمـع رأسمالي ذو شكل عالي الخصوصية، رغم أنه بالطبع أقرب بشكل ضخم جدا للطبائع الرأسمالية، مشوشة أو غير ذلـك، منه لدولة عمالية. (لا يمكن مناقشة خصوصيات وديناميـات

الاتحاد السوفيتي هنا. وسنجد أفضل تحليل لها فـي كتـاب رأسمالية الدولة في روسيا لتوني كليف).(٢٠)

ما يخصنا هنا هو فشل تروتسكى في اختبار علاقات الإنتاج الحقيقية في الاتحاد السوفيتي وتبعات هـذا الفشـل. جاءت نظرته الأخيرة هكذا.

"إن نظاما شموليا، سواء من نوع ستاليني أو فاشي، لا يمكن أن يكون إلا نظاماً انتقاليا مؤقتاً بطبيعته. فالدكتاتورية العارية في التاريخ كانت بشكل عام نتيجـة وعـرض مـن أعراض أزمة اجتماعية حادة، وليست مطلقا نظاما مستقرا. لا يمكن أن تكون الأزمة الحادة وصفاً دائمـاً للمجتمـع. إن دولة شمولية تستطيع قمع التناقضات الاجتماعية خلال فتـرة معينة، ولكنها غير قادرة علي إعادة إنتاج ذاتها بدون حدود. إن التصفيات الوحشية في الاتحاد السوفيتي هي أقوى دليـل لكون المجتمع السوفيتي يتجه بشكل عضوي نحو الإطاحـة بالبيروقراطية. إن ستالين لا يدل على شئ، فـي ضخـامة ووحشية وكذب تصفياته، إلا عدم قدرة البيروقراطية علـى تحويل نفسها إلى طبقة حاكمة مستقرة. ألن نضع أنفسـنا إذاً في موقف غاية في السخف إذا أطلقنا علـى الأوليجاركيـة

البونابرتية لقب طبقة حاكمة جديدة قبل بضع سنوات أو حتى بضعة شهور من سقوطها الغير مأسوف عليه".(٢١)

وتم توقع هذا السقوط إما لأن البيروقراطية والتـي ستصبح أكثر فأكثر أداة البرجوازية العالمية ستتخلص مـن الأشكال الجديدة للملكية، أو بسـبب ثـورة بروليتاريـة (أو بالطبع بسبب الغزو الأجنبي). كان متوقع حدوث ذلك فـي سنوات قليلة أو شهور قليلة.

كان هذا هو التفسير الذي تركه تروتسكى لأتباعـه والذي أوقعهم في الخطأ تماماً مثلما فعل منظوره للرأسمالية الغربية. ولكن ثبت أن وجود جناح من البيروقراطية راغب في إعادة الرأسمالية ما هو إلا خرافة علي الأقل لوقت طويل جدا (وتناقض اعتقاد تروتسكى في حدوث ذلك بشـدة مـع رؤيته لإمكانية شمولية الدولة في الدول الرأسمالية المتقدمة). خرج الاتحاد السوفيتي من الحرب أقوي من قبـل (بالنسـبة للقوى الأخرى) والبيروقراطية ثابتة في حكمها علي أسـاس الصناعة المؤممة. الأكثر من ذلك، أنها فرضت أنظمة علي النموذج الروسي في بولندا وتشيكوسلوفاكيا والمجر ورومانيا وبلغاريا وألمانيا الشرقية وكوريا الشمالية. كما أشرنا من قبل

وصلت أنظمة ستالينية "أصلية" للسلطة في ألبانيا ويوغوسلافيا وبعد ذلك بقليل في الصين وفيتنام الشمالية بدون تدخل مباشر مهم من الجيش الروسي. لم تكن الستالينية، بالتأكيد علي "فراش الموت" ولكنها كانت، في ظل غياب الثورة البروليتارية، وسيلة للتراكم الرأسمالي بدلا من رأسمالية الدولة الاحتكارية "الكلاسيكية".

الثورة الدائمة المنحرفة

لم تلعب الطبقة العاملة الصناعية أي دور علي الإطلاق في استيلاء الحزب الشيوعي الصيني علي السلطة في ١٩٤٨ - ١٩٤٩ كما لم يلعب العمال أي دور داخل الحزب الشيوعي الصيني.

ويكفى الإشارة هنا إنه. في نهاية ١٩٢٥ شكل العمال ٦٦% من عضوية الحزب الشيوعي الصيني (الفلاحين ٥% والبقية للبرجوازية الصغيرة الحضرية التي لعب المثقفون دورا قياديا بينها). علي العكس من ذلك، فبحلول ١٩٣٠ شكل العمال، حسب إحصائيات الحزب الشيوعي ذاته ٦ر١% من عضوية الحزب.(٢٢)

بعد ذلك أصبح الرقم فعلياً صفر إلي أن استحوذت قوات ماو تسي تونج علي الصين بعد هزيمة كوميونة كانتون في نهاية ١٩٢٧ تراجعت بقايا الحزب الشيوعي الصيني إلي أعماق الريف ولجأت إلي حرب العصابات. وتم تأسيس "جمهورية كيانجسي السوفيتية" الفلاحية في أجزاء متغيرة من وسط الصين. ولما هزمتها قوات تشانج كاي تشيك في ١٩٣٤ بدأ الجيش الأحمر "المسيرة الطويلة" نحو تشانس في أقصي الشمال الغربي. تركت هذه العملية البطولية، التي تمت برغم المصاعب الجمة، الحزب - الجيش (لقد أصبح من الصعب التفريق بينهما) في منطقة بعيدة تماما عن الحياة المدنية، الصناعة الحديثة والطبقة العاملة الصينية. اعترف تشوتين القائد العسكري في الحزب حينذاك بأن المناطق الواقعة تحت سيطرة الشيوعيين هي أكثر المناطق المتخلفة اقتصاديا في البلد كله.(٢٣) وكان هذا البلد، الصين، بدوره واحد من أكثر البلاد المتخلفة في العالم.

وهناك خاضت قوات الحزب الشيوعي الصيني النضال من أجل البقاء ضد جيوش تشانج (رغم أنها كانت متحالفة معه شكليا بعد ١٩٣٥) والغزاة اليابانيين. وتم بناء

جهاز دولة في هذه المنطقة الفلاحية بالكامل علي الأسس السلطوية والهرمية المعتادة حيث كان المثقفون المدنيون المنزوعون من طبقاتهم في القمة والفلاحون في القاع. سيطر الجيش الياباني علي كل المناطق ذات التطور الصناعي الهام من ١٩٣٧ حتى ١٩٤٥، علي منشوريا (التي كانت تشهد نمواً صناعيا) وعلي المدن الساحلية حيث كانت الصناعة و(البروليتاريا) تتضاءل.

ومع الاستسلام الياباني في ١٩٤٥ أعادت قوات الكومنتانج احتلال معظم الصين بمساندة الولايات المتحدة ولكن النظام شديد الفساد للكومنتانج كان قد أصبح في حالة متطورة من التحلل. وبعد أن فشلت محاولات إقامة حكومة تحالف بين الكومنتانج والحزب الشيوعي قضي الحزب علي عدوه المنقسم والمثبط بأساليب عسكرية بحته. ولم تؤثر الإمدادات العسكرية الأمريكية الضخمة والمساندة للكومنتانج علي مجري الصراع. هربت وحدات الكومنتانج، وفي بعض الأحيان لواءات وفرق، بالجملة وكثيرا ما هرب معهم جنرالاتهم.

وكانت إستراتيجية ماو تشجع مثل هذا التحول فـي الولاء وتهدئة أي فعل مستقل للفلاحين أو العمال - خاصـة الأخيرين. لقد كان الحزب الشيوعي منفصـلا تمامـا عـن الطبقة العاملة. وقبل سقوط بكين أصدر لين بياو، قائد جيش الحزب في المنطقة وخليفة ماو حتى إدانته وموته مهانا فـي ١٩٧١، بيانا يدعو فيه العمال "***ألا يثوروا بل أن يحـافظوا علي النظام ويستمروا في العمـل بمـوافقتهم، إن رجـال الشرطة والكومنتانج، في كل مؤسسات الحكومة، مـدعوين للاستمرار في مراكزهم***" (٢٤). في يناير١٩٤٩ استسلم القائد العام الكومنتانجي لحامية بكين. وتم الحفاظ علي النظام وحل حاكم عسكري محل آخر.

وحدث نفس الشيء عندما اقتربت قـوات الحـزب الشيوعي من نهر اليانسجتي والمدن الكبرى لوسط الصـين مثل شنغهاي وهانكوا والتي كانت المراكز العاصفة للثـورة بين ١٩٢٥-١٩٢٧. أعلن بيان خاص وقع عليه ماو تسـي تونج (رئيس الحكومة) وتشو تيه (القائد العام للجيش) أن:

"العمال والموظفين في كل المجالات سيسـتمرون فـي العمل وستستمر الأعمال التجارية كالمعتاد.. علي مـوظفي

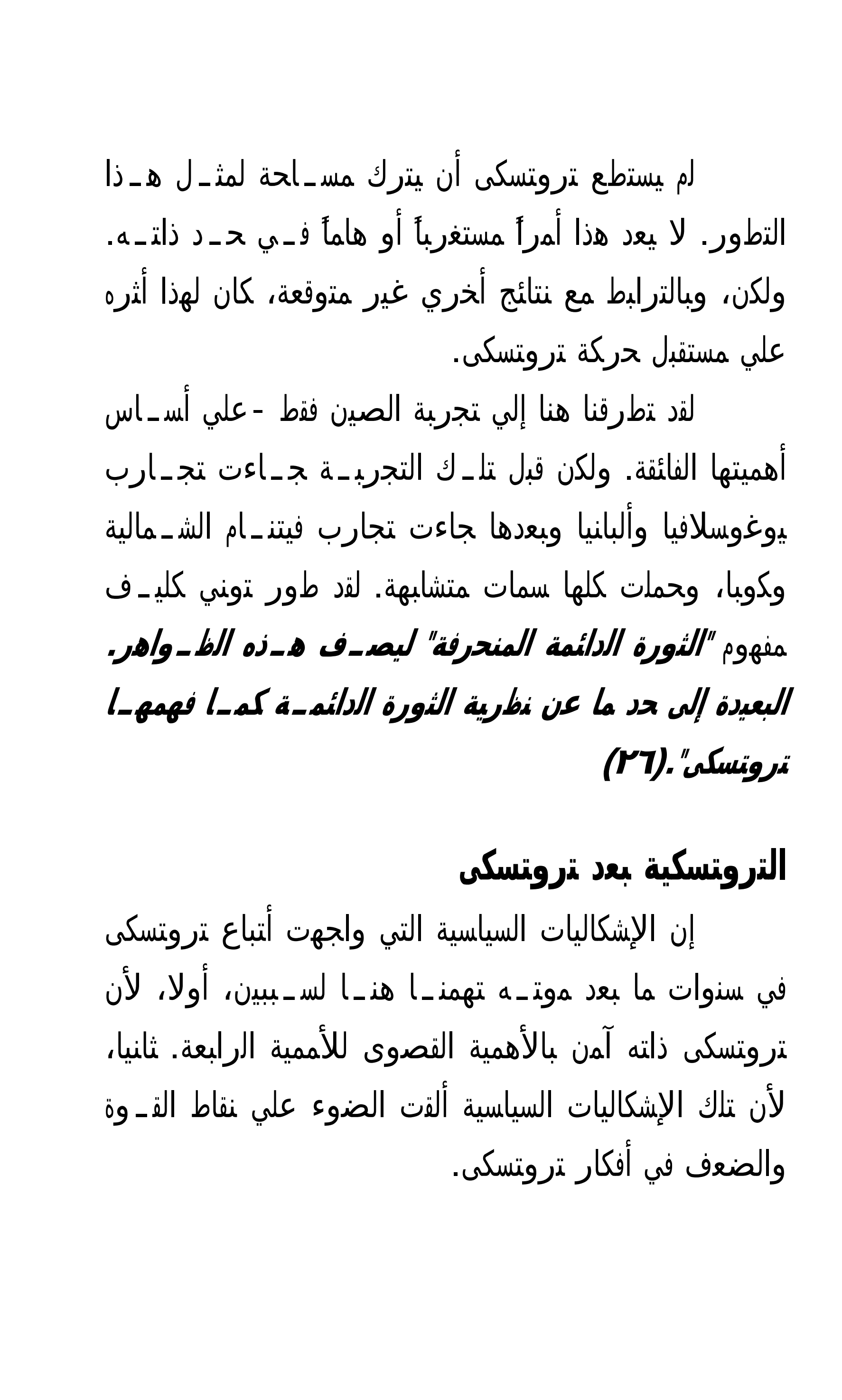
الكومنتانج.. من مختاف المستويات.. ورجال الشرطة البقاء في مراكزهم وإطاعة أوامر جيش التحرير الشعبي وحكومة الشعب" (٢٥).

ثورة غريبة تلك التي تستمر فيها الأعمال التجاريـة كالمعتاد! وهكذا مضي الأمـر إلـي النهايـة وتـم إعـلان الجمهورية الشعبية في أكتوبر ١٩٤٩. ولهذه الأسباب أنكـر الكثير من أتباع تروتسكى، ومن ضـمنهم حـزب العمـال الاشتراكي الأمريكي، ولسنوات عديدة بعد ١٩٤٩ حدوث أي تغير حقيقي في الصين. ثبت خطأ مثل هذه الرؤية. لقد حدث تحول حقيقي. ولكن من أي نوع؟ إن الأمر المحـوري فـي نظرية الثورة الدائمة أن البرجوازية في الدول المتخلفة غير قادرة علي قيادة الثورة البرجوازية لقد ثبـت صـحة هـذا الاعتقاد مرة أخري. ولكن من المحوري، أيضا ، الاعتقـاد بأن الطبقة العاملة فقط يمكنها قيادة الفلاحـين والبرجوازيـة الصغيرة المدنية في الثورة الديمقراطية التي سـتندمج فـي الثورة الاشتراكية.

هذا ثبت خطأه فقد ظلت الطبقة العاملة الصينية، في غياب أي حركة عمالية ثورية جماهيرية عالميا سلبية. ولم

يفند الفلاحون رؤية ماركس حول عدم قدرتهم علي لعب دور سياسي مستقل. لم تكن ١٩٤٩ حركة فلاحين. ومع كل ذلك حدثت ثورة. لقد تم توحيد الصين. وتم طرد القوي الإمبريالية من أرض الصين. وعلى الرغم من أن المسألة الفلاحية لم تحل فلقد تم علي أي حال تسويتها بطريقة لا علاقة لها بالاشتراكية، من خلال تصفية كبار ملاك الأرض وتم تحقيق كل العناصر الأساسية للثورة البرجوازية (أو الديمقراطية) كما فهمها تروتسكى فيما عدا الحرية السياسية التي يمكن من خلالها للحركة العمالية أن تتطور.

لقد تم كسب كل هذا بقيادة المثقفين المنزوعين من طبقاتهم والذين بنوا جيشا فلاحيا وقضوا بأساليب عسكرية علي نظام كان قد تعفن لدرجة التحلل، كل هذا في إطار أزمة اجتماعية عامة. قبل ألفي عام تأسست إمبراطورية "هان" في ظروف مشابهة تحت قيادة هان الذي أتي من أسرة فلاحيه غنية، مثل ماو. ولكن في منتصف القرن العشرين اعتمد بقاء النظام الجديد علي التصنيع. وتوجد جذور الستالينية الصينية في هذه الضرورة.



لم يستطع تروتسكى أن يترك مساحة لمثل هذا التطور. لا يعد هذا أمراً مستغرباً أو هاماً في حد ذاته. ولكن، وبالترابط مع نتائج أخري غير متوقعة، كان لهذا أثره علي مستقبل حركة تروتسكى.

لقد تطرقنا هنا إلي تجربة الصين فقط -علي أساس أهميتها الفائقة. ولكن قبل تلك التجربة جاءت تجارب يوغوسلافيا وألبانيا وبعدها جاءت تجارب فيتنام الشمالية وكوبا، وحملت كلها سمات متشابهة. لقد طور توني كليف مفهوم ***"الثورة الدائمة المنحرفة" ليصف هذه الظواهر. البعيدة إلى حد ما عن نظرية الثورة الدائمة كما فهمها تروتسكى".(٢٦)***

التروتسكية بعد تروتسكى

إن الإشكاليات السياسية التي واجهت أتباع تروتسكى في سنوات ما بعد موته تهمنا هنا لسببين، أولا، لأن تروتسكى ذاته آمن بالأهمية القصوى للأممية الرابعة. ثانيا، لأن تلك الإشكاليات السياسية ألقت الضوء علي نقاط القوة والضعف في أفكار تروتسكى.

صلبت أممية تروتسـكى الثوريـة، التـي لا تعـرف المساومة، موقف أتباعه فـي مقـاومتهم أي تهـاون مـع الإمبريالية "الديمقراطية" لمعسـكر الحلفـاء أثنـاء الحـرب العالمية الثانية، علي الرغم من الضـغط العـارم (متضـمنا ضغط معظم جمـاهير الطبقـة العاملـة ومعظـم أفضـل مناضليها).

لقد سبح أتباع تروتسكى بالفعل ضد التيار وخرجـوا مرفوعي الرأس علي الرغم من اضطهادهم وسـجنهم (فـي الولايات المتحدة وبريطانيا) وبالطبع في الدول التي احتلهـا النازيون حيث تم إعدامهم. الأمر الذي أفقدنا عدداً كبيرا من المناضلين التروتسكيين في أوروبا.

لقد حافظ أتباع تروتسكى علي هذا التراث ضـد كـل المصاعب والعقبات، وضـموا للحركـة عناصـر جديـدة ونجحوا، في بعض حالات علي الأقل، فى تشكيل حركـات عمالية التكوين (ينطبق هـذا بالتأكيـد علـي التروتسـكيين الأمريكيين والبريطانيين). لقد منحهم اعتقادهم الراسخ بقرب حدوث الثورة البروليتاريةقوة فائقة. هكذا أصدرت المجموعة البريطانية الرئيسية في عام ١٩٤٤ كتيبا يحتوي علي وثيقة

في عام ١٩٤٢ بعنوان "الإعداد للسلطة" رغم أنه لـم يكـن هناك أكثر من ٢٠٠ أو ٣٠٠ تروتسكى في ذلـك الوقـت.. ويعود هذا التجاهل الهائل للمصاعب المباشرة والتي كان من الواضح أنها خارقة، والذي امتـزج بإيمـان لا يهتـز فـي المستقبل، يعود إلى أفكار تروتسكى. هكذا كان حـال أتبـاع تروتسكى في كل مكان.

للأسف كان هناك جانب آخر للمسألة: اعتقاد حرفي بصحة رؤية تروتسكى للعالم وتنبؤاته بين ١٩٣٨ - ١٩٤٠. لقد امتزج عنصران مختلفان، الأممية الثوريـة المصـحوبة بالإيمان بالانتصار النهائي للاشـتراكية، والتقيـيم المجـدد لاحتمالات تطور الرأسمالية والسـتالينية. بالتـالي أصـبح الاهتمام بوقائع الحال المتغير بسـرعة، فـي نظـر أتبـاع تروتسكى الأكثر "أرثوذكسية" مطابق للـ "تحريفية". وقفـت الحركة، في معظمها، لسنوات عديدة بعد ١٩٤٥ في "خنـدق ١٩٣٨" وعندما تمكنت الحركة في النهاية من الخروج منه، ظهر عدد من التيارات المختلفة، بعضها يحافظ علي عناصر من التراث الشيوعي الحقيقي أكثر من بعضها الآخـر. لقـد تمثلت نقطة ضعفهم الكبرى في عدم قدرتهم عمومـاً علـي

مقاومة قوة جذب الستالينية بالكامل، وبعد ذلك بقليـل، فـي الخمسينات والستينيات، علي مقاومة قوة جذب حركات العالم الثالث. وهذا بدوره أبعدهم عن التركيز المتماسك والمصـمم علي إعادة إحياء تيار ثوري في الطبقة العاملـة الصـناعية هكذا تقوت طبيعتهم البرجوازية الصغيرة وتأكـدت، ودارت الحلقة المفرغة دورتها من جديد.

بعد ذكر كل هذا، يبقي صحيحاً أن تـراث نضـال تروتسكى طول حياته، والذي خاضه في السنوات الأخيـرة من حياته تحت ظروف بالغة الصعوبة، تراث قـيم وثـري للغاية بالنسبة لكل هـؤلاء الماركسـيين الـذين يعتبـرون الماركسية ربطا بين النظرية والتطبيـق، وليسـت مجـرد تحليلات أكاديمية. ويبقـى صـحيحاُ أيضـاً إن إضـافات تروتسكى للماركسية لا يمكن لمناضلى اليوم الاستغناء عنها لإنجاز هذا الربط .

الهوامش

المقدمة :

١- ب .أندرسون "تصورات حول الماركسية الغربية"، لندن ١٩٧٦، ص ٢٩.

الفصل الأول : الثورة الدائمة

١. "إنجلز إلى كاوتسكي" مـاركس وإنجلـز: مراسـلات مختارة ١٨٤٦ ١٨٩٥، لندن ١٩٣٦، ص ٣٩٩.
٢. بيان حزب العمال الاشتراكي الـديمقراطي الروسـي ١٨٩٨ ، في ر.ف .دانيلز، تاريخ وثائقي للشـيوعية، نيويورك، ١٩٦٢ المجلد، ١ ص ٧.
٣. لينين الأعمال الكاملة موسـكو ١٩٦٠، المجلـد ٩ ص ٥٥ - ٥٧.
٤. المصدر السابق المجلد ٢١ ص ٣٣.
٥. تروتسكى "خلافاتنا" في ١٩٠٥ نيويـورك ١٩٧٢، ص ٣١٢.
٦. المصدر السابق.
٧. المصدر السابق ص ٣١٣ - ٣١٤.
٨. تروتسكى "نتائج وتوقعات" في الثورة الدائمة، نيويورك ١٩٦٢، ص ١٩٤ - ١٩٥.

9. لينين الأعمال الكاملة. موسكو ١٩٦٠، المجلد ٩ ص ٢٨.
10. تروتسكي "خلافاتنا" المصدر السابق ص ٣١٧.
11. إن محاولة تبرير هذه المقولات سيأخذنا بعيدا عن الهدف المحدد لهذا الكتاب ستجد أدلة حاسمة، من زوايا مختلفة بعض الشيء في تروتسكي: "تاريخ الثورة الروسية" لندن ١٩٧٧ وتوني كليف "لينين"، لندن ١٩٧٦، المجلد الثاني.
12. ت. كليف "لينين"، لندن ١٩٧٦، المجلد الثاني، ص ١٣٨.
13. دويتشر "النبي الأعزل"، لندن ١٩٥٩، ص ٣٢٣.
14. تروتسكي "الحزب الشيوعي الصيني والكومنتانج"، في ليون تروتسكي حول الصين نيويورك ١٩٧٦، ص ١١٣-١١٥.
15. تروتسكي "الخطاب الأول حول المسألة الصينية"، في ليون تروتسكي حول الصين المصدر السابق ص ٢٢٢.

١٦. تروتسكى "ملخص تصورات للثورة الصينية" المصـدر السابق ص ٢٢٩.
١٧. تروتسكى "الثورة الصينية وأطروحات الرفيق سـتالين" المصدر السابق ص ١٦٢ - ١٦٣.

الفصل الثاني : الستالينية

١. لينين "الأعمال الكاملة" موسكو ١٩٦٠، المجلد الثـاني ص ٦٥ - ٦٦.
٢. إ.ه.كار "الثورة البلشفية" لندن ١٩٦٣، المجلد الثاني ص ١٩٤ - ٢٠٠.
٣. ف سيرج "من لينين إلى ستالين" نيويورك ١٩٧٣، ص ٣٩.
٤. تروتسكى في إ. دويتشر "النبي المسلح" لنـدن ١٩٥٤، ص ٥٠٩.
٥. لينين، المصدر السابق المجلد ٣٢ ص ٢٤.
٦. المصدر السابق ص ٤٨.
٧. هناك سرد تفصيلي في إ. دويتشر "النبي الأعزل" لندن ١٩٥٩، خاصة الفصل الثاني والخامس.
٨. منبر المعارضة، لندن ١٩٧٣، ص ٣٥ - ٣٦.

٩. ستالين في تروتسكى "الثورة المغدورة" لنـدن ١٩٦٧، ص ٢٩١.
١٠. تروتسكى "إلى أين تسير الجمهورية السـوفيتية" فـي كتابات ليون تروتسكى ١٩٢٩ نيويـورك ١٩٧٥، ص ٤٧ - ٤٨.
١١. المصدر السابق ص ٥٠.
١٢. المصدر السابق ص ٥١.
١٣. تروتسكى "إشكاليات تطور الاتحـاد السـوفييتي" فـي كتابات ليون تروتسكى ٣١ - ١٩٣٠ نيويورك ١٩٧٣، ص ٢١٥.
١٤. المصدر السابق ص ٢٢٥.
١٥. أ.نوف "تاريخ اقتصادي للاتحـاد السـوفييتي" لنـدن ١٩٦٥، ص ٢٠٦.
١٦. تروتسكى "الطبيعة الطبقية للدولة السوفيتية" في كتابات ليون تروتسكى ١٩٣٣ - ١٩٣٤ نيويورك ١٩٧٢، ص ١١٧ - ١١٨.

١٧. تروتسكى "الدولة العمالية وترميدور والبونابرتية" في كتابات ليون تروتسكى ١٩٣٤-١٩٣٥ نيويورك ١٩٧١، ص ١٦٦ - ١٦٧.
١٨. المصدر السابق ص ١٨٢.
١٩. دويتشر، المصدر السابق ص ١٣٩.
٢٠. تروتسكى " الدولة العمالية وترميدور والبونابرتية" المصدر السابق ص ١٧٢ - ١٧٣.
٢١. تروتسكى "عذاب موت الرأسمالية ومهام الأممية الرابعة" في وثائق الأممية الرابعة، نيويورك ١٩٧٣، ص ٢١٠.
٢٢. المصدر السابق ص ٢١١.
٢٣. المصدر السابق ص ٢١١ - ٢١٢.
٢٤. تروتسكى "الثورة المغدورة"، لندن ١٩٦٧، ص ٢٧٨.
٢٥. تروتسكى "عذاب موت الرأسمالية ومهام الأممية الرابعة"، المصدر السابق ص ٢١٣.
٢٦. تروتسكى "الثورة المغدورة" المصدر السابق ص ٢٥٤.
٢٧. المصدر السابق ص ٢٥٥.

الفصل الثالث: الإستراتيجية والتكتيك

١. تروتسكى "بيان الأممية الرابعة الشيوعية إلـى عمـال العالم"، في السنوات الخمس الأولى للشيوعية، نيويورك ١٩٤٥، المجلد الأول ص٢٩ - ٣٠.
٢. ج. دجراس "الأممية الشيوعية ١٩١٩-١٩٣٤ " لنـدن ١٩٧١، المجلد الأول ص ١٦.
٣. الصدر السابق ص ٦.
٤. لينين، الأعمال الكاملة، موسكو ١٩٦٠، المجلد ٢٨ ص ٤٥٥.
٥. س هافنر، فشل ثورة ألمانيـا ١٩١٨-١٩١٩، لنـدن ١٩٧٣، ص ١٥٢.
٦. لينين، المصدر السابق المجلد ٢١ ص ٤٠.
٧. ج.دجراس، المصدر السابق المجلـد الأول ص ١٢ - ١٣.
٨. ج.دجراس، المصدر السابق ص ١٩.
٩. لينين، المصدر السابق، المجلد ٢٥ ، ص ٣٩٣.
١٠. المصدر السابق، المجلد ٢٩ ص ٣١١.
١١. ج.دجراس، المصدر السابق ص ١٣.

١٢. لينين، المصدر السابق المجلد ٣١ ص ٢٠٦ - ٢٠٧.
١٣. المصدر السابق ص ٢٠٦.
١٤. ج.دجراس المصدر السابق ص ١٠٩.
١٥. تروتسكى خطاب حول تقرير الرفيق زينوفيف عن دور الحزب" في السنوات الخمس الأولى للأممية الشيوعية، المصدر السابق المجلد الأول ص ٩٧ - ٩٩.
١٦. المصدر السابق ص ١٠١.
١٧. المصدر السابق ص ١٤١.
١٨. المصدر السابق ص ٣٠٣ - ٣٠٥.
١٩. المصدر السابق ص ٢٩٤ - ٢٩٥.
٢٠. ج.دجراس، المصدر السابق، المجلد الأول ص ٢٣٠.
٢١. تروتسكى، السنوات الخمس الأولى للأممية الشـيوعية، المصدر السابق المجلد الثاني ص ٩١ - ٩٥.
٢٢. تروتسـكى، كتابـات ليـون تروتسـكى ٣٢-١٩٣٣ نيويورك ١٩٧٢، ص ٥١ - ٥٥.
٢٣. إ.ه كار "فترة التحول ١٩٢٣-١٩٢٤ " لنـدن ١٩٦٥، ص ٢٢١.

٢٤. تروتسكي "دروس الإضراب العام" في كتابات تروتسكي حول بريطانيا، لندن ١٩٧٤، المجلد الثاني ص ٢٤١ - ٢٤٥.
٢٥. المصدر السابق ص ٢٤٢.
٢٦. المصدر السابق ص ٢٥٢ - ٢٥٣.
٢٧. ج. دجراس "الأممية الشيوعية: وثائق" لندن المجلد ٣ ص ٤٢.
٢٨. المصدر السابق ص ١٥٩.
٢٩. المصدر السابق ص ٢٢٤.
٣٠. تروتسكي "التحول في الأممية الشيوعية" في الصراع ضد الفاشية في ألمانيا، نيويورك ١٩٧١، ص ٥٧ - ٦٠.
٣١. تروتسكي "ماذا بعد ؟"، في المصدر السابق ص ٢٤٨.
٣٢. المصدر السابق ص ٢٥٤.
٣٣. ج. دجراس المصدر السابق المجلد ٣ ص ٣٧٥.
٣٤. المصدر السابق ص ٣٩٠.
٣٥. المصدر السابق ص ٣٨٤.

٣٦. أنظر ف.مورو "الثورة والثورة المضادة في أسـبانيا"، نيويورك ١٩٣٨، ص ٣٤.

٣٧. المصدر السابق ص ٣٥.

٣٨. تروتسكى "دروس أسبانيا: التحذير الأخير"، في الثورة الأسبانية ٣١-١٩٣٩ نيويـورك ١٩٧٣، ص ٣٢٢ - ٣٢٣.

الفصل الرابع : الحزب والطبقة

١. دويتشر "النبي المسلح"، لندن ١٩٥٤، ص ٤٥.

٢. "١٩٠٣ :المؤتمر الثاني لحزب العمـال الاشـتراكي الديمقراطي الروسي" ، لندن ص ٢٠٤.

٣. تروتسكى "مهامنا السياسية"، في د ف. دانيلز، تاريخ وثائقي للشيوعية نيويورك ١٩٦٢، المجلد الأول ص ٣١.

٤. أنظر شورر "الثورة الدائمة"، لندن ١٩٦٢، ص ٧٣.

٥. المصدر السابق ص ٧٤.

٦. أنظر ت. كليف "لينين" لنـدن ١٩٧٦، المجلـد الأول ص ١٦٨ - ١٧٩، المجلد الثاني ص ٩٧ -١٣٩.

٧. تروتسكى "ماذا بعد ؟ " في الصراع ضد الفاشية فـي ألمانيا، نيويورك ١٩٧١، ص ١٦٣.
٨. المصدر السابق ص ١٦٣ - ١٦٤.
٩. المصدر السابق ص ١٥٩.
١٠. تروتسكى "بيان الأممية الشـيوعية لعمـال العـالم"، نيويورك ١٩٤٥، المجلد الأول ص ٢٩.
١١. تروتسكى "ماذا بعد ؟" المصدر السابق ص ٢٥٤.
١٢. تروتسكى "الثورة الأسبانية والخطر الـذي يهـددها"، نيويورك ١٩٧٣، ص ١٣٣.
١٣. تروتسكى "التجمعات في المعارضة الشيوعية"، فـى كتابات ليون تروتسكى ١٩٢٩، نيويورك ١٩٧٥، ص ٨١.
١٤. تروتسكى "المعارضة اليسـارية الأمميـة: مهامهـا ومنهجها" في كتابات ليون تروتسـكى ٣٢ -١٩٣٣، نيويورك ١٩٧٢، ص ٥٦.
١٥. تروتسكى "تاريخ الثورة الروسية" لندن ١٩٧٧، المجلد الأول ص ٣٠٦.

١٦. تروتسكى "تطور الكومنترن"، وثائق الأممية الرابعة، نيويورك ١٩٧٣، المجلد الأول ص ١٢٨.

١٧. تروتسكى "ترميـدور والبونابرتيـة"، فـي كتابـات تروتسكى ٣٠ - ١٩٣١، نيويورك ١٩٧٣، ص ٧٥.

١٨. تروتسكى "من أجل جبهة متحدة عمالية ضد الفاشية"، في الصراع ضد الفاشية في ألمانيا المصدر السـابق ص ١٣٤.

١٩. تروتسكى "ألمانيا مفتاح الوضع الأممي"، في الصراع ضد الفاشية في ألمانيا المصدر السابق ص ١٢١ - ١٢٢.

٢٠. تروتسكى "بيروقراطية ستالين في مأزق" كتابات ليون تروتسكى ١٩٣٢، نيويورك ١٩٧٣، ص ١٢٥.

٢١. تروتسكى "إلى هيئة تحرير بروميتيو" ، كتابات ليـون تروتسكى ٣٥-١٩٣٦، نيويـورك ١٩٧٠، ص ٢٨٥ - ٢٨٦.

٢٢. كليف "لينين"، لندن ١٩٧٦، المجلد الثاني ص ١٢.

٢٣. ج. فان هيجنورت "مع تروتسكى في المنفى"، بوسطن ١٩٧٨، ص ٣٨.

٢٤. تروتسكى "دروس تدخل ال(أس.أف.أى.أو.)"، فـي كتابات ليـون تروتسـكى ٣٥ - ١٩٣٦، نيويـورك ١٩٧٠، ص ٣١.
٢٥. تروتسكى "حان الوقت للتوقف"، في كتابـات ليـون تروتسكى ٣٣-١٩٣٤، نيويورك ١٩٧٢، ص ٩٠ - ٩١.
٢٦. تروتسكى "وسطية أم ماركسية"، في كتابـات ليـون تروتســكى ٣٤ - ١٩٣٥، نيويــورك ١٩٧١، ص ٢٧٤.
٢٧. تروتسكى "إنجاز عظيم" في كتابات ليون تروتسكي٣٧ -١٩٣٨، نيويورك ١٩٧٦، ص ٤٣٩.

الفصل الخامس : الإرث

١. أنظر محاكمات موسكو: مختارات، لنـدن ١٩٦٧، ص ١٢.
٢. أنظر إ. دويتشر "النبى المنبوذ"، نيويورك ١٩٦٤، ص ١٧١.

٣. تروتسكى " النضال ضد التيار"، فـى كتابـات ليـون تروتسكى ٣٨-١٩٣٩، نيويورك ١٩٧٤، ص ١٥١-
.i ٢٥٢.

٤. تروتسكى " عذاب موت الرأسـمالية ومهـام الأمميـة الرابعة"، فى وثائق الأممية الرابعة، نيويورك
.i ١٩٧٣، ص ١٨٠.

٥. تروتسكى " الاتحاد السوفيتى فى الحرب"، دفاعاً عـن الماركسية، لندن ١٩٧١،ص ٩.

٦. تروتسكى " عذاب موت الرأسـمالية ومهـام الأمميـة الرابعة"، المصدر السابق، ص١٨٠.

٧- المصدر السابق ص ١٨٢

٧. -تروتسكى " مؤامرة تصفية الكومنترن"، فى كتابـات ليون تروتسكى ٣٥- ١٩٣٦،نيويـورك ١٩٧٠،ص ١١.

٨. تروتسكى " الاتحاد السوفيتى فى الحـرب"، المصـدر السابق ، ص ١٠

٩. م .كيدرون "الرأسمالية الغربية منـذ الحـرب"، لنـدن ١٩٦٧، ص١١.

١٠.تروتسكى " تأسيس الأممية الرابعة"، فى كتابات ليـون تروتسكى ٣٨-١٩٣٩، المصدر السابق،ص ٨٧.
١١-تروتسكى " عذاب موت الرأسمالية"، المصدر السابق، ص ١٨٣.
١٢-تروتسكى " الاتحاد السوفيتى فى الحـرب"، المصـدر السابق ، ص ٤-٥.
١٣-المصدر السابق ص٢١.
١٤-المصدر السابق ص ١٨.
١٥-تروتسكى "الثورة المغدورة"، لندن ١٩٦٧، ص١٤٥-١٤٦.

١٦-تروتسكى " عشر سنوات"، فى كتابات ليون تروتسكى ٣٨-١٩٣٩، المصدر
١٧-السابق، ص ٣٤١.
١٨-ماركس "بؤس الفلسفة"، لندن ١٩٣٧، ص ١٢٩-١٣٠